مكتبة الدراسات النفسية والاجتماعية

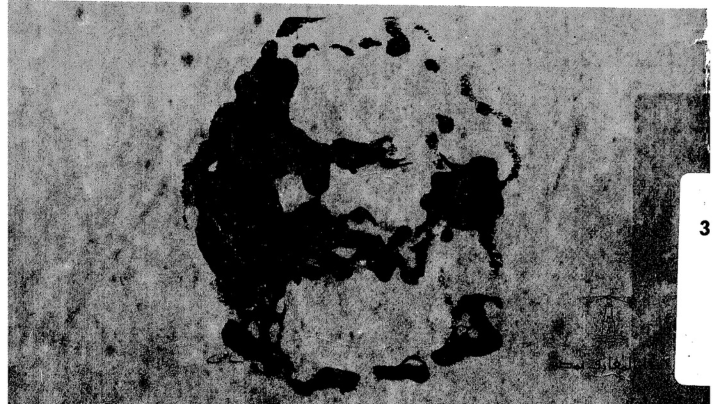
بإشراف الدكتور مصطفى زيور

تأليف : د. أوسبورن

ترجمة : د. سعاد الشرقاوي

مراجعة وتقديم : د. مصطفى زيور





3

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

الماركسية والتحليل النفسي

مكتبة الدراسات النفسية والاجتماعية

بإشراف الدكتور مصطفى زيور

الماركسية والتحليل النفسي

تأليف

روبن أوسبورن

ترجمة

الدكتورة سعاد الشرقاوي

مراجعة وتقديم

الدكتور مصطفى زيور



دار المعارف بمصر

الناشر دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

تصدير

بقلم دكتور مصطفى زيور

إن كتابة تصدير لكتاب يعرض قضايا التحليل النفسى وقضايا المادية الجدلية بهدف التأليف بينها تلقى صعوبات تختلف باختلاف الكاتب . فإذا كان محللا نفسياً – كما هو حال كاتب هذه السطور – مطلعاً على قضايا المادية الجدلية فسيختلف المنظور ومسار المناقشة عما إذا كان ماركسياً مطلعاً على قضايا التحليل النفسى . ويبدو أن المثل الأعلى أن يكون المرء محللا نفسياً ماركسياً معاً ، وهو ما لا أعرف أنه تحقق إلا لكتاب يعدّون على أصابع اليد الواحدة ، كما هو الحال مثلا مع « إرك فروم » و« فلهلم ريخ » . ومع ذلك يبدو أن خير ما كتب بهذا الصدد لم يتوافر لهؤلاء . ذلك أن إرك فروم اعتنق منذ هجرته إلى الولايات المتحدة ما يطلق عليه مذهب الفرويدية الجديدة ، وهو مذهب ضحل – يقوم الدليل على ضحالته فى أشهر كتبه : المجتمع السليم – مرفوض من المحللين النفسيين والماركسيين جميعاً . وقد نقده نقداً صارماً الفيلسوف الماركسى : هربارت ماركيوز فى كتابه : « إروس والحضارة » . أما فلهلم ريخ فإن تطوره المؤسف فى السنوات الأخيرة من حياته أدى إلى الانصراف عنه من كلا الفريقين . ولا أعرف من المؤلفات الجادة الخليقة بالاحترام والإعجاب إلا كتاب أستاذى الراحل الطبيب وعالم النفس الفرنسى « هنرى ڤالون » : « من الفعل إلى الفكر » . حقاً إن ڤالون لم يكن محللا نفسياً ، ولكنه كان منفتحاً على قضايا التحليل النفسى ، متقبلا لها . ومن الحق أيضاً أنه لم يعتنق المادية الجدلية إلا فى أواخر الثلاثينات ، وقد كان تتلمذى عليه فى أوائلها . غير أن كتابه المذكور يمتاز بأنه تطبيق بارع يستند إلى الخبرة التجريبية – للمنهج المادى الجدلى فى ميدان تخصصه ، أعنى علم نفس الطفل . وهو فى ذلك يشبه ما انتهى إليه عالم الطبيعة الفرنسى المشهور : بول لانجفان .

والآن ما الذى يدعو إلى إقامة مناظرة بين التحليل النفسى والمادية الجدلية . . تنبغى الإشارة أولا إلى أن قضايا الميدانين تؤثران منذ نحو ربع قرن تأثيراً

عميقاً على الفكر المعاصر وبخاصة فى العلوم الإنسانية . وفضلا عن ذلك إنهما يعالجان الموضوع نفسه أعنى أحوال الإنسان وقدره المصنوع بصنعه، ومحاولة الإمساك بزمامها وتوجيهها توجيهاً يرفع عن الإنسان شقاءه .

غير أن أهم ما يلفت النظر هو التشابه العميق بين ما قدمه لنا كل من ماركس وفرويد من حيث الكشف عما يمكن أن نطلق عليه « الشعور الزيف » وبعبارة أخرى يشترك ماركس وفرويد فى فض المبهمة . الأول فى ميدان البنيان الاقتصادى التاريخى فى المجتمع الإنسانى ، والثانى فى ميدان النفس الإنسانية بما فى ذلك تاريخ حضارتها . وبعبارة بسيطة قد عالج كل منهما ما هو « إنسانى » فالتقيا بالزيف ، وكشفا عنه على نحو عبقرى ، بالرغم من اختلاف المنظور لدى كل منهما .

لقد درج الفلاسفة منذ عهد ديكارت على الشك فى الأشياء . ولكن الشعور أو الوعى كان السند والفيصل الذى يحكم به ويستند إليه بوصفه مصدراً لليقين . ولكننا منذ كشوف ماركس وفرويد أصبحنا نرتاب فى الوعى نفسه ، وأدركنا ما يتصف به من المبهمة والمجهلة .

وقد يتساءل القارئ ما العلاقة بين التحليل النفسى وهو فن طبى يهدف إلى علاج الأمراض النفسية بناء على الكشوف التى ألقت الضوء على مجاهل النفس وما يعتلج فى أعماقها من صراع لا شعورى ، وبين الماركسية وهى مذهب اجتماعى سياسى يهدف إلى تغيير جذرى فى علاقات الإنتاج بهدف تحقيق الإنصاف بين أفراد المجتمع . سبق القول بأن التحليل النفسى والماركسية يعالجان موضوعاً واحداً : الإنسان فى حضارته وما يعانيه من ضيق وضيم واغتراب من جراء أوضاعها . ولا يظنن القارئ أن فرويد لم يتعرض لهذا الموضوع إلا فى مؤلفاته المتأخرة : « كدر فى الحضارة » و« مستقبل خدعة » وما إليهما ، وكأنه أدرك فى آخر الأمر أن ما كشف عنه من أسباب التوعك لدى الفرد هى هى ما ينغص على الناس عيشهم فى إطار حضاراتهم ما سبق منها وما هو قائم . بل الصحيح أن فرويد تنبه منذ البداية إلى العلاقة الوثيقة بين ما يصدق على الفرد متوعكاً ، وما يصدق على مقومات الحضارة فى مختلف أشكالها . ونجد إرهاصات ذلك كله فى كتابه « تفسير الأحلام » الذى صدر سنة ١٩٠٠ ، والذى جاء فى أعقابه « الإبداع الأدبى وأحلام اليقظة »

(١٩٠٨) ، والطوطم والتابو (١٩١٣) و « خواطر عن الحرب وعن الموت » (١٩١٥) وغيرها . ويعلم القارئ أن حصيلة ما حاوله ماركس هو فضح العلاقة بين البناء الاقتصادى التحتانى (قوى الإنتاج) وبين البناء العلوى النفسى وما أسفر عنه ذلك من اغتراب الإنسان . ومن ثم فإن الفحص العلمى فى حقلى التحليل النفسى والماركسية ، جعل الفهم العلمى ضرباً من الهرمينوطيقا (إذا صح استخدام هذا المصطلح الأرسطى) على حد قول الفيلسوف پول ريكور ، أى أن البحث عن الحقيقة ، عن المعنى العميق ، لم يعد يتجه إلى فحص المعنى الشعورى ، وإنما إلى فض ألغازه فى تعبيراته المتخفية .

إن ما يرمى إليه ماركس هو تحرير « البراكسيس » من خلال فهم كامل لفعل الضرورة . ولكن هذا التحرر لا ينفصل عن إدراك فطنة واعية بالحقيقة تملك القدرة على الإطاحة بعمعيات ومبهمات « الشعور الزيف » . وإن ما يهدف إليه فرويد فى حقل العلاج ، هو أن يمكن الفرد من امتلاك معنى ظل عنه غريباً فيوسع بذلك رقعة وعيه ، فيلغى اغترابه ، ويطيب نفساً بما كسب .

وتأييداً لهذه المقارنة التى عقدناها بين منظور الماركسية ومنظور التحليل النفسى ، نقدم ما كتبه إنجلز عن طبيعة الأيديولوجيا . يقول إنجلز : « إن الأيديولوجيا عملية من نتاج مفكر يتوهم أنه مدرك واع لما أنتج ، ولكنه فى واقع الأمر لا يملك إلا وعياً (شعوراً) زيفاً . ذلك أن الدوافع الحقيقية التى حفزته تظل مجهولة منه ، وإلا لما كان الأمر أمر أيديولوجيا . ومن ثم فهو يصطنع دوافع ظاهرية أو زائفة » . ولا يفوت القارئ أن لفظ مجهولة يمكن أن نستبدل به لا شعورية ، وأن لفظ ظاهرية يمكن أن نستبدل به تبريرية . فإذا فعلنا كنا نسجل قضية من قضايا التحليل النفسى المشهورة .

فإذا كان الأمر كذلك فلم كانت هذه القطيعة بين الماركسيين والمحللين النفسيين ، التى ظلت حقبة طويلة ، فكان أولئك يتهمون هؤلاء بالمثالية والبورجوازية وهى أخطر الاتهامات فى نظر الماركسيين .

ويقتضينى السياق الآن أن أذكر بعض ما قاله فرويد عن الماركسية بوصفها ضرباً من الـ Weltanschauung (نظرة إلى الكون) . يبدأ فرويد حديثه عن الماركسية

بقوله : « إننى آسف أشد الأسف لقصور معرفتى بها .... إن بحوث كارل ماركس فى البناء الاقتصادى للمجتمع وفى تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادى فى كل مجالات الحياة الإنسانية قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يجحد .... من الجلى أن قوة المذهب الماركسى لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلة التى يبنيها على هذه النظرة ، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان . وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد . غير أنه لا يمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هى الدوافع الوحيدة التى تحتم سلوك الناس فى المجتمع . فما لا مراء فيه أن مختلف الأفراد والشعوب والسلالات ، لا يكون سلوكها واحداً فى نفس الظروف الاقتصادية . وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أن العامل الاقتصادى لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد . بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية عندما يكون الأمر أمر استجابات كائنات بشرية حية ، لأن هذه العوامل لا تساهم فى إقامة الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تحدد كذلك أفعال الإنسان ، والإنسان لا يستطيع أن يعمل ، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف ، إلا بدافع من نزعاته الغريزية كغريزة المحافظة على النفس ، وحب العدوان ، والحاجة إلى الحب ، هذا إلى ما لديه من دافع إلى التماس اللذة وتفادي الألم . ولقد أكدنا .. الدور الذى يقوم به الأنا الأعلى ، تلك السلطة التى تمثل تقاليد الماضى ومثله ، والتى تقاوم الضغط الذى تفرضه الظروف الاقتصادية الجديدة ، لمدة من الزمن . وأخيراً يجب ألا ننسى أن جمهرة الإنسانية تغشاها — وهى خاضعة للظروف الاقتصادية — عملية تطور ثقافى يسميها البعض بالحضارة ، وهى عملية تتأثر من دون شك بجميع العوامل الأخرى ، لكنها مستقلة على التحقيق عنها من حيث نشأتها . فهى شبيهة بعملية عضوية ، وتقدر بذاتها على التأثير فى العوامل الأخرى . فهى تبعد الغرائز عن أهدافها الأصلية ، وتحمل الناس على أن يثوروا على ما كانوا يبيحونه ويحتملونه من قبل . ويبدو فوق هذا أن التوطد المطرد للروح العلمية إحدى نتائجها الأساسية . فمن أراد أن يجعل من المذهب الماركسى علماً حقيقياً من العلوم الاجتماعية

تعين عليه أن يجلو الدور الذى يقوم به كل واحد من هذه العوامل المختلفة تفصيلا ، أى يتعين عليه أن يدرس الاستعداد الجبلّى العام للإنسان ، وتفاوته تبعاً للسلالة ، وتحوره بفضل الثقافة ، وكيف يتأثر بالظروف الاجتماعية المتغيرة وأوجه النشاط المهنى وطرق كسب الرزق ، وكيف تتضافر هذه العوامل المختلفة بعضها مع بعض أو يتنافر بعضها مع بعض » .

يبين من هذه الفقرات أن فرويد يقدر بحوث ماركس فى البناء الاقتصادى للمجتمع ويعدها اكتشافات لها خطرها فى إلقاء الضوء على « طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد » ، وأن الأهمية القصوى لاكتشافات ماركس ترجع إلى « إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان» ، ولكنه يأخذ على ماركس إغفاله التام لسيكولوجية الإنسان بما هو إنسان ، تحفزه دوافع متناقضة ، تتصارع فى معظم الوقت فى غفلة عن شعوره ، تحت ضغط مبدأ الواقع فى نضاله مع مبدأ اللذة . ذلك أن كشوف التحليل النفسى تقيم الدليل الحاسم على أن الإنسان يتصف بثنائية الوجدان ambivalence يحب ويكره معاً ، بل يريد الحياة ويريد الموت ، فضلا عن أنه يتصف بثنائية المعنى ambiguity يرى ويميل إلى الشئ ونقيضه ، أى الموجب والسالب ، حتى اتسم اللوغوس فى بعض كيانه بالأضداد ، تعبر الكلمة عن الشئ أو نقيضه . بل إن السلب negativity (وهو بلغة فرويد غريزة الموت وبلغة ماركس نقيض الأطروحة) يبدو لنا اليوم مكوناً أساسيًّا فى أحوال الإنسان ، يلعب دوراً هائلاً فى الوجود والعدم جميعاً منذ أن نبه إلى ذلك هيجل فى تصدير كتابه « فنومنولوجيا العقل» مسجلا « القدرة الهائلة للسلب ، طاقة الفكر للأنا الخالص ... إن العقل يظفر بحقيقته بشرط واحد هو العثور على نفسه فى التمزق المطلق .. وما العقل إلا هذه القدرة تقوى على مواجهة السلب وجهاً لوجه ، وكذلك تقوى على أن تسكن بجواره » .

حقًّا إن ماركس يخترق الصعاب فى محاولة يوتوبية ، من خلال جماع الأطروحة فى إطار كشوفه فى حقل الاقتصاد الاجتماعى . ومن الطريف أن نذكر أن فرويد كان ماديًّا جدليًّا بمعنى خاص عندما سجل فى حقل كشوفه الصراع بين الرغبة

والدفاع ، (وهما طاقات بيولوجية أى مادية) والتسوية الموفقة بينهما (جماع الأطروحة) فتكون الصحة ، أو التسوية غير الموفقة فيكون المرض . ومن الحق أن فرويد كان أقرب إلى التشاؤم فى نظرته إلى الكون Weltanschanung بناء على ما أسفرت عنه لا بحوثه الإكلينيكية فحسب بل فحصه لمقومات الحضارة وأحوال الإنسان فيها من ألوان المعاناة والمشقة والشقاء ، كنتيجة حتمية لدوافع التدمير (غريزة الموت) : تدمير الذات وتدمير الآخرين .

ومن الإنصاف لماركس أن نقرر أن ما يأخذه فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس : « إننى لست ماركسياً » ، وهو يعنى بذلك من غير شك أن باب الاجتهاد لم يقفل ولا ينبغى له أن يقفل . ومن الإنصاف للماركسيين أن نذكر أن بعض فلاسفتهم المعاصرين فطنوا لذلك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز وبخاصة فى كتابه « إروس والحضارة » ، وفيه نراه ينطلق من قضايا التحليل النفسى الأساسية ثم يحاول تطعيماً مستمداً من القضايا الماركسية وبخاصة فى مفهومى الكبت ومبدأ الواقع ، بحيث يتضخم الكبت ويتحول إلى ما أطلق عليه « الكبت الزائد » over-repression كما أدخل مفهوم مبدأ العائد فى إطار مبدأ الواقع منتهياً إلى حل يبدو مشرقاً . ويعد هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القارئ محاولة أخرى فى طريق التكامل بين التحليل النفسى والماركسية .

مقدمة المؤلف

كتبت هذا الكتاب لحث الماركسيين على دراسة التحليل النفسى ، ولدفع المحللين النفسانيين لمعرفة الماركسية ، معتقداً من ناحية أخرى أن الجمهور الكبير من حقه أن يعرف هذين النظامين فى مجموعهما .

وكتابى هذا محاولة لإيضاح العلاقات بين الحياة الذاتية للإنسان ، كما وصفها فرويد ، وبين العالم الموضوعى للتركيبات الاقتصادية والاجتماعية التى قامت الماركسية بدراسة قوانين تطورها الأساسية . فالرسالة الأساسية لهذا الكتاب هى أن النظرت الفرويدية والماركسية تكون محاولات مختلفة للوصول إلى معرفة الطبيعة الإنسانية . وهذه المحاولات ليست متناقضة بل متكاملة وتثرى كل منها الأخرى .

ويمكن أن نعبر عن وحدة هذه النظريات بالطريقة الآتية : كل من الفرويدية والماركسية ترى الإنسان خاضعاً لقوى لا معقولة تعرقل تطور وجوده وتعوقه . فبالنسبة للماركسيين تنتمى هذه القوى المعرقلة إلى العالم الاقتصادى والاجتماعى ، عالم لم يوفق إلى إنماء نفسه بنفس قدر نمو الإمكانيات التى أتاحها له التقدم التكنيكى والعلمى . أما بالنسبة لتلاميذ فرويد فإن اللامعقولية لدى الناس Irrationalité des hommes تجد أصلها فى استمرار طرق التفكير والتصرف التى تتسم بها الطفولة وبقاء هذه الطرق حتى بعد البلوغ . فالصفات اللامعقولة التى يتسم بها العالم الاجتماعى الخارجى ليست إلا صورة للاعقلانية الحياة الداخلية النفسية ، وهاتان الحالتان ، إنسان لا معقول فى عالم لا معقول مرتبطتان بطريقة لا يمكن فصلها .

فأما بالنسبة للماركسيين فإن أهمية آراء فرويد قد تضاعفت بعد أن تكشفت وحشية النظام الستالينى . إن حركة مدعمة بالأفكار الفرويدية تكون أكثر يقظة أمام أخطار « الستالينية » ، ما كانت تجد نفسها لا تملك الدفاع عن نفسها . وقد أكدت فى كتابى السابق « فرويد وماركس » (1) أن هناك خطورة

(1) Reuben Osborn : Marx et et Freud, Gollancz, 1937.

من العمى السياسى الذى سمح بظهور شخص مثل ستالين . واليوم أعود إلى مهمتى وهى إقناع الماركسيين بضرورة إدخال نظرية التحليل النفسى فى مذهبهم .

وأما بالنسبة لغير الماركسيين وكذلك بالنسبة لأعداء الماركسية ، فأقول لهم الآتى : إن الماركسية مذهب ملايين من الأشخاص ، مذهب يلهم سياسة حكومات كثير من الدول . فالجهل به أو الإلمام السيئ به يمكن أن يسفر عنه هلاك الإنسانية . إن التهديد بتدمير نووى يرزح علينا جميعاً وأكبر الظن أن هذا التدمير ربما يمهد له سوء التفاهم أو الشكوك المبنية على الجهل لا على النيات الشريرة للحكومات. حقاً إن القول بأن تبديد هذا الجهل كاف لإبعاد هذا التهديد يعد ضرباً من المغالاة فى التفاؤل . ومع ذلك فإن التزود بمعلومات أفضل يعد خطوة نحو عالم متحرر من التهديد بتدمير نووى ويصبح فى الإمكان أن ينشأ فيه تعايش سلمى ، بشرط أن يعرف هذا العالم كيف يحتفظ باليقظة بصفة مستمرة .

إن نظريات فرويد وماركس لاتزال تسيطر على عصرنا ، وهى تشحذ البحث والفكر فى مجالات عديدة وبرغم أن أسسها كانت موضع فيض من الانتقادات والهجمات فإنها ما زالت واقعية أكثر من أى وقت مضى لأنها تحوى حقائق تهمنا .

وقد حاولت فى هذا المؤلف أن أصف هذه النظريات بطريقة أمينة وموضوعية ، وقد بدا لى أنه من الضرورى أن أسرد أقوال فرويد وماركس وأن أتركهما ، بقدر الإمكان يتكلمان بنفسيهما .

وفى اعتقادى أنه بغير معرفة ما قاله وما كتبه هذان الرجلان العظيمان لا يمكننا فهم هذا العالم الحديث الذى هو عالمنا .

الجزء الأول

عرض نظريات فرويد

١ ـ تركيب العقل

ترتكز نظرية التحليل النفسى على مبدأ أن التفكير والنشاط مشتقان من ميكانيكية بعيدة عن تحكم الشعور وتعرف باصطلاح « اللاشعور» وعند فرويد يعبر « اللاشعور » عن شئ أكثر من فكرة الميكانيكيات البعيدة عن الشعور ، مثل اختزان الأحاسيس التى تصبح لا شعورية بمرور الزمن ، وقد ركز فرويد بوجه خاص على الطبيعة الإيجابية والصفة الديناميكية لهذه الميكانيكيات اللاشعورية التى تؤثر فى أفكارنا وتحدد حركاتنا الشعورية .

تعرضت هذه الفكرة عن الميكانيكيات النفسية اللا شعورية لانتقادات كثيرة ، وبخاصة فى الأوساط الفلسفية ، لأنها يمكن أن تبدو متناقضة فى ظاهرها . فحسب هذا النقد ، أى واقعة نفسية هى ، بحسب تعريفها ، واقعة شعورية ومن هنا يستحيل القول إن هناك واقعة نفسية لا شعورية ، وهذا يعنى أنه يمكن وجود وقائع نفسية لا تتمشى مع التعريف .

والواقع أن الخلاف هنا خلاف حول الكلمات وتتركز النقطة الأساسية فى معرفة هل يمكن اعتبار كلمتى : «شعور » و« نفس » مترادفتين . الشعور كلمة من الصعب إن لم يكن من المستحيل تعريفها . إذ عندما نحاول تعريفها نلجأ إلى مصطلحات مثل « إحساس » وهذه تحتاج بدورها إلى تعريف . ويبدو أنه يجب علينا أن نقبل فكرة أننا نعرف ما هو « الشعور » حتى إذا كان من الصعب شرح ماهيته . وتلتقى هذه الفكرة مع فكرة فرويد الذى كتب بهذا الصدد يقول : « لا حاجة بنا لمناقشة ما نريد أن نقوله عندما نتحدث عن « الشعور » إذ يتعلق الأمر بفكرة واضحة جلية » .

ويقول فرويد فى موضع آخر« نحن نطلق لفظ « لا شعور» على ميكانيكية نفسية نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بوجودها لأننا نستنتجها من مظاهراتها بدون أن نعرف عنها شيئاً . وبعبارة أخرى ، يبدو أنه فى مناسبات معينة نتكلم

ونسلك على نحو يبرهن على وجود ميكانيكيات (حيل) داخلية تتصف بكل سمات الحياة النفسية فيما عدا سمة الشعور .

ولنتأمل مثلا ظواهر « ما بعد التنويم المغناطيسى » التى تثبت بطريقة جلية وجود وقائع نفسية لا شعورية .

فخلال جلسة تنويم مغناطيسى يتلقى الشخص بواسطة الإيحاء أمراً بالقيام بعمل بعد أن يستيقظ . وعندما يأتى هذا العمل يبدو كما لو كان قد نسى ماجرى خلال الجلسة ، ولكنه يشعر مع ذلك أنه كان مرغماً على إطاعة الإيحاء . فيفتح مثلاً نافذة فى ساعة معينة . وإذا ما سألناه عن سبب ذلك يرد بأن الحجرة سيئة التهوية وهو رد ينم عن أنه لا يشعر أن سبب عمله هو نتيجة الإيحاء الذى تلقاه سلفاً . فالإيحاء حرك سلسلة من الأعمال النفسية انتهت بفتح النافذة . وهذه النتيجة تؤكد حسب رأى فرويد وجود ميكانيكيات نفسية لا شعورية .

وهناك أمثلة أخرى يمكن استخلاصها من الحياة اليومية عن أعمال نفسية يبدو أنها تتم خارج الشعور ، وهى تصوغ ، فى الشعور ، إجابات سريعة لمشاكل تستعصى على البحث الشعورى . فكثيراً ما ننام وفكرنا مشغول بمشكلة وبعد مرور فترة زمنية معينة يظهر الحل كما لو كان العقل جاداً فى التفكيرباستمرار فى المشكلة بدون أن يخطر الشعور بذلك .

فزلات اللسان والقلم وكثيرمن الأخطاء اليومية تشير أيضاً إلى تعد على الشعور وتؤكد النظرية القائلة بتولد أعمال نفسية لا شعورية .

ويضرب فرويد مثالا طريفاً على ذلك فى كتابه « علم النفس المرضى للحياة اليومية » (١) . « دعا شخص ثرى غير كريم بعض أصدقائه إلى سهرة راقصة . ومر كل شئ على ما يرام حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ، حيث حان وقت الراحة لتقديم وجبة العشاء المنتظرة . ولكن خاب أمل الضيوف عندما قدمت لهم شطائر صغيرة وعصير فواكه . وكان موعد الانتخابات يقترب وتطرق الحديث إلى المرشحين المختلفين . واحتدم النقاش وتحمس أحد المعجبين بمرشح الحزب التقدمى فقال موجهاً كلامه للمضيف : « يمكن أن يقال عن

---

(١) Freud : La psychopathologie de la vie quotédienne

« تبدى » الكثير ، ولكن هناك أمراً يقينياً وهو أنه يمكن الاعتماد عليه دائماً فى تقديم وجبة شريفة « "Square Meal" » . وكان يريد أن يقول برنامجاً سياسياً شريفاً « "Square deal" » . وأغرق الحاضرون فى الضحك فى حين تحرج الضيف والمضيف اللذان أدركا ما وراء هذه الزلة »

وتؤيد النظرية الحديثة فى مادة علم أمراض المجموعة العصبية ، فكرة الأعمال النفسية اللاشعورية . فإذا قبلنا فكرة أن جميع الأحداث النفسية نابعة من نشاط المخ . فإن اكتشاف أن قشرة المخ (اللحاء) (أى قشرة المخ المكونة من ملايين الخلايا العصبية) دائماً فى حالة نشاط يعطى أساساً فسيولوجياً لفكرة الأعمال النفسية اللاشعورية . هذا النشاط اللحائى لا ينتهى فى الواقع عند نقاط تعد بصفة مستمرة مقر الشعور ؛ ولا شك أن فرويد الذى طالما تمنى أن تؤكد اكتشافات علم أمراض المجموعة العصبية نظرياته كان يبدى اهتماماً كبيراً بالأبحاث المبنية على معطيات رسام المخ الكهربائى[١] .

كان فرويد يميز بين درجتين فى لا شعور الحياة النفسية . أولاً كان يميز الميكانيكيات النفسية التى برغم كونها لا شعورية يسهل تذكير الشعور بها . ولتعريف هذه الميكانيكيات استعمل اصطلاح ما قبل الشعور Préconsient . فأنا أستطيع مثلاً أن أقول إننى أشعر فى هذه اللحظة بضغط القلم على الورقة وببياض الورق ، وبالموسيقى التى تعزف على البيانو فى الحجرة المجاورة . وإذا ما طلب منى أخى رقم تليفون أتوقف وأتذكره دون جهد كبير . ويصبح هذا الرقم شعورياً ، وبنفس المعنى يمكن التحدث عن تحول المعرفة الذهنية اللا شعورية إلى معرفة ذهنية شعورية ، أى أن ما قبل الشعور أصبح شعورياً[٢] .

ولكن ليس هذا المعنى للاشعور هو الذى يكون الفكرة الأساسية فى نظرية فرويد . ففرويد يؤيد فكرة أن هناك أعمالاً نفسية لا يمكن أن يتذكرها الشعور إلا بصعوبة كبيرة . وقد اكتشف فرويد هذا اللاشعور عندما كان يحاول أن يحيى ذكريات الطفولة ، فوجد نظاماً مانعاً رادعاً يجهض كل المحاولات الهادفة

---

(١) Electro — encéphalogramme

(٢) Le préconscient est devenu conscient

إلى تحويل العناصر اللا شعورية إلى عناصر شعورية . وقد كتب فرويد فى هذا :
« إن نظرية التحليل النفسى تستند فى الواقع على الإحساس بمقاومة المريض عندما نحاول جعله شاعراً بما يكمن فى لا شعوره . ويشهد على صحة هذه المقاومة وحقيقتها كون معاونة المريض للطبيب تتوقف أو تبتعد كثيراً عن موضوع النقاش ، لذا فإن جزءاً كبيراً من ذكريات الطفولة التى نقول عنها « إنها دخلت فى عداد النسيان » بمعنى أنها ذبلت بمرور الزمن ، تكون فى تصور فرويد قد كبتت . وسنرى فيما بعد السبب الذى من أجله يتم هذا الكبت [1] . والمهم فى النظرية الفرويدية هو أن ذكريات الطفولة هذه ، مع كونها مكبوتة ، تستمر فى ممارسة تأثير هام على التفكير والنشاط اليومى . فالكبت حسبما يراه فرويد هو المرادف السيكولوجى للتركيب الفسيولوجى الذى مؤداه أن الجزء المصاب بمرض يعزل عن بقية الجسم بواسطة غلاف من الأنسجة يحميه .

شبه فرويد فى كتاباته الأولى قوى القمع أو الردع بالرقيب . وكان يقارن العقل ببناء مكون من ثلاثة طوابق . يعيش فى الطابق العلوى أعضاء جديرون بالاحترام من عائلة الشعور ، وفى الدور الأسفل تعيش عائلة ما قبل الشعور ، أناس هادئون مسموح لهم بزيارة جيرانهم القاطنين فى الدور الأعلى . صحيح أن هناك جندياً من « البوليس » يقف على السلالم المؤدية إلى الدور الأعلى ، ولكنه رجل طيب ، من النادر أن يمنع الزيارات . وعلى العكس يشكل سكان الطابق الأسفل « البدروم » مجموعة غير مهذبة ومشاغبة تسعى جاهدة إلى تخطى عسكرى المرور المتعب الذى يقف بينها وبين عائلة ما قبل الشعور . ويقتنص أحد أعضاء عائلة اللاشعور فرصة نوم عسكرى « البوليس » ويلج إلى الطابق الأعلى متخفياً فى صورة غير هجومية ومسالمة . ويصور لنا عساكر المرور بطريقة طريفة القوى الرادعة أو الزاجرة .

ولطالما وجه إلى فرويد اللوم لاستعماله كلمات كانت تبدو منطبقة على وحدات حقيقية داخل العقل مثيرة لصورة عالم غريب له سراديب تسكنه مخلوقات عجيبة شبيهة بالإنسان . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن فرويد أنشأ كتاباته

---

(١) انظر الفصل الثانى .

قبل أن تكون مصطلحات مثل « متغيرات » variables و « نواتج » résultantes جزءاً من لغة علم النفس ولكن فرويد حدد أن هدفه من ذلك كان تقديم تصوير رمزى لجوهر أنشطة العقل . وأعلن أن تصوراته تؤدى الوظيفة نفسها التى تؤديها : تصورات الموجة والإلكترون والطاقة فى علم الفيزياء والتى تهدف إلى تأصيل بعض أوجه التجربة والمعرفة الإنسانية التى قد تبدو مبعثرة فى نظرية معقولة . وقد دافع عن هذه الإيضاحات فى مقدمته لعلم النفس معترفاً بأنها قد تبدو أحياناً فظة .

وقد بدا لفرويد أن تقسيم النشاط النفسى إلى شعور ، وما قبل الشعور ، ولا شعور يعطى صورة استاتيكية جداً للعقل . لذا أدخل بعض تصورات تثير هذا النشاط بطريقة أكثر دقة عندما استعمل تصورات الأنا الأدنى ، والأنا ، والأنا الأعلى ، وهى ما أتعرض لشرحه فيما يلى .

ففكرة الأنا الأدنى أدخلت لتصوير الأوجه اللا شعورية من الحياة النفسية والتى تدخل فى صراع عنيف مع الأفكار التى يقبلها الفرد بسهولة والتى تأتيه من أسرته ومن تجربته فى الحياة الاجتماعية وقد استعار فرويد الاصطلاح المبتكر « ES » من نيتشة ، لأنه بدا له مناسباً تماماً ، باعتباره مشتقاً من الضمير غير الشخصى فى اللغة اللاتينية ، للتعبير عن تنافره مع الأفكار الشعورية . والأنا الأدنى « هو ذلك الشيء الذى يغمرنا عندما نجد أنفسنا مجبرين على التصرف ضد الذوق العام أو النظام القائم ونميل إلى وصف هذه الاندفاعات بجمل من قبيل « كنت مرغماً على » أو « لم أستطع أن أمنع نفسى » ، كما لو كانت أموراً غريبة عن شخصيتنا » .

ويغطى « الأنا الأدنى » الحاجات البدائية الغريزية للطبيعة الإنسانية التى لا تتأثر بالاعتبارات الأخلاقية أو الاجتماعية . وخصائص الأنا الأدنى التى شدد عليها فرويد بصفة خاصة هى : رغبته المطلقة فى الحصول على إشباع ، وفساده ، ومنافاته للأخلاق . وهو يحوى ما سمى بغريزة الحياة وغريزة الموت وكذلك الخصائص الوراثية المتعلقة بالعالم الحيوانى . ومن ناحية أخرى تلتقى بمجرى الأنا الأدنى التجارب المكبوتة لأنها شديدة الإيلام للشعور . ويسيطر على الأنا الأدنى « مبدأ اللذة »

أى أن الأنا الأدنى يطلب إشباعاً مباشراً ومطلقاً بدون أن يشغل نفسه بظروف الزمان أو المكان .

وإذا ما وجد جهاز إنسانى مستكين تماماً لرحمة ميول الأنا الأدنى فإنه سرعان ما يجد نفسه أمام مشكلة ، بل إنه ربما يهلك بسرعة لأن العالم الخارجى لا يعطى إشباعاً مباشراً وغير متوان لرغباته ويتعين عليه تأجيل هذا الإشباع إلى أن تحين الظروف الملائمة التى تسمح بالحصول على الإشباع فى أمان تام .

يسيطر الأنا الأدنى لدى الطفل الصغير لذا يصرخ الطفل لينبه لما يريده . ولكنه يتعلم بالتدريج أن هناك حدوداً لإشباع رغباته . فوالداه لا يستجيبان دائماً بسرعة لما يريد وأحياناً يعاقب إذا ما أبدى رغبة ما . وتؤثر على الطفل التجربة المؤلمة والتى مؤداها أن العالم لا يرضخ بسهولة لرغباته فتحدث تغيراً فى «الأنا الأدنى» الذى يغدو متنبهاً إلى حد ما للعالم الخارجى منبهاً له وشاعراً به . هذا التعديل الذى يطرأ على « الأنا الأدنى » والذى يكتسب بمقتضاه الأنا الأدنى حساسية بالعالم الخارجى أسماها فرويد « الأنا » . ولا نعرف كيف يتم تحول الأنا الأدنى إلى أنا وهو مطلب أساسى بالنسبة للنظرية الفرويدية ولكننا يمكن أن نفترض أن صدمة الواقع الخارجى مؤثرة على أساس أنها عامل محدد ، تحرك عملية النضج وتؤدى إلى ظهور شعور ومعقولية فى الحياة النفسية .

إن مهمة الأنا ، حسب تصور فرويد ، هى تضييق طلبات الأنا الأدنى والسعى لإشباعها إشباعاً واقعياً . وبعبارة أخرى تضع فى وجه « مبدأ اللذة » المسيطر على الأنا الأدنى « مبدأ الواقع » وهذا المبدأ ينبع فى الأصل من الأنا الأدنى بهدف العثور على إشباع فى العالم الخارجى . ويقول فرويد « قصارى الكلام أنه يجب على « الأنا » أن ينفذ رغبات « الأنا الأدنى » ،ويكون قد أدى واجبه عندما ينجح فى العثور على الظروف التى تسمح لهذه الرغبات بأن تتحقق على أحسن وجه . ويمكننا مقارنة علاقات الأنا والأنا الأدنى بالعلاقات القائمة بين الفارس وحصانه . فالحصان يقدم الطاقة الناقلة ويحتفظ الفارس بامتياز تحديد الهدف وقيادة حركات الحيوان القدير . ولكن غالباً ماينشأ بين « الأنا » و« الأنا الأدنى » موقف أقل مثالية من موقف الفارس الذى يجب أن يقود ركوبته

نحو المكان الذى يريد أن يصل إليه »[١] .

نستطيع أن نلخص الخصائص الأساسية للأنا كما يراها فرويد على النحو التالى : الأنا يتحرك باعتباره همزة الوصل بين الأنا الأدنى والواقع الخارجى . وبرغم أن علاقة الأنا بالأنا الأدنى تظل لا شعورية إلا أن علاقاته بالعالم الخارجى تكون شعورية . وتكون محكومة بمبدأ الواقع وهو مبدأ يستغل إمكانيات العالم الخارجى فى مواجهتها لمبدأ اللذة المسيطر على الأنا الأدنى . ومهمة الأنا التى هى طاعة مبدأ الواقع تتكون أيضاً من الاحتفاظ برقابة على إمكانيات الميكانيكيات النفسية التى يمكن أن تخرق قواعد الشعور . ويعبر الأنا عن نفسه بواسطة اللغة .

ومع ذلك فإن الأنا يتكون خلال السنوات الأولى للحياة حيث تكون الصلات العاطفية التى تربط الطفل بوالديه أقوى ما تكون، فأنا الطفل الصغير يكون من الضعف بحيث لا يقدر على مواجهة إلحاحات الأنا الأدنى . هذا الأنا يقوى بفضل سلطة الأبوين . فأوامر وتعليمات هذين الأبوين التى تأتى من الخارج بالنسبة للطفل يسجلها عقله باعتبارها ممنوعات قوية ، وتنشأ عملية توحد[٢] يكون

---

(١) Freud : Nouvelles conferences, p.33

(٢) التوحد Identification : انظر معجم المصطلحات فى مؤخرة كتاب ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية تأليف سيجموند فرويد ترجمة سامى محمود على ومراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ : توحد : من المفاهيم الأساسية التى يستعين بها التحليل النفسى على تفسير نشأة الشخصية وتكونها عن طريق تمثيل الطفل خصائص والديه أو من يقوم مقامهما .

والتوحد يختلف عن المحاكاة اختلافاً جوهرياً . فالمحاكاة عملية شعورية قصدية يضع بها الفرد نفسه مؤقتا موضع فرد آخر فيسلك على نحو ما يسلك دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهرى فى شخصيته . أما التوحد فهو — على الضد — عملية لاشعورية ذات تأثير عميق دائم ، تتشكل به أنية الشخص وفقا لأنية شخص آخر تربطه به رابطة انفعالية قوية . « فالأنا يسعى إلى التشبه بمن اتخذه نموذجاً يحتذيه » .

ويميز التحليل النفسى بين نوعين من التوحد ، التوحد الأولى الذى يحدث فى الأشهر والسنوات الأولى من مراحل نمو الطفل وبه يصبح الطفل ما هو بتمثله شخصية والديه أو بديليهما ، أو كما يقول بولبى : « توصف العملية التى ينمى بها الطفل الأنا والأنا الأعلى لديه فى نفس الآن الذى ينمى فيه قدرته على الاحتفاظ بالروابط الوجدانية فى غياب الغير ، بأنها عملية توحد أو استبطان أو إدماج من حيث إن وظائف الأنا والأنا الأعلى تدمج فى الشخصية وفقاً لنمط يخلقه الوالدان » . وتلقى هذه التوحدات المبكرة وما يعتريها من اضطراب يفضى إلى المرض اهتماماً خاصاً من جانب المحللين النفسيين فى الوقت الحاضر .

أما النوع الثانى من التوحد فهو التوحد الثانوى الذى يحدث فى أعقاب التوحد الأولى ويكون الدافع إليها عادة تجنب القلق المرتبط بموقف نفسى معين . فهو من ثمة حيلة دفاعية وعملية نفسية مسئولة عن =

من مؤداها أن طرق وجود وتصرف الوالدين تدون فى عقل الطفل . وميكانيكية هذه العملية شديدة التعقيد شبيهة بواقعة محاكاة شخص نحبه ونخشاه فى آن واحد ويتم على مستوى اللا شعور . وقد وصف فرويد هذه العملية مثل عملية إدماج[1]

= تكوين الأعراض المرضية لاسيما فى الهستيريا . ومن النوع الأخير ما تسميه «أنا فرويد» «بالتوحد المعتدى» وفيه يسيطر الطفل على مخاوفه من شخص أو موضوع يتوحده به ، فيتحول المهدِّد إلى شخص يهدِّد » .

كذلك يقوم التوحد بدور هام فى النمو العقلى لدى الطفل وفى اكتشافه ما يجهل من موضوعات العالم الخارجى . وقد درست « آليس بالنت » « التفكير التوحدى » لدى الأطفال وبينت كيف يستخدم الطفل خبرته المباشرة بجسمه نموذجاً يتصور على نمطه الموضوعات الجديدة التى لم يألفها بعد « مثال ذلك أن الطفل الصغير يعد أى كتلة غليظة من المادة برازا وأى سائل بولا ، لأن البراز والبول أشياء له بها ألفة سابقة » .

المترجمة

(١) إدماج Interojection . المرجع السابق ص ١٦٥ ، ١٦٦ : الإدماج عملية نفسية لا شعورية تشير إلى تمثل شخص موضوعاً ما تمثلا خيالياً بحيث يصبح جزءاً من الأنا أو الأنا الأعلى لديه . ويصف فيرنزى هذا المفهوم الذى يرجع إليه الفضل فى وضعه فيقول : « لكى نفهم الطابع الأساسى لمرضى العصابيين فهماً أفضل ، لابد من المقارنة بين سلوكهم وسلوك مرضى الجنون المبكر والبارانويا . فالمجنون يفصل اهتمامه عن العالم الخارجى فصلا تاماً ويصبح عاشقاً لذاته (يونج و إبراهام) ويود مريض البارانويا لو فعل بالمثل — كما بين فرويد ولكنه لا يستطيع ، فهو يسقط projecte على العالم الخارجى الاهتمام الذى أصبح عبئاً عليه . والعصاب على نقيض البارانويا من هذه الوجهة . فبينما يبعد مريض البارانويا عن الأنا لديه الحوافز وقد غدت مؤلمة ، يسمح العصابى نفسه بتمثله فى ذاته أكبر جزء ممكن من العالم الخارجى ، حاملا عنه موضوعاً لأخيلته اللاشعورية . ذلك ضرب من عمليات التخفيف يحاول بها تلطيف شدة النوازع والرغبات اللاشعورية المنطلقة بدون إشباع . ويمكن تسمية هذه العملية بالإدماج ، فى مقابل الإسقاط projection .

فالعصابى لا يفتأ يبحث عن موضوعات يتوحد بها وينقل إليها مشاعره ويدخلها فى نطاق اهتماماته ، أى يدمجها فى ذاته . ونرى مريض البارانويا يسعى سعياً مماثلا إلى موضوعات تصلح للإسقاط الذى يولد لديه شعوراً مؤلماً . وأخيراً يتجلى التضاد فى سمات الخلق : فالعصابى كبير القلب ، سريع التأثر والاستثارة يتأجج فى سهولة حباً للعالم أجمع أو يندفع إلى كراهية العالم قاطبة بينما يكون مريض البارانويا صغير النفس ، متريباً ، يعتقد أن الناس جميعاً يراقبونه ويضطهدونه أو يحبونه . فالعصابى يعانى من اتساع الأنا ومريض البارنوايا يشكو .

والإدماج من العمليات النفسية المميزة للمراحل الأولى من النمو النفسى ، ونموذجها الأصيل هو الابتلاع وما يتسم به من معان رمزية ويعد الإدماج والإسقاط حيلتين نفسيتين مسئولتين عن تفاضل الأنا عن العالم الخارجى وتحديد الخطوط التى تفصل بينهما . وقد توسعت «ميلانى كلاين » فى دراسة هذه المراحل المبكرة من النمو النفسى وأبرزت دور الإدماج والإسقاط فى العلاقات الأولى بالموضوعات .

ويلاحظ أن « أبراهام » يطلق على العملية ذاتها اسماً مختلفاً هو Incorporatiom .

المترجمة

أو استدخال سلطة وتأثير الوالدين (والأشخاص البالغين الآخرين الذين يلعبون دوراً هاماً فى حياة الطفل) .

ويكوّن الوالدان اللذان تم إدماجهما أو استدخالهما ما يسميه فرويد الأنا الأعلى . فالأنا الأعلى هو إذن تعديل يطرأ على الأنا فى لحظة معينة يكون فيها هذا الأنا من الضعف بحيث لا يقدر بمفرده على مواجهة كل من مشاكل وإلحاحات الأنا الأدنى من ناحية والواقع الخارجى من ناحية أخرى . ويعد هذا نوعاً من تصور الأبوين والأشخاص الآخرين داخل العقل ، تصويراً يجد نفسه مزوداً بصفات مبالغ فى أهميتها ، حتى إن الوالدين يظهران فى أعين الطفل متمتعين بصفات القدرة والقسوة ، أى الصفات اللصيقة بأى سلطة لا منازع لها .

وربما بدت نظرية فرويد لأول وهلة غريبة بالفكرة التى تعطيها عن نمو الحياة النفسية . وفكرة الأنا، الذى يتوحد فى جزء منه بالوالدين والبالغين والذى ينمو ابتداء من إحساس مبالغ فيه عن السلطة الأبوية كما تتكون فى عقل الطفل، يمكن أن تبدو كأسطورة عجيبة . ولكن ماذا تعنى هذه الفكرة فى صلبها ؟ إنها تعنى أن تأثير الأبوين والأشخاص البالغين يلعب دوراً هاماً فى حياة الطفل، بطريقة لم نصل بعد إلى فهمها بل إن هذه الفكرة تستمر مع الطفل بعد أن يكبر وذات فاعلية خلال حياته كبالغ . إن فكرة الأنا الأعلى ضرورية لفهم دوام استمرار المواقف الراجعة إلى فترة الطفولة خلال حياة البلوغ ، وهى مواقف قهرية تذهب إلى أبعد مما يمكن أن يعقله أو يتخيله الإنسان . ويكفى أن نذكر بعض الفظائع التى كانت بعض الشعوب مندفعة لارتكابها (مثل النازيين الذين اعتبروا أنفسهم ملزمين بتحطيم اليهود) . إن التاريخ السياسى والدينى ملىء بأمثلة من القسوة التى ارتكبت بواسطة أشخاص يعتقدون أنهم كانوا يؤدون واجبهم . وتطلب منا النظرية الفرودية أن نتقبل أن نفسية كثير من البالغين، إن لم يكن كلهم ، تكونت فى مجموعها ابتداء من تصرفات ونماذج ترجع إلى فترة طفولتهم حيث لم تكن ملكة النقد قد بدأت تمارس عملها لديهم وأن هذه التصرفات والنماذج استمرت فى ممارسة تأثيرها القهرى إبان حياة البلوغ .

ولنشرع الآن فى فحص لوحة الحياة النفسية كما تقدمها لنا النظرية الفرويدية .

إذا ما نحينا جانباً الاصطلاحات الخاصة التي تصاحبها فإننا نستطيع أن نؤكد أنها سلسلة من ردود الفعل بين النشاط النفسي والعالم الخارجي . إن ما يسميه فرويد « الأنا » هو صفات الشعور أو الإحساس، التي تزداد دقة، بالعالم الخارجي وإمكان التوفيق بين الحاجات الداخلية والإمكانيات الخارجية التي يمكنها إشباع هذه الحاجات . إن مثل هذا النمو للحياة النفسية يحدث في الواقع ، وهو أمر تؤكده الحياة اليومية ؛ وكون الأطفال يتعلمون كيف يتكيفون مع متطلبات الواقع الخارجي لهو عامل من عوامل النمو الإنساني الذي لاحاجة بنا إلى تأكيده . إن المساهمة الفرويدية تلقي ضوءاً على المراحل شديدة التعقيد التي يحدثها النمو . إذا كان التطور ابتداء من لامعقولية وخضوع الطفولة لايغدو أن يكون اكتساباً للصفات المعقولة التي تميز عقل البالغ المستقل ، لما كانت بنا حاجة للجوء إلى أبحاث التحليل النفسي .

وفي رأيي أن النظرية الفرويدية يمكن أن تكون عرضة للإنتقاد عندما تصف العلائق بين الأوجه الشعورية والأوجه اللاشعورية من الحياة النفسية . إذ أن النظرية التحليلية النفسية تعرضه أحياناً كما لو كان « الأنا » يرضخ تماماً للأهداف اللاشعورية ، ويعجز تماماً عن ممارسة رقابة مستقلة على هذه الأهداف . وبعبارة أخرى يبدو أحياناً أن النظرية الفرويدية ترى أن عقلنا خاضع تماماً لسيطرة الأهداف العاطفية الهوائية ؛ وهدفها الوحيد هو العثور على مخارج في العالم الخارجي لحاجاتنا العاطفية ، مخارج في منأى عن تسبيب صراعات مع الأفكار المقبولة في المجتمع بصفة عامة . وطبقاً لهذا التفسير لايمر نمو العقل والشعور بمرحلة يحدث خلالها تعديل في طبيعتهما . فالشعور ليس إلا امتداداً لجوهر اللاشعور دائب البحث عن التعبير عن الميول اللاشعورية عن طريق استعمال الإمكانيات المسموح بها .

حقاً إن الإنسان أقل معقولية بكثير مما يتصور كما أنه يميل إلى استخدام ملكاته الشعورية لتحقيق أهداف بعيدة عن أن توصف بكونها معقولة . ويكفي التذكير بالمناسبات العديدة التي استخدم فيها العلم للتحطيم والقتل للتحقق من أن العقل أسير اللامعقول . ولكن وجود علوم مثل علوم النفس والتحليل النفسي

يثبت أن عبودية العقل للامعقول ليست مطلقة ، إن العبد الذى لايعرف أنه عبد والذى يقبل مصيره كما لو كان شيئاً طبيعيًّا سيظل عبداً إلى الأبد . إن الشرط الأول للانتفاضة والثورة على أى شكل من أشكال العبودية هو الاعتراف بوجود العبودية . ويصدق هذا أيضاً على خضوع عقلنا لأهداف لامعقولة أو خضوع الأنا للأنا الأدنى . عندما يفهم الإنسان، وهو ما بدأ يفعله، إنه يستخدم عقله لتحقيق أهداف لا معقولة، يكون قد خطا الخطوة الأولى لإنهاء هذا الخضوع.

وحرى بنا أن ننبه أن فرويد وإن كان يؤكد ضعف الأنا وخضوعه ، كان فى نفس الوقت غير متشائم فيما يتعلق بعلاقة الأنا بالأنا الأدنى . إذا تحامل فى أحد مؤلفاته على المحللين النفسيين الذى يصرون على تأكيد ضعف الأنا بل وأكد أن الأنا له سلطة رقابة على النفسية . إذ يقول « يحق التساؤل إذن كيف يمكن التوفيق بين الاعتراف بسلطة الأنا وبين وضع الأنا كما وصفناه فى كتاباتنا عن الأنا والأنا الأدنى حيث وصفنا الأنا بأنه خاضع لكل من الأنا الأدنى والأنا الأعلى وأنه ضعيف معرض للقلق فى مواجهة هذا وذاك وكشفنا النقاب عن الوضع الظاهرى للخضوع الذى يعانى الأنا من أجل الحفاظ عليه وقد كان لوجهة النظر هذه صدى واسع فى مؤلفات التحليل النفسى . إن العديد من الأصوات ترتفع لتأكيد ضعف الأنا حيال الأنا الأدنى، وضعف العقل فى مواجهة الشيطان الذى يكمن فينا وتجتهد لتجعل من هذه النظرية دعامة « نظرة التحليل النفسى للعالم » ومع ذلك ألا يمكن للفكرة التى حصلها المحلل النفسى عن الطريقة التى يتم بها الكبت أن تجعله يمتنع عن تبنى موقف متطرف ؟ »[1]

ولكن برغم التشاؤم الذى يخيم على أغلب كتابات فرويد ونظرية التحليل النفسى التى تعرض الإنسان بشكل استاتيكى ، فإن فرويد كان يعترف بقيمة تطور الأنا . ومن ناحية أخرى فإن كُتَّاباً مثل فروم وهورنى أعادوا النظر فى نظرية التحليل النفسى من وجهة نظر اجتماعية موفقين بينها وبين فكرة أن الأنا له صفات لايمكن ردها إلى الأنا الأدنى . وقد كتب فروم : « إن مشكلة علم النفس الأساسية هى صلة القرابة بين الفرد والعالم وليس إشباع غريزة

(١) S. Freud : Inhibition, symptôme et angoisse P.U.F.,P. 11

أو الحرمان منها »[١] ومن ناحية أخرى فإن محللا نفسانياً قوياً مثل الدكتور إرنست جونز كتب فى عام ١٩٥٩ يقول :

« إن أحد مبادئ التحليل النفسى هو أن الإنسان أولاً وقبل كل شيء مخلوق اجتماعى ؛ ولذا فإن محاولات تقسيم علم النفس إلى علم نفس اجتماعى وعلم نفس فردى هى محاولات خيالية . بمعنى أن عقل الإنسان يتكون فى مجموعه ابتداء من ردود فعل تنشأ بينه وبين أعضاء آخرين فى المجتمع ولايمكن تطور فرد مكون على نحو مختلف عن ذلك[٢] » .

إن « صلة القرابة » بين الإنسان والعالم تظهر فى وعيه الاجتماعى وهو وعى بعلاقاته ومسئولياته حيال الآخرين . هذا الوعى لايتدخل للأسف إلافى نطاق ضيق خلال الحياة إذا أخذنا فى الأعتبار التأثير الذى تمارسه علينا المواقف الخيالية من أى معنى "positionsabsurdes" التى تأتينا من الطفولة . ونتيجة لهذا ، وهو ماسأفصله فى الفصول التالية ، فإنه من الضرورى ، قبل البدء فى التفكير الاجتماعى والسياسى ، ألا نهمل واقعة أن الكثير من الأوجه الهامة لعلم النفس الإنسانى توضح أن الرجال والنساء لم ينجحوا فى التخلص من العادات وأنماط التفكير التى ترجع إلى فترة الطفولة .

---

(١) E. Fromm : Man for himself, Routledge, 1949.

(٢) Frnest Jones : Free Association, Hogarth Press, 1959, P. 153.

٢ ـ النظرية الفرويدية فى الجنس

يقوم الأنا بمهمة صعبة هى التوفيق بين الميول الغريزية وبين ضرورات الواقع . وبذا يكون تصرف الشعور نتاج التأثير المتبادل بين ميول الغريزة والواقع الخارجى الذى يؤدى إلى وضع حدود لهذه الميول وينكر حقها فى الإفصاح عن نفسها بحرية .

ليس هدفى أن أدرس هنا طبيعة هذا الواقع الخارجى الذى يكوّن الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، ولكن هدفى يتجه إلى عرض نظرية التحليل النفسى عن الغرائز فى خطوطها العريضة وربما بدا أن هذا العرض يوجه اهتماماً كبيراً لدور الغرائز ، ولكن هذا الاهتمام ضرورى حتى لا نقلل من أهميتها عندما يأتى دور دراسة الظروف التى تفصح فيها هذه الغرائز عن نفسها .

توجد تعريفات عديدة للغرائز . وبصفة عامة ينظر إليها باعتبارها ميولاً فطرية أساسية ذات علاقة بالمحافظة على الفرد وعلى النوع . ويقول فرويد : « نستطيع أن نميز فى الغريزة مصدراً وموضوعاً وهدفاً . فالمصدر هو حالة إشارة فى الجسم ، والهدف هو القضاء على هذه الإشارة . وعند ما تسير الغريزة من المصدر إلى الهدف تصبح نشيطة نفسياً . ونتصورها كما لو كانت كمية معينة من الطاقة تتجه نحو هدف معين »[1] .

حاول بعض علماء النفس رسم قائمة للغرائز ، ولكن بدا لفرويد أن هذه التصنيفات لا تطابق تماماً الطبيعة الحقيقية لحياة الغرائز . ولذا فقد كتب : « إنكم تعلمون بأى طريقة يفهم الجنس البشرى الغرائز . إذ يقبل عدداً من الغرائز بقدر الحاجات ــ غريزة السيطرة ، وغريزة المحاكاة واللعب ، والاجتماع وكثير غيرها . وتؤخذ هذه الغرائز ، باعتبارها مسلمات ، وتترك كل غريزة تقوم بعمل خاص ثم يتخلى عنها . وكان لدى الجميع دائماً إحساس بأن وراء هذا العديد من الغرائز الصغيرة المؤقتة يختبئ شىء هام وقوى لا نستطيع الاقتراب منه إلا بحذر »[2] .

(١) Freud : Nouvells conférences, p. 103

(٢) Freud : Nouvelles conférences, p. 101, 102.

وقد ذهب فرويد فى محاولته للبحث عما وراء تعدد التعبير عن الغريزة إلى التمييز بين مجموعتين مختلفتين من الغرائز : غريزة الحياة التى سماها ايروس Eros وغريزة التحطيم والموت .

سنعود إلى هذا التمييز فى ختام هذا الفصل، أما الآن فسندرس الميول الجنسية التى تحويها غريزة الحياة Eros والتى تقابل من الناحية البيولوجية ضرورات توالد النوع .

وقد قوبلت آراء فرويد عن الغريزة الجنسية بمعارضة شديدة عندما قدمها لأول مرة . وكان من الصعب أن يتوقع رد فعل مخالف . ففكرة فرويد عن الإحساسات المكبوتة فى اللاشعور وكونها نابعة من الطفولة والجنس لم تكن فى الواقع مطابقة لقواعد الشعور ولذا لم يكن الدفاع عنها إلا ليلقى حكماً عنيفاً بالإدانة .

ويعنى لفظ جنسى Sexuel عند فرويد « طاقة الغرائز المعروفة باسم « حب » "Amour" . من ناحية حب الذات ومن ناحية أخرى الحب الذى نكنه للوالدين وللأطفال وللإنسانية بوجه عام وكذلك التعلق بموضوعات عيانية أو بأفكار مجردة » .

فالمعنى الذى يعطيه لهذه الكلمة يتعدى بكثير الاستعمال الدارج لها والذى لا يستخدمها إلا لوصف علاقات البالغين والتى تجد ختامها فى العمل الجنسى ، أما التعبيرات الأخرى التى وصفها فرويد فيمكن أن تأتى من أى غريزة أخرى . فالدكتور ماجدوجل مثلاً ينسب حب الوالدين لأطفالهما إلى « غريزة الحنان » .

ويسيء فرويد وبصورة أشد إلى التقاليد المتفق عليها عندما ينسب للطفل حياة جنسية منذ أيامه الأولى . فبالنسبة له رغبة امتلاك الطفل لوالده من الجنس الآخر ، وشوقه للملاطفات ، والسعادة التى تغمره عندما تحتويه الأذرع ، وسروره عندما يمص إبهامه ، وغضبه عندما نشده منه ، واللذة التى يحسها عندما يدغدغ تعد كلها علامات واضحة على حياة جنسية مبكرة .

وتسيطر الغرائز المكونة للجنس فى الحياة الجنسية للطفل الصغير ولكل غريزة من هذه الغرائز وجود مستقل عن الأخرى تبعاً لطريقة إشباع كل منها وخلال النمو الجنسى يتم اندماجها واتساقها ، ولكن تسيطر أحياناً غريزة واحدة على الحياة

الجنسية للبالغ ، مجبرة إياه على البحث عن إشباع جنسى ذى طابع طفلى . وتبعاً للنظرية الفرويدية يكون الفساد هو الاحتفاظ خلال سن البلوغ بطريقة سلوك طفلية .

يركز فرويد فى وصفه للغرائز المكونة للجنسية بوجه خاص على الغرائز المتجمعة حول المناطق الفمية والشرجية من الجسم . ولذا فإن عملية المص والعض تعد إظهاراً لإشباع جنسى مبكر . وقد فصل كتاب آخرون فى مجال أبحاث التحليل النفسى ملامح الخلق الفمى الجنسى لدى الطفل وربطوها بالطريقة التى يتم بها إشباع الحاجات الجنسية عند الطفل فلدراسات أبراهام وجلوفر مثلا ، تجعلنا نعتقد أن الإشباع أو الحرمان الفمى فى فترة الطفولة يؤدى إلى تكوين خلق إشباع أو حرمان فيما يتعلق بالشكل الفمى . فالذين حصلوا على إشباع يكونون متفائلين كرماء اجتماعيين ، مرحبين بالأفكار الجديدة ؛ فى حين أن المحرومين يصبحون متشائمين ، متقوقعين ، قلقين ، وسلبيين . وقد قامت الدكتورة فريدا جولدمان أيسلر بدراسة الاستقطاب المزدوج[1] عند نمو الخاصية الشفوية

---

(١) ازدواج الاستقطاب : Bipolarité . والاستقطاب Polarité كما ورد شرحه فى كتاب ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية ، المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ : تتسم الحياة النفسية كما تتصورها نظرية الدوافع الغرزية لدى فرويد بوجود ضروب من الثنائية ، تحدد للفرد إمكانيات نموه ، وتجعل من مفهوم الصراع النفسى مفهوماً أساسياً نصف على هديه التطور النفسى فى صوره السوية والمرضية على حد سواء . والحياة النفسية تخضع لثلاثة أنواع من الثنائيات أو الاستقطاب ، هى التقابل القائم بين الذات (الأنا) والموضوع (العالم الخارجى) ، وبين اللذة والألم وبين الإيجابية والسلبية . يقول فرويد : « إن التقابل بين الأنا واللا أنا (الخارج) أى بين الذات والموضوع ، يفرض نفسه على الفرد منذ ساعة مبكرة حين يدرك هذا الأخير أنه يستطيع أن يقضى على التهيجات الصادرة من الخارج بتحريك عضلاته ، ولكنه يظل بلا حيلة إزاء التهيجات الصادرة عن الغريزة . ويتحكم هذا التقابل فى مجال النشاط العقلى على وجه التخصيص ويمد البحث بموقف أساسى لا يستطيع أى قدر من الجهد تعديله . أما الاستقطاب الخاص باللذة والألم فرهن بسلسلة من المشاعر لها أهميتها التى لا تقدر فيما يتعلق بتجديد أفعالنا (الإرادة) . ولا ينبغى الخلط بين المتضادين : النشاط والسلبية وبين المتضادين الأنا — الذات ، والموضوع — الخارج فالأنا يسلك من العالم الخارجى مسلكاً سلبياً عندما يتقبل منه التهيجات ومسلكاً إيجابياً عند ما يرد عليها . ودوافعه الغريزية تجبره على القيام بقدر من النشاط الخاص بالنسبة للعالم الخارجى ، بحيث يمكننا إبراز لب الموضوع فى قولنا إن الأنا — الذات سلبى بالنسبة للمنبهات الخارجية وإيجابى بفضل دوافعه الغرزيه الخاصة به . والمتضادان الموجب والسالب يمتزجان فيما بعد بالمتضادين المذكر والمؤنث اللذين لم يكن لهما من قبل دلالة سيكولوجية . والتصاق الإيجابية بالذكورة والسلبية بالأنوثة يبدو لنا واقعة بيولوجية ولكنها ليست البته قاطعة على الدوام ولا هى بالنهائية كما قد نجنح للاعتقاد .

مستعملة سلالم للتقييم واستجوابات ، وتابعت دراسة أجريت على ١١٥ بالغاً ويبدو أنها تحققت فيها من معامل استقطاب مزدوج يشير إلى ترابط واضح بين الخلق الفمى التحليلى النفسى كما وصفها كل من أبراهام ، وجلوفر ، وجونز وبرجلر [١] .

إن إثارة منطقة الجسم المحيطة بفتحة الشرج هى صورة الإشباع التى تبحث عنها مجموعة أخرى من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية ومن المسلم به أن الموقف الذى يتخذه الوالدان والطفل حيال وظائف الإخراج له تأثير أكيد على نمو أخلاقه فى المستقبل . فالطفل يتعلم أن والديه يعطيان لوظيفة الإخراج أهمية ويتولد لديه نتيجة لذلك شعور قوى بقدرته على إرضائهما أو تخييب ظنهما . والفضلات التى يخرجها الجسم هى أول شىء يستطيع الطفل أن يقدمه للعالم ، ويتفق المحللون النفسيون على أن ردود فعله المستقبلة فيما يتعلق بمشاكل النقود والعلاقات الإنسانية والعلم وكذا فى مواجهة الفن والحياة بصفة عامة يمكن أن تكون متأثرة بالموقف الذى يتخذه الطفل الصغير حيال ميكانيكيات إخراج الفضلات .

ربما بدا هذا التفسير مفتعلاً وبعيداً عن الواقع ، ولكن يجب ألا ننسى أن العام الثانى من حياة الطفل مخصص لتعليم النظافة وأنه فى سبيل ذلك يستحث الوالدان الطفل أو يمتدحانه أو يعاقبانه . ويتعلم الطفل كيف يعبر عن عدم ثقته بأمه عن طريق الإمساك عن التخلص من الفضلات . ويتخذ هذاالميل إلى الإمساك فيما بعد شكل عامل شخصى يدفع الشخص إلى تجميع المال أو إلى العناد أو إلى البخل ، على حين أن الإقدام على هذا العمل لإرضاء الوالدين فضلاً عن كونه يحدث لذة عضوية ، يتحول إلى كرم وسخاء أو إلى نشاط خلاق فى مجال الفنون أو الرسم أو الأدب أو الخطابة .

وقد حاول البعض التحقق من النظرية الفرويدية فيما يتعلق بملامح الخلق الشرجى تماماً كما حدث بالنسبة لملامح الخلق الفمى . والنتائج التى تم التوصل

---

(١) Freida Goldman Eisler, Breast feeding Personality in Natutre, Society and culture, éd. Kluckhonhn & Murray, New York, Khopf, 1959.

إليها ليست واضحة تماماً إلا أنها تتجه بشكل مؤكد إلى إثبات صحة النظرية الفرويدية[١].

إن تجميع الغرائز الأساسية الذى وصفناه منذ برهة ، يتم عندما يكبر الطفل ، تحت سيطرة الدوافع التناسلية . وعند البالغ المتوازن . تنشأ هذه الدوافع من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية ، وهذه لا تساعد إلا على القيام بالعمل الجنسى وللوصول إلى هذا المستوى ، تمر الدوافع الجنسية بمرحلة نمو سنشرع فى دراستها الآن .

إن النمو الجنسى يعبر مرحلتين أساسيتين تفصلهما فترة من الكمون لا يتم خلالها من الناحية العملية أى نمو . وحسبما يرى فرويد يكون المستوى الأول أكثر أهمية لأنه يرسم الملامح التى تحدد كيف سيتم إعادة تنشيط الدوافع الجنسية فى المستقبل هذه المرحلة تجد مكانها بين الطفولة المبكرة وسن خمس سنوات وتنقسم إلى ثلاثة مستويات . وخلال كل مستوى من هذه المستويات تلعب إحدى الغرائز المكونة دوراً بارزاً .

وتسمى المرحلة الأولى مرحلة الحب الذاتى auto — érotique وتبدأ منذ الأسابيع الأولى للطفولة ، حيث لا يتصور الطفل بعد أنه فرد . وتبحث كل من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية عن إشباع بطريقة مستقلة وتقتصر الحياة الجنسية للطفل على اللذات الحسية النابعة من تنبيه جسده . ونظراً لأهمية المص فى هذه السن تبدو الغريزة الأساسية الفمية أكثر وضوحاً وخلال العام الثانى من حياة الطفل ينمو إدراك الطفل . وتأخذ الغريزة الجنسية الكائن ذاته موضوعاً للحب .

---

(١) فى دراسة هالا بلوف Halla Belloff المعنونة : تكوين وأصل الخاصية الشرجية "The Structure and Origin of the anal Character"

نجد بعض النتائج الهامة التى تثبت ملاحظاتها . حيث أجاب ٧٥ طالباً على مجموعة أسئلة مكونة من ٢٨ نقطة متعلقة بملامح الخاصية الشرجية واستخلصت من ذلك نتيجة ذات معنى متصلة بفكرة فرويد عن نفس الموضوع . سنرى فيما بعد النطاق العلمى للنظرية الفرويدية وإمكانيات التحقق منها تجريبياً ، ولكننى أود هنا أن أشير أن النظرية الفرويدية مثلها مثل أى نظرية فى مجال العلوم الإنسانية لا تحظى إلا بقدر ضئيل من القدرة على التنبؤ وبالتالى فإن إمكانية إخضاعها للتجربة تضعف . إذ تتدخل كثير من العوامل المتغيرة التى يصعب إخضاعها لرقابة شديدة وهو ما يحتمه الاختبار التجريبى . فكما سنرى للنظرية الفرودية دوراً تأصيلياً يوضح كيف يمكن ربط الأوجه المختلفة للتجربة الإنسانية . ومع ذلك فإن البحث عند ما كان يتيسر إجراؤه لم ينقض مبادئ النظرية .

ولذا سمى فرويد هذه المرحلة بالمرحلة النرجسية Le Stade Marcissique مستعيراً الاسم من الشخصية الأسطورية التى وقعت فى غرام صورتها .

ويسهل الانتقال من مستوى الحب الذاتى auto—érotique إلى هذا المستوى إصرار الأم على تنشئة الطفل على النظافة فى حين أنها تغاضت حتى ذلك الحين عن عجزه عن التحكم فى عملية إخراج الفضلات . ويكتسب الطفل شعوراً بالقوة يبدو من تصرفه الأهوج المعربد الذى يتعاجب به ، فهو يميل إلى الجرى عارياً لإظهار جسده .

أما أشد المستويات حساسية فهو المستوى الثالث . إذ ينحرف اهتمام الطفل عن نفسه ليبحث عن موضوعات خارجية يوجه إليها طاقة الحب لديه . وبديهى أن يكون أول موضوع يثير انتباهه هو الأقرب إليه أى أسرته . ومن هنا تتولد لديه ، ما يسميه فرويد ، عقدة أوديب complexe of œdipe نسبة إلى مسرحية سوفوكل التى قتل فيها أوديب أباه دون أن يعرف وتزوج أمه ، تحقيقاً لنبوءة . وقد وصف فرويد هذه العقدة على النحو التالى : « أريد أن أتكلم عن هذا التنافس العاطفى الذى تلعب فيه العناصر الجنسية دوراً واضحاً . عندما يكون الابن طفلا صغيراً يبدأ فى إظهار حنان خاص حيال أمه التى يعدها ملكاً له ومن هذه الزاوية يرى أن أباه منافس ينازعه فيما يقدر أنه ملك له وحده . وكذلك الحال بالنسبة للفتاة الصغيرة التى ترى فى أمها شخصاً يعرقل علاقاتها العاطفية مع أبيها ويحتل مكاناً تقدر أنها تستطيع ملأه بنفسها . وتظهر أحلام العديد من الأشخاص أمنية إبعاد الوالد من نفس جنس الحالم » .

ويجد الطفل نفسه ملزماً بالحد من ميوله العدائية والودية لأنه يرى نفسه فى مركز أدنى فى علاقاته بوالديه . ويقدر فرويد أن هذا أمر ضرورى بالنسبة لتكيف الطفل مع أسرته وكذلك لتكيفه فى المستقبل مع مجتمعه. وسنرى فيما بعد أنه يجب العثور على مخارج لهذه الميول يرتضيها المجتمع . ولكى يصبح كبت هذه الميول واقعياً يجب السماح لها بالإفصاح عن نفسها بطريقة أخرى ، أى يجب العثور على مخارج للبالغ تتمكن بها الطاقة العاطفية لهذه الميول المتصارعة من التسرب .

ويؤيد فرويد فكرة أن كبت هذه الميول، الذى يصل إلى طمس عقدة أوديب

يعود إلى النشاط من جديد عن طريق إنماء عقدة الخصاء . Complexe de castration

ويقول فرويد : « كثيراً ما يحدث أن يعمد الوالدان أو المربية إلى تهديد الطفل، الذى لم يتعلم بعد أنه يجب أن يخفى عملية إخراج الفضلات من الجسم ، يعمدون إلى تهديده بقطع العضو الذى يقوم بهذه العملية أو اليد إذا ما لعبت بهذ العضو » ويلاحظ فرويد أن الأبوين لا ينكران فى أغلب الأحيان أنهما عمدا إلى هذا التهديد ولكن على أى حال من الممكن أن يتخيل الطفل عقاباً من هذا النوع مدركاً أن إشباع غريزة حب الذات ممنوعة . وبذا يمكن أن تتولد فى مخيلة الطفل عقدة الخصاء ، والخوف من سلبه القضيب .

وترتبط عقدة الخصاء عند الفتيات الصغيرات بالشعور بالحرمان من القضيب فالفتاة تكتشف بسرعة الفارق الجسمانى بينها وبين الولد ويولد لديها هذا حسبما يرى فرويد شعوراً بالنقص لا يعوضه إلا القيام بأعمال نسائية مثل الأمومة وتشييد بيت إلخ . ويوجد فارق بين الجنسين فى الدور الذى تلعبه عقدة الخصاء . فعلى حين تؤدى عقدة الخصاء عند الولد إلى اختفاء عقدة أوديب ، يحدث العكس تماماً لدى الفتاة ، إذ تسبق عقدة الخصاء عقدة أوديب . والسبب فى ذلك أن الفتاة . مثل الفتى ، ترتبط أولا بأمها لأنها ترعاها وتغذيها . ولكن عندما تكتشف الفارق بينها وبين الولد ، تجد نفسها أقل وتلقى باللائمة على أمها ، وتنمى بذلك شعوراً عدائياً نحوها وتجد ملجأ فى عقدة أوديب .

وبديهى أن تؤدى نسبة رغبات جنسية إلى الأطفال الصغار بل وذات طبيعة محرمة إلى إثارة شعور بالاحتقار والامتهان بمجرد ظهورها . وقد وجهت لهذه الفكرة انتقادات شديدة بواسطة علماء الأجناس ، مثل مالينوفسكى ، الذين لا يضيرهم نسبة حياة جنسية للأطفال الصغار وإنما لا تؤدى دراستهم للمدنيات المختلفة إلى تأكيد أوجه هامة من النظرية الفرويدية . إذ ينتقد مالينوفسكى فى كتابه « الجنس وقمعه فى المجتمعات البدائية »[1] فكرة عقدة أوديب باعتبارها عاملاً عالمياً يوجد فى كل المدنيات الإنسانية . صحيح أنه لم يتعمق فى العلاقات

---

(١) Malinowski : La sexualité et sa repression, Traduction française, Paris, P.B. Payot No. 95

العائلية لسكان جزر تروبريون Iles Trobriand التى كان يدرسها . وأن فرويد أدخل تعديلاً على تصوره لعقدة أوديب عندما فصل أفكاره عن الأنا والأنا الأعلى والأنا الأدنى . إذ يبدو أن عقدة أوديب « تنهار » مع نمو الأنا الأعلى على أساس أن الأنا الأعلى ميكانيكية إدماج تحل محل الأبوين والأشخاص الأخرى التى تلعب دوراً هاماً فى حياة الطفل .

واعتماداً على التجربة أعتقد أنه فى الإمكان أحياناً أن نستخلص لدى الطفل تفضيلاً للوالد من الجنس العكسى وهو ما يبدو تأكيداً غير مباشر لفكرة عقدة لدى أوديب. ولكننى أعتقد أنه من الصعب أن نقول إلى أى مدى ينمو هذا التفضيل الطفل تلقائياً أو اعتماداً على اهتمام الوالدين . إذا كان الوالد يهتم بابنته الصغيرة أكثر من اهتمامه بابنه الصغير وتهتم الأم بابنها الصغير أكثر من بنتها فلا عجب أن يستجيب الأطفال بطريقة تؤكد صحة بعض أوجه عقدة أوديب . وبعبارات أخرى إن التفضيل يمكن أن ينشأ فى البداية من الوالد نحو الطفل وليس من الطفل نحو الوالد[1] .

حتى الآن تتبعنا نمو الغريزة الجنسية منذ ظهورها إلى اللحظة التى تتعلق فيها « بموضوعات » يقدمها لها العالم الخارجى . وتنشأ بين سن الخامسة وسن الثانية عشرة فترة كمون تتسم بعدم ظهور الاهتمامات الجنسية وينمو « أنا » منسجم مع المحيط ، وهى فترة تقابل تطور الأنا الذى يختلف عن الأنا الأدنى ويؤثر باعتباره قوة للكبت والمراقبة . تواثم بين ميول الأنا الأدنى وضرورات الواقع الخارجى .

وخلال الفترة الثانية الهامة من وجهة النظر الجنسية بين ١٢ سنة و١٨ سنة تنشط ميول الطفولة مرة أخرى وتثب الحياة الجنسية من جديد متبعة الطرق التى

---

(١) بعد أن حررت هذه الفقرة قرأت سلسلة من المحاضرات ألقاها فرويد فى جامعة كلارك بالولايات المتحدة ، فى سنة ١٩٠٩ ، ولاحظت أنه أثار هذه النقطة . وهكذا فقد كتب يقول : « يأخذ الطفل أحد والديه موضوعاً لرغباته العاطفية . وهو عندما يتصرف على هذا النحو يتبع طريقاً أشارا عليه به ، فعاطفتهما فيها علامة نشاط جنسى واضح حتى ولو كان ممنوعاً من حيث أهدافه . وكقاعدة عامة يفضل الأب ابنته وتفضل الأم ابنها . ورد فعل الطفل عند ما يكون ولداً هو تمنى أخذ مكان الأب وعند ما يكون بنتاً هو تمنى الحلول محل الأم » S. Freud, Two Short Accounts of Pycho — Analysis, Pengiun, 1962 وفى رأيى أن هذا يجعل عقدة أوديب محتملة ومقبولة بالنسبة لثقافتنا الغربية حيث إن هذا التفضيل من الأب لابنته ومن الأم لابنها كثير الحدوث .

نهجها خلال تطورها الأول . لذا فمن الصعوبة بمكان أن تحل مشاكل هذه السن دون التعرف على الظروف التى أثرت فى السن السابقة .

ويمكن أن يقف النمو الطبيعى للغريزة الجنسية لأسباب متعددة . ويمكن من ناحية أخرى أن تنمو بعض الغرائز المكونة للغريزة الجنسية أسرع من غيرها آخذة بذلك أهمية أكبر ومانعة نمو عملية التكامل الطبيعية ؛ إذ أن الحرمان يمكن أن يولد قمعاً وربما تؤدى تجربة فاشلة فى الحب إلى العودة إلى التعلق بالأم أو تفسح المكان لمزاولة الحب الذاتى auto — érotique .

وقد كيف فرويد هذا التوقف فى النمو الجنسى عند نقطة معينة بأنه « تثبيت » fixation ويعتبر فرويد تثبيت الطفل حيال أحد أبويه ذا أهمية فى تحديد اختيار الطفل لمن يحب فى المستقبل . وهكذا عندما يكون التركيز على أحد الأبوين قوياً يميل البالغ إلى اختيار رفيق يشبه هذا الوالد الذى يتوحد به . وعندما يكون التركيز على أحد الوالدين أقوى يكون رد الفعل مقلوباً لأن توحد الشخص المحبوب بأحد الأبوين يمكن أن يكون من الأهمية بحيث يثير الخوف والتقزز اللذين يصاحبان العلاقة بالمحارم . وفى هذه الحالة يمكن أن يميل الشخص إلى اختيار رفيق مختلف تماماً عن الوالد الذى ركز عليه اهتمامه الجنسى . وهذا الخوف من المحارم يمكن أن يؤدى إلى البرود الجنسى إذا كان اختيار الشخص لرفيق مرتبطاً لا شعورياً بالوالد من الجنس الآخر . ويمكن أيضاً أن تؤدى إلى منع الشخص من إيجاد علاقات جنسية مع شخص من الجنس المضاد إذ يُوحِّد الأشخاص من الجنس الآخر مع الوالد من الجنس المضاد — ويبحث عندئذ عن ارتباطات مع أشخاص من نفس جنسه . وهذا الاستعداد يمكن أن يصل إلى إيجاد علاقات جنسية مع أشخاص من نفس الجنس « جنسية مثلية » أو تتسامى فى صورة صداقات وطيدة بأشخاص من نفس الجنس ».

والمثالان اللذان سنوردهما فيما يلى اختيرا من كتاب بريل « التحليل النفسى ، نظريته وتطبيقه العملى »[1] وهما يوضحان آثار التوحد بالوالد من نفس الجنس .

كانت سيدة مثقفة فى الرابعة والعشرين من عمرها تشكو من برود جنسى

(١) Brill : P ycho — Analysis, its Theory and Practical Application

نفسى ، ولكن مشاعرها كانت تتحرك عندما يظهر رجل يعرج . وكان الأصل فى هذه الحالة أنها توحدت مع أمها التى كانت لها مغامرة خارج الحياة الزوجية عندما كانت سن هذه السيدة فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمرها . وكان الشريك فى هذه المغامرة رجلاً مكسور الساق . وكان على الأم أن تقوم بعدة سفريات ، وحتى تبعد الألسنة عن أن تلوكها كانت تصطحب ابنتها الصغيرة معها . ومع أن الطفلة ، لم تحتفظ فى ذاكرتها بأى ذكرى شعورية عن هذه الحقبة فقد ربطت بطريقة لا شعورية بين الجنس والعرج .

وفى حالة أخرى كانت سيدة شابة متزوجة غير قادرة على منع نفسها من الاتصال بالرجال وبرغم أنها كانت تعيش مع زوجها فقد كان لها مغامرات عديدة خارج الزواج . كانت ابنة وحيدة لرجل أعمال كثير الترحال بسبب أعماله ولذا لم تتمكن من معرفته معرفة كافية . وبقدر ما سمحت به قريحتها تذكرت أنها شهدت عدة مغامرات غرامية لأمها . ولذا فقد تزوجت هى نفسها برجل يشبه أباها وله نفس المشاغل . أى أنها توحدت تماماً بأمها .

وتسمى هذه الصور من التعلق بواسطة توحد من هذا النوع كفلى Anaclitique لأنها دليل على الخضوع فى مواجهة أب حام أو أم مرضعة .

وتوجد مجموعة أخرى من التعلق يقال عنها إنها نرجسية Marcissique تستمد أصلها من التوحدات الآتية :

(١) التوحد بذات حالية .

(٢) التوحد بذات ماضية .

(٣) التوحد بجزء من ذات النفس .

(٤) التوحد بما نرغب فى أن نكون عليه .

فى الحالة الأولى تبحث عن التعلق بين أشخاص يشبهونك فى بعض الملامح الجسمانية أو النفسية . وهكذا فإن رجلاً طويلاً قد لا يعجب إلا بالنساء الطويلات

وفى الحالة الثانية تثبت الغريزة الجنسية عند مستوى مبكر ، عند اللحظة التى تكون فكرتنا فيها عن أنفسنا فكرة طيبة أو عند ما كانت الحياة تبدو سهلة . ومن هنا يقع الاختيار على أشخاص يذكرون بهذه اللحظات . وبذا يمكن تفسير

الزيجات بين أشخاص يفصلهم فارق كبير فى السن إذ يمكن إرجاع هذا الارتباط إلى وجود مثل هذا الاستعداد لدى أى من الطرفين .

وتوضح الحالة الثالثة حب الملكية لدى بعض الآباء حيال أطفالهم الذين يعدونهم جزءاً من ذاتهم . فيحاط الأطفال بعناية شديدة ويحرم الطرف الآخر من كل عاطفة .

أما فى الحالة الأخيرة فتتكون عقدة نقص تتكون من أنا أعلى قاس حيث يتجه الفرد إلى اختيار رفيق يمتلك كل الصفات التى يبدو له أنها تنقصه ويسبغ على موضوع الحب مثالية ويحيطه بحب يقترب من العبادة .

إن هذه اللمحة عن النظرية الفرويدية توضح مدى تعقد ميكانيكية التطور الجنسى . وربما كان رد الفعل الأول فى مواجهة أفكار فرويد مشوباً بالاستغراب والشك . ولكن يجب أن نتحرز من رفض هذه الأفكار من النظرة الأولى . والأبحاث الحالية فى مجال الجنس تجعلنا ندرك بمزيد من الوضوح تعقد الحياة الجنسية للإنسان وتنوع مظاهرها . ولن نلحق وصفاً غير أخلاقى أو غير مهذب بكل انحراف عن ما يعده المجتمع طبيعياً فى مجال الجنس .فقد بدأنا نتقبل أن هذه الانحرافات سواء تعلق الأمر بالميول الجنسية المثلية Homosexualité أو بالميول الاستعراضية Exhibitionisme لها أصل وسبب يتعين أن نتفهمها . من الجائز أن يكون فرويد قد أضفى على دور الجنس أهمية أكثر مما ينبغى وخاصة فيما يتعلق بطبيعة نموه ، فتفاصيل هذا النمو لم يتم بعد التوصل إلى معرفتها معرفة أكيدة ، ويعارضها كثير من علماء النفس المختصين الذين يقومون بأبحاث عن الطفل . ولكن من ناحية أخرى يستحيل دراسة نفسيات الأطفال دراسة ذات قيمة دون أن يؤخذ فى الاعتبار أن مثل هذا النمو يحدث فعلاً فى الواقع .

وهناك وجه آخر للنظرية الفرويدية فى الجنس أثار موجة من العداء الشديد وهو فكرة أن الحياة الثقافية للإنسان فى مختلف مظاهرها تستمد قوتها من الغريزة الجنسية . ففى رأى فرويد يمكن أن تجد الحياة الجنسية شكلاً للإشباع أو التعبير فى مجموعة من الأنشطة تبدو صلتها بالغريزة الجنسية غير واضحة . وتعتمد آراء فرويد على واقعتين مؤكدتين . الأولى أن الحاجات الجنسية يمكن إشباعها

خلافاً للغرائز الأخرى عن طريق التخيل . فى حين أننا لا نستطيع إطفاء جوعنا أو عطشنا عن طريق تصور الطعام والشراب فإننا يمكن فى حدود معينة الحصول على إشباع جنسى عن طريق الأحلام . لا يمكننا عن طريق البديل أو بمساعدة التخيل إطفاء جوعنا أو عطشنا ، أما حاجاتنا الجنسية غير المشبعة فيمكن فيها للبديل أو الحلم أن يحل محل الإشباع . وهذه حقيقة تعطى للنظرية الفرويدية أساساً قبلياً a priori .

أما النقطة الثانية فهى أن الحياة الجنسية كانت ولاتزال محل كبت أشد بكثير من أى كبت للغرائز الأخرى . فى مجتمعنا يكون الشبان الصغار قادرين جسمانياً على ممارسة حياة جنسية منذ سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ؛ ولكن يتعين عليهم تأجيل إشباع الحاجة الجنسية إشباعاً كاملاً خمس أو ست سنوات . فضلاً عن أن التعليم يرسب فكرة أن الجنس موضوع محرم لا يصح مناقشته إلا بحذر شديد يمهد لهذا التأخير . ومازالت فكرة الخطيئة وقلة الحياء مرتبطتين بالجنس إلى يومنا هذا ويكفى أن تذكر الكلمات المحرمة المتعلقة بها ، أما بقية الأنشطة الإنسانية فلاتحدث نفس الأثر اللهم ، إلا الأنشطة المتعلقة بالإخراج . ومن المحتمل أن يكون تحريم هذه الأخيرة مستمداً من صلة هذه الوظائف الوثيقة فسيولوجياً بالوظائف الجنسية فقلائل من بيننا أولئك الذين يستعملون الكلمة التى تصف هذه الوظائف دون فكرة خفية . وبالمناسبة يبدو مفيداً وهاماً أن يبحث كل منا فى ذاته عن تأكيد لهذه الميكانيكية الرادعة التى تبعث على مقاومة التفوه بكلمات معينة ، هذه المقاومة لا تبدو ذات معنى إلا فى ظل النظرية الفرويدية .

إذا ما أخذنا فى الاعتبار هاتين الحقيقتين معاً : أن الرغبات الجنسية يمكن إشباعها بواسطة التخيل أو بواسطة إحلال نشاط آخر محلها ، وأن الحاجات الجنسية محل كبت أشد من أى كبت تتعرض له الغرائز الأخرى ، نستطيع أن نفهم قوة فكرة فرويد : أن الحياة الثقافية تستمد قوتها من طاقة جنسية مكبوتة .[1] وإنى لا أرى أن هذا العنصر هو أساس الأنشطة الثقافية ولا أعتقد أن فرويد كان يراها كذلك . ولكن فكرة فرويد أن من خلال هذه الأنشطة يتم إشباع الميول الجنسية المكبوتة يوضح بصورة مؤكدة بعض أوجه الأدب والفن . وهذه نقطة

(١) سنناقش فيما بعد سبب أن الجنس خاضع لهذا النوع من الكبت .

سنناقشها فيما بعد أما الآن فأكتفى بالإشارة إلى أن القول بأن – الثقافة مثل حب الفن والموسيقى والأدب – ذات جذور جنسية لا يقلل فى شىء من أهمية الثقافة كما أنه يبدو لى أن معارضة هذه الفكرة سببها الاقتناع بأنها تمس الكرامة الإنسانية .

إن التحقق من النظرية الفرويدية يعنى فقط أن الحياة الجنسية للإنسان أكثر تعقيداً مما يظن عادة . وإننا نعرف الآن ، من أبحاث بيتسن وآخرين ، كيف تختلف الحياة الجنسية للإنسان عن الحياة الجنسية للحيوانات اختلافاً كبيراً سببه الدور الهام الذى تلعبه الفصوص المخية . فعلى حين أن الإثارة الجنسية لدى أغلب الحيوانات تعتمد فى جزء كبير منها على الإثارة الموضعية النابعة من الإفرازات الهرمونية للغدد الجنسية ، فإن هذه الإثارة لدى الإنسان قد لا تتم ومع ذلك تظهر إمكانيات الرغبة الجنسية . ففكرة أن طبيعة الحياة الجنسية للإنسان شديدة التعقيد وكون هذه الحياة يمكن لها أن تفصح عن نفسها بوسائل مختلفة ليست مرتبطة ارتباطاً مباشراً بفسيولوجية النشاط الجنسى يجب ألا تثير دهشتنا أو تحط من قدرنا .

وأود أن أختم هذا الفصل بتحليل نظرى للتميز بين الغرائز وهو تمييز ذو أهمية كبيرة فى عالمنا .

ميز فرويد فى البداية بين نوعين من الغرائز : الأول متعلق بالمحافظة على النوع يعنى الغريزة الجنسية كما شرحناها والثانى متعلق بالمحافظة على الفرد أى غريزة الأنا . وكانت هذه الغرائز تبدو كما لو كانت فى خدمة أهداف مستقلة عن بعضها ولا ترتبط بأصل مشترك وفى حالة الصراع كانت غريزة الأنا تنشط كما لو كانت عامل كبت والغريزة الجنسية كما لو كانت مكبوتة .

وقد حلت محلها هذه التفرقة تفرقة أخرى بين غريزة الحياة (Eros) وغريزة التدمير أو الموت . وقد اضطر فرويد إلى افتراض هذه التفرقة بين المجموعتين على إثر دراسته للظواهر المتعلقة بالسامية والمازوخية .

فى السادية يستمد الإشباع الجنسى من الآلام التى يعانيها الموضوع الجنسى على حين أنه فى المازوخية تكون ذات المريض هى التى تتألم للوصول إلى الإشباع الجنسى . هذان الميلان لا يمكن فهمهما إلا بافتراض انصهار غريزتين مختلفتين :

غريزة جنسية وغريزة تدمير ، ويرى فرويد أن كل الميول الغريزية تجد أصلها فى صهر هاتين الغريزتين بدرجات متفاوتة .

فالمازوخية ، إذا جردناها من عنصرها الجنسى ، تفترض وجود ميل إلى تحطيم الذات . إذ لما كانت الغرائز فى مجموعها تتحرك فى بدء الحياة داخل الشخصية حيث لا ينمو الاهتمام بالموضوعات الخارجية إلا فيما بعد فإن المازوخية ، أى الميل إلى تدمير الذات ، يجب أن تكون أقدم وأعرق من السادية . أما فى حالة السادية فإن غريزة التدمير لا توجه نحو الذات وإنما إلى الخارج وتتحول إلى نوع من العدوان . وإذا كان هذا العدوان لا يجد مخرجاً إلى العالم الخارجى أى إذا لم يكن بإمكانه محاصرة موضوعات معينة فإنه يستدير مرة أخرى إلى الداخل مهدداً الشخص بتدمير ذاتى ولتفادى هذا لابد من إيجاد موضوعات فى العالم الخارجى يتجه نحوها هذا الميل العدوانى . ويقول فرويد : « كل شئ يحدث كما لو كنا رغبة فى حماية أنفسنا من التحطيم الذاتى ، نجد لزاماً علينا تحطيم أشخاص غيرنا أو أشياء »[١]

وقد أعرب فرويد فى خطاباته لاينشتاين[٢] عن فكرة أن الحرب « ما هى إلا تلهية لغريزة التدمير بتوجيهها نحو العالم الخارجى » . ويعطى هذا الميل إلى الحرب « تبريراً بيولوجياً » « ونحن لا نستطيع إنكار أن الميل إلى الحرب أقرب لطبيعتنا من مقاومة الحرب ، التى تظل فى الواقع نظرية » . وقد تناول جلوفر وهو محلل نفسانى بارز دراسة العلاقات بين الحرب والجنوح نحو السلام ويذهب إلى أن « جزءاً كبيراً من الطاقة التى تستخدم فى تنظيم السلم تنبع من نفس المصدر الذى تنبع منه الحرب » . ولذا فإن إجراءات السلم تكون مخففة واحتمالية لأنها إذا ذهبت إلى نهايتها فإنها تبدو فى الحقيقة عدوانية .

وقد لقى هذا الرأى مقاومة حتى من بين محبذى النظرية الفرويدية ، فى مجموعها ومع ذلك يبدو أن العدوانية عنصر لصيق بنفسية الإنسان وإذا ما افتقد مخرجاً خارجياً ، يؤدى إلى التحطيم الذاتى . وسواء أكان هذا الرأى صحيحاً أم لا فإنه

(١) Freud : Nouvelles Conférences, p. 112

(٢) Pourquoi la guerre ?

يتفق بشكل مؤكد مع تاريخ التطور الإنسانى الذى يزخر بقصص الاضطهاد السياسى والدينى وبأنواع التعذيب والوحشية ، وهو يتفق أيضاً مع التهديد الذى يحوم حولنا بتدمير نووى ، ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن نظرية فرويد تقود حتماً إلى نظرة ملؤها التشاؤم فى قدرة الإنسان على التحكم فى ميوله العدوانية . فأنا الإنسان المتعقل . وهو نتاج التفاعل المتبادل بين مجهودات الأنا الأدنى لتحقيق الإشباع المطلق وضروارات العالم الخارجى يلوح من ورائها الأمل فى أن يتمكن الإنسان من السيطرة على قوى التدمير الكامنة فى نفسه وتوجيهها نحو أهداف أصلح من وجهة نظر المجتمع . وفرويد نفسه عارض أولئك المحللين النفسانيين ... ذوى النظرة اليائسة فى إمكانيات تحكم العقل وأعرب عن فكرة أنه أيّاً كان ضعف الأنا بالنسبة للقوى الشيطانية التى تسكن فى أعماقنا فإن إنماء المعارف فى السكولوجية الإنسانية وتفهمهما يعد أحسن وسيلة لتحرير الأنا من العبودية حيال الأنا الأدنى . إذ سيحل الأنا محل الأنا الأدنى . ولذا يمكننا أن نعتبر أن اللوحة القاتمة التى رسمها فرويد لقوى التدمير التى تسكن فينا والتى تدفع العالم إلى تدمير نفسه ، تعد تحذيراً مما يمكن أن يقع إذا لم نجعل للعقل المنزلة الأعلى .

٣ ـ الأحلام والتحليل

رفع فرويد الحلم إلى مستوى البحث العلمى . كان الحلم فيما سبق امتيازاً للعرافات والمنجمين والمشعوذين ؛ ولم تفكر العقول العلمية فى إعطاء ولو بعض الأهمية لما كان يبدو أرض صيد محجوزة لأولئك الذين كانوا يتصيدون ضحاياهم من بين الموسوسين والجهلة . وإذا ما توصلوا إلى إعطاء الحلم بعض الأهمية فإنهم لم يكونوا يتعدون القول بأنه نتاج عقل مجهد دون الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك .

وقد وصف فرويد هذا الموقف فى فقرة كان يقص فيها كيف أصبح الحلم جزءاً من تكنيك التحليل النفسى : « اكتشف ذات يوم أن الأعراض المرضية لبعض العصبيين لها معنى . وكان هذا نقطة البداية للعلاج بالتحليل النفسى . وخلال العلاج بالتحليل النفسى لوحظ أن المرضى يروون أحلاماً بدلاً من أعراض المرض . وافترض تبعاً لذلك أن هذه الأحلام لها بدورها معنى .. وهكذا أصبح الحلم موضوعاً لأبحاث التحليل النفسى . والحلم ظاهرة عادية لا تعلق عليها إلا أهمية ضئيلة ومجردة فى ظاهرها من كل قيمة عملية[1] ... » .

والهدف الرئيسى للحلم فى نظرية التحليل النفسى ، هو إبعاد كل ما يمكن أن يربك النوم . والمثال البسيط على ذلك هو الرجل الجائع الذى تزعجه تقلصات الجوع وتكون بذلك مثيرات داخلية . فيحلم هذا الشخص بأنه يحضر وليمة محتفظاً بنومه بفضل الإشباع الخيالى لجوعه . ومن الأمثلة المألوفة عن المثيرات الداخلية فى الأحلام مثال كيس الماء الساخن الذى ينساب ويولد حلماً موضوعه ماء البحر ، ومثال جرس المنبه الذى يتحول فى الحلم إلى رنين جرس رقيق . وعلى هذا النحو يتم الحفاظ على النوم بإدماج ما يزعجه فى الحلم .

ويلعب الحلم فى رأى فرويد دوراً آخر هو أنه يجسد تحقيق أمنية مستحيلة فى الواقع . ويقوم جزء هام من تكنيك التحليل على فك رموز الحلم كما رواه الحالم لاكتشاف الأمنية التى يحتويها الحلم .

(١) Freud : Introduction à la Psychanalyse, p. 69.

وخلال عملية فك الرموز هذه تتدخل تفرقة بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن فى الحلم . فالمضمون الكامن هو الباعث الحقيقى على الحلم أى مجموع الميكانيكيات النفسية التى تثيره . وحتى يمكن لهذه الميكانيكيات اللا شعورية أن تفصح عن نفسها فى الشعور فإنها تستخدم أفكاراً أخرى وصوراً أخرى ورموزاً أخرى تسمح لها بالهروب من قوى الكبت التى تفقد جزءاً من فاعليتها فى أثناء النوم « فالحلم هو التحقيق المتنكر لأمنية مكبوتة ، وهو التوفيق بين متطلبات ميل ممنوع والمقاومة التى تثيرها الرقابة النابعة من الأنا »(فرويد)

أما التصوير الفعلى للحلم فهو يكون ما يسمى بالمضمون الظاهر ؛ وهو يغطى المضمون الكامن الذى يشير إلى المعنى الحقيقى . ويكون عمل المحلل النفسانى هو اكتشاف الميكانيكيات اللاشعورية التى تعد أصل الحلم وذلك فيما وراء الحلم كما يرويه الحالم .

وقد شبه فرويد الرقابة على الحلم التى تحول المضمون الكامن إلى مضمون ظاهر بالرقابة على الصحف فى أثناء الحرب : « افتحوا أى جريدة سياسية وستجدون النص متقطعاً فى مواضع متفرقة تاركاً مناطق خالية على الورق .. وفى أحيان أخرى .. يتوقع الكاتب أن بعض الفقرات ستصطدم بفيتو الرقابة فيخفف من لهجتها مقدماً ، ويدخل عليها تعديلات طفيفة أو يكتفى بمسها أو الإشارة كناية إلى ما كان على وشك أن يكتبه . وتظهر الجريدة بعد ذلك وبها فراغات بيضاء ولكن بعض التوريات والأفكار الغامضة تكشف لك بسهولة المجهودات التى بذلها الكاتب ليهرب من الرقابة الرسمية بإخضاع نفسه لرقابته الذاتية مقدماً »[1]

وتُعرَف الميكانيكية النفسية التى عن طريقها تَعْبُر المادة المكبوتة إلى الشعور باسم « صياغة الحلم » « L'élaboration du rêve » ..بهذه الوسيلة تتحول الإثارات التى تقلق النوم إلى حلم وتولد صوراً تفصح بها المادة المكبوتة عن نفسها .

ولندرس الآن بعضاً من الوسائل التى تنشط فى أثناء صياغة الحلم لتحويل المضمون الكامن إلى مضمون ظاهر .

---

(١) Freud : Introduction a la psychonoalyse, p 124

يقول فرويد إنه يعنى « بالتكثيف » أن مضمون الحلم الظاهر أصغر من مضمون الحلم الكامن إذ لا يقدم المضمون الظاهر إلا نوعاً من الترجمة المختصرة للمضمون الكامن [١] .

« والتكثيف » ميكانيكية يتداخل بواسطتها عدد من عناصر المضمون الكامن المتشابهة لتقديم صورة واحدة أو فكرة واحدة فى المضمون الظاهر . فى الحلم يمكن أن تولد شخصية واحدة من إذابة ملامح عدة أشخاص . وهكذا يمكننا أى نحلم بشخص يشبه السيد (س) يمشى كما يمشى (ص) ويلبس كما يلبس السيد (ء) . و نحلم بمكان يسمى Trouport رمزاً لتجربتين إحداهما فى Trouville والأخرى فى Tréport وتوجد علاقة فى المضمون الكامن بين الأشخاص والأماكن تسمح بصهرهم فى المضمون الظاهر .

هذه الميكانيكية شديدة التعقيد لأنه من ناحية قد يمثل عنصر واحد عدة ميول مكبوتة ومن ناحية أخرى قد يعبر عنصر واحد مكبوت عن نفسه بعدة عناصر ظاهرة . وفى رأى فرويد يوجد هنا تشابك entrelacement بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن حتى إن معنى كل عنصر من عناصر الحلم الظاهر يجب أن تنتظر التفسير الكلى للحلم .

ولكن أهم ميكانيكية فى تشييد الحلم هى (النقل) Le déplacement وهو المسئول الأساسى عن الطبيعة غير المفهومة للحلم .

فالاهتمام العاطفى بعنصر هام فى المضمون يمكن أن « ينقل » إلى عنصر أقل أهمية حتى إن الحلم الظاهر يكون مركزاً على عناصر ثانوية أو قليلة الأهمية . وهكذا فإن ما يبدو الموضوع الأساسى للحلم قد لا يكون له فى الواقع سوى عامل لا معنى له ، ويكون المعنى الحقيقى مرتبطاً بعنصر مختف . ففى حلم يصف منزلاً وطريقة تزيين الأبواب والنوافذ لايتعلق العنصر الهام فى الحلم إلا بإناء صغير موضوع على المدفئة . ويقول فرويد إن « النقل » Le déplacement هو الطريقة المستعملة أساساً فى أثناء تشويه الحلم والتى تتدخل تحت تأثير الرقابة .

والمسرحة Dramatisation وسيلة تتحول بواسطتها أفكار الحلم إلى صور مرئية

---

(١) Ibid, p. 156

والأفكار المجردة إلى أشياء ثابتة . وترتبط ميكانيكية المسرحة ارتباطاً وثيقاً بمكانيكية النقل لأن اختيار الفكرة التى سيتم التركيز عليها بالاشتراك مع العنصر الهام تعتمد على إمكان تصوير هذا العنصر تصويراً مرئياً . « فنشاط الحلم لا يتردد فى إعادة تأسيس فكرة صلبة بسرعة وإعطائها شكلاً آخر حتى ولو كان هذا الشكل أكثر غرابة ، مادام هذا الشكل الجديد ييسر تحويل هذه الأفكار إلى صور مرئية ، واضعاً بذلك نهاية للقلق الذى تثيره فكرة متسلطة » (فرويد)

وبهذا يأخذ الحلم شكل حركة أو نشاط مسرحى ، أما معطيات الزمن والمكان فلا تتدخل فى لعبة الأفكار الظاهرة .

وأخيراً فإن ميكانيكية الصياغة الثانوية L'élaboration secondaire « تتدخل فى لحظة الاستيقاظ ولا تتوقف عند هذا الحد . وتتم صياغة الحلم بواسطة الرقيب المتيقظ الذى يجعله أكثر اتساقاً وأقرب للمنطق . ويتم إخفاء بعض العناصر بصورة أفضل حتى لا تزعج الشعور . وتربط العناصر المختلفة للحلم الظاهر بعضها حتى يكون الحلم كلا ، ولكن يجب الاحتراس ، بصفة عامة من الرغبة فى تفسير جزء من الحلم الظاهر بواسطة جزء آخر كما لوكان الحلم فكرة واحدة متسقة أو كما لوكان يشكل تمثيلاً عملياً » . (فرويد)

ولذا فإن نتيجة الصياغة الثانوية هى إعطاء الحلم شكلاً جديداً كلية وزيادة صعوبة تفسيره .

وتفصح الميكانيكيات النفسية المكبوتة عن نفسها فى الحلم بواسطة الرموز فالشئ يمثل شيئاً آخر بسبب نقطة تشابه بينهما حتى إن الجمع بينهما يكون من الدقة بحيث لا يدركه الشعور . هذا التمثيل بالرموز يكون قبل كل شئ تحويلاً للاهتمام العاطفى من موضوع إلى موضوع آخر . وهذه الميكانيكية عامة متعلقة بالإنسانية حتى إننا نجدها فى المراسيم الوثنية والدينية . فالعيش والدم اللذان يرمزان لجسد ودم المسيح والمرأة ذات العينين المعصوبتين التى تحمل ميزاناً لترمز للعدالة تعتبر أشكالاً مألوفة لكل منا .

ويمكننا اعتبار مثل هذه الرمزية مقابلاً لحاجة العقول البدائية للتعبير عن أفكارها فى صورة عيانية ولكننا إذا نظرنا إليها باعتبارها تعبيراً عن ميكانيكيات

لا شعورية فإن الرموز ستبدو كما لو كانت طريقة للتنكر إذ أن الموضوعات المتباعدة التى تجمع يتم اختيارها لتمثل الحاجات المكبوتة .

وهناك رموز معينة تظهر كثيراً فى الأحلام لدرجة أن النظرية الفرويدية اعتبرتها عالمية . وهكذا فإن المنزل يرمز غالباً لجسد الإنسان ، فإذا كانت الجدران ملساء يكون الأمر متعلقاً برجل ، أما إذا كانت مزودة بأسوار ومطلات فإن الأمر يكون متعلقاً بامرأة . ويظهر الوالدان فى صورة ملك وملكة على حين يظهر الإخوة والأخوات فى صورة حيوانات صغيرة أو ديدان . وترمز المياه فى الحلم للميلاد. أما العلاقات بين الأم وأطفالها فتمثل بواسطة النزول إلى الماء أو الخروج منه ، بإنقاذ الغير أو الإنقاذ بواسطة الغير . ويرمز السفر للموت .وتمثل الأعضاء الجنسية بواسطة أشياء تشبهها من بعض الأوجه ؛ فعضو الذكر يمثل بواسطة شئ له قدرة على النفاذ (سكين أو خنجر إلخ) وأيضاً بواسطة عصا أو مظلة أو أشجار أو صارٍ . وتمثل الأعضاء المؤنثة بواسطة أشياء مقعرة بئر أو حفرة أوقدر أو علبة .. إلخ .

ويبدو أن التكنيك المستعمل فى التحليل النفسى بسيط إلى حد كبير ولكنه يتطلب من المحلل النفسانى براعة وصبراً لا يمكن التوصل إليهما إلا بعد سنوات من التمرين العملى . وهذا التكنيك يعرف باسم التداعى الطليق Assocations libres ويتم عملياً على النحو الآتى : يروى المريض حلماً ، أو تجربة أو يعبر عن فكرة أو نظرية عزيزة على نفسه ويطلب منه المحلل التجول بأفكاره حول هذا الموضوع ويجب على المريض ألا يبذل جهداً فى توجيه أفكاره كما يجب أن يعبر عن الأفكار المتواصلة التى تعن له . ولما كان كل تداع يجر آخر فإن المريض ينتهى إلى تذكر التجارب المنسية . وفى الهدوء الذى يخيم على مكتب المحلل النفسانى يرتخى المريض ويتكلم عن نفسه بطريقته ، وفى الوقت نفسه يعبر عن أحلامه . ويحرص المحلل على تجنب ما يوحى إلى المريض بأى شىء بواسطة الحركة أو القول .

ويدون المحلل وقفات المريض فى أثناء تحدثه والتى يبدو أنها تعنى وجود أمر مكبوت . ويقابل المحلل عادة مقاومة كبيرة ، كما لو كان المريض يخشى الكشف عن ميوله اللا شعورية ويقتضى الأمر أشهراً عديدة لإتمام التحليل ، أشهراً من الصبر والفهم .

وتنمو علاقة عاطفية بين المحلل والمريض تسمى التحويل Transfert أى تتحول الانفعالات والميول ذات الصلة بعلاقات سابقة لم تتم على النحو الذى كان يأمله المريض إلى المحلل ، وبهذا يتحرر المريض من موافقة العاطفية التى كانت أساس الصعوبات التى عانى منها ، ويصل المحلل إلى أن يضع أمام عينى المريض تباعاً الأشخاص الذين كانت له بهم علاقات عاطفية . فيستطيع أن يقدم مثلاً والد المريض عندما كان المريض طفلاً تتنازعه نحو الأب الأحاسيس المتناقضة من حب وكراهية . هذا الوضع الثنائى[1] الذى يكون فيه الموضوع أو الشخص تحت تأثير الميول المتناقضة محبوباً ومكروهاً فى آن واحد يجعل مهمة المحلل دقيقة ويقول فرويد : « لا يمكن إنكار أن المحلل النفسانى فى أثناء جهوده لتخطى ظاهرة التحويل بنجاح يلقى صعوبات كبيرة ، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الصعوبات هى التى تسدى لنا خدمة إحياء الانفعالات العاطفية التى نسيها المريض »

الهدف النهائى للمحلل هو جعل علاقة التحويل واعية حتى يعرف المريض دور المحلل وطبيعة الانفعالات المتصارعة التى يشعر بها نحوه . لأن هذا يسمح له بالتحرر من الخضوع للمحلل . وتفهم الأسباب التى كانت أصل الصعوبات التى واجهها .

كان فرويد شديد الحرص فى أحكامه المتعلقة باستعمال تكنيك التحليل النفسى . وكان يعترف بصراحة أن حالات الشفاء فى أثناء العلاج بالتحليل النفسى ليست مرتفعة إلى حد يمكن التفاخر به وفعلاً فقد كتب يقول « لا أعتقد أن نجاحنا يمكن مقارنته بنجاح Lourdes[2] لأن عدد الأشخاص الذين يؤمنون بمعجزات السيدة العذراء أكثر من أولئك الذين يؤمنون بوجود اللاشعور » وبصرف النظر عن الدعابة التى تحويها هذه الجملة فإنه يبدو أنها تعترف ضمناً بدور الإيحاء فى الشفاء إلى حد يصعب معه القول إلى أى مدى يرجع فيه نجاح التكنيك الفرويدى إلى القيمة الذاتية لطريقته أو يرجع إلى الثقة التى يضعها المريض فى المحلل . ولكن أهمية النظرية الفرويدية لا ترجع إلى النجاح الذى

---

(١) Freud : Nouvelles conférences, p. 165

(٢) مكان مشهور للحج مخصص للعذراء . Larousse

تحرزه فى العلاج بقدر ما ترجع إلى قدرتها على جعلنا نفهم ، بطريقة أفضل ، الطبيعة الإنسانية . فأهمية العلم لا تكمن فقط فى الإمكانيات التى يقدمها لنا للتدخل أو التنبؤ ، وإنما يهمنا العلم كذلك لأنه يجعلنا نفهم الميكانيكيات التى تمكننا من التدخل . فنظرية فرويد عن الحلم تعطى للأحلام معنى وتشرحها باعتبارها شكلا للنشاط النفسى ينتج عندما يكون الشعور فى حالة راحة . وفى ضوء هذه النظرية نلاحظ أن الطريقة التى تعبر بها الخيالات عقلنا فى حالة اليقظة مرتبطة بالأحلام التى تراودنا فى الليل . فنحن نعلم أننا نحاول فى أحلام اليقظة تحقيق الآمال والرغبات الواعية ، فنرى أنفسنا وقد حققنا النجاح ونقوم بتحويل الأحداث لتعكس لنا صورة طيبة عن أنفسنا . وحسب النظرية الفرويدية فإن حدوث مثل هذه الميكانيكية أثناء النوم يصبح شيئاً ذا معنى . وقد كان الدكتور براون على حق عندما قال إن فهم جزء كبير من هذه النظرية يرجع إلى أنها تعبر عن أشياء طالما عرفناها ولكن بصورة مشوشة[١] ويورد الدكتور براون حجة الأستاذ نوتكات فى كتابه « Psychology of personality » والتى مؤادها أنه « حتى أولئك الذين يعدون التعبير بالرموز فى الأحلام مفتعلاً ومضحكاً يعرفون تماماً معناه . فإذا ما حلم شخص بأنه ينزل إلى مطبخه ويفتح الفرن فيجد به قطعة من الحلوى فإنه عندما يستيقظ يرى الحلم مجرداً من كل معنى ؛ ومع ذلك فإنه عندما يجلس فى مقهى الحى مع جندى يقول له : « إن لدى زوجتى قطعة حلوى فى الفرن » يفهم بسرعة ما تعنيه هذه الجملة » [٢]

أكدت الأبحاث على النوم بطريقة غير مباشرة صحة نظرية فرويد عن التعبير بالرموز فى الأحلام ؛ وتمت دراسة الطريقة التى يحدث بها تعديل مضمون الأحلام بواسطة المنبهات الشفوية . وخلال إحدى التجارب أوقظ الشخص بعد أن أعيد على سمعه مراراً اسم صديقته "Jenny" والذى كان يردده جهاز تسجيل . وعندما استيقظ تذكر أنه كان يحلم بأنه كان يقوم بفتح خزانة حديدية بواسطة كماشة "Jemmy" [٣] . فالتعبير بالرموز فى هذا الحلم واضح . ولكن الشىء الذى

---

(١) Dr. J.A.C. Brown : Freud and the post — Freudians, Penguin 19262, P. 189

(٢) جملة شعبية إنجليزية تعنى أن المرأة حامل .

(٣) Pince Monseigneur

يلفت النظر هو كون الإثارة الشفوية ذات المضمون العاطفى القوى ، يمكن أن تولد حلماً ، وأن هذا الحلم مع كونه نابعاً من الإثارة الشفوية ، يصل إلى التعبير عن ميول عاطفية كامنة .

وبرغم أن فرويد نادى بضرورة إدخال الحلم فى مجالات البحث العلمى وبأن الحلم له معنى ولا يقتصر على كونه نتاج نشاط نفسى لم يتم التحكم فيه ، فإننا نستطيع أن نقول وبحق إنه بالغ فى تقدير الدور الذى يلعبه تحقيق الرغبات فى صياغة الحلم إن أقصى ما يمكن أن نقوله هو أن نشاط الحلم هو وسيلة للتعبير عن الرغبات المكبوتة ، ولكن هذا لا يعنى أن نشاط الحلم يستمد من تحقيق الرغبات فقط وأنه لا تتدخل عوامل أخرى فى صياغة الأحلام . وتعلمنا تجربتنا من خلال الحياة اليومية أن خوفنا وقلقنا يعبران كذلك عن نفسيهما فى الحلم ؛ وبرغم أن هذا الخوف والقلق يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبوتة ، بمعنى أن هذه الرغبات يحرمها المجتمع وبذا يصبح سبباً للقلق ، فإن الخوف والقلق يمكن أن يكونا مرتبطين بأسباب أكثر موضوعية .

وعلى سبيل المثال أسر لى صديق فقد عمله لمدة ثلاث سنوات خلال أزمة الثلاثينات بأن الخوف من البطالة ظل يراوده ولم يستطع التخلص منه تماماً فى أية لحظة . وبرغم أنه يستطيع التحكم فى هذا الخوف فى أثناء يقظته فإنه يعود للظهور أحياناً فى أثناء نومه .

والحقيقة أن جزءاً كبيراً من حياة اليقظة خاضع لما يفضل تلاميذ فرويد تسميته « القمع » "répression" فى مقابلة « الكبت » "refoulement" أى تنحية الأفكار المقلقة جانباً بطريقة شعورية . ولما كانت الرقابة الشعورية تضعف فى أثناء النوم ، فإن الأفكار المنحاة والميول المكبوتة يمكنها أن تظهر وتعبر عن نفسها .

إن الماركسية التى تعالج وقائع محددة موضوعيا وعلى وجه الخصوص وقائع اجتماعية لا تفسح للحلم إلا مكاناً صغيراً فى تركيبها النظرى . ومع ذلك ، كما سأحاول أن أوضح ، فإن الأحلام ذات أهمية خاصة بالنسبة لنظرية المعرفة . ذلك أنها

تقدم تعبيراً عن التفكير الاجتماعي . بمعنى أنها لا تعتبر جزءاً من وسائلنا المعتادة في التعبير وبالتالي لا تستخدم الوسائل اللغوية التي تسمح لنا بالتواصل مع الآخرين . هذه الوسائل اللغوية ، نظراً لأنها على قدر كبير من التجريد ، تخضع لتحريفات خاصة بها . وأيًّا كان الأمر فإن الدراسات المتعلقة بالإنسان لا يمكنها أن تتجاهل حقيقة الحلم . فكوننا نستطيع أن نحقق في الأحلام ما يأباه علينا الواقع الخارجي حقيقة ذات معنى اجتماعي لا تزال أهميتها في انتظار استكشاف الإنسان لها .

٤ ـ السواء والمرض فى علم النفس

من بين الاعتراضات التى توجه إلى نظرية التحليل النفسى أنها مؤسسة على ملاحظات تتخذ من الحالات غير السوية أى المرضية نقطة البداية لها : وقد كان رد فرويد على ذلك أن الحالات غير السوية لا تختلف عن الحالات السوية إلا اختلافاً فى الدرجة وأن الاتجاهات الموجودة فى الحالات المرضية موجودة فى الحالات غير المرضية ولكن بشكل مخفف . ويؤدى تضخم الأعراض كما تظهر فى الحالات المرضية إلى تسهيل دراستها ويكفى أن نتأمل بعمق السلوك المعتاد لنعثر على نفس الاتجاهات والميول ولكن بصورة أقل ظهوراً فى تصرف كل منا .

ويكمن الخطر الحقيقى عند القيام بممارسة العلاج النفسى . فيجب على القائم بالعلاج النفسى أن يحترس من تطبيق المعطيات غير الطبيعية على أشخاص طبيعيين ــ من أن يرى كل شخص عصابياً أو مريضاً بالذهان ــ ذلك أنه تظهر على كل منا إلى حد ما ، ملامح سلوك غير طبيعى .

وخلال هذا الفصل أود أن أصف بعض أشكال التصرف التى تبحث فيها ميولنا اللاشعورية عن وسيلة تعبر بها عن نفسها والتى تكون ميكانيكيات الدفاع التى يستعملها الأنا . وللتمهيد لوصف السلوك العادى سأبدأ بدراسة السلوك غير العادى .

الشكلان غير العاديين للسلوك غير الطبيعى هما العصاب Névriose والذهان Psychose أى المرض العقلى .

فى العصاب ينشأ ، حسب النظرية الفرويدية ، وضع تكون فيه الميول والاتجاهات المتضادة قد بلغت حدا من التوتر لا يمكن احتماله . وإذا بالكبت تقل فاعليته فى التحكم فى هذه المتضادات . ويهدد القلق بالاستقرار . وفى سبيل تجنب هذا ينمى الأنا أعراضاً عصابية تقوى الكبت أو تسمح للميول اللا شعورية أن تفصح عن نفسها جزئياً . وتعد هذه الأعراض بالنسبة للأنا وسيلة للهروب من هذه الميول

التى يثير الصراع فيما بينها قلقاً كثيفاً . وهكذا فى أثناء الحرب يغدو كثير من الجنود فريسة لانفعالات وميول متضادة . إذ تكون لديهم رغبة فى الابتعاد وبقدر الإمكان عن مكان الخطر ولكنهم يحجمون عن ذلك لما يولده تحقيق هذه الرغبة من الشعور بالإثم . الهرب مخز ، والبقاء ينطوى على خطر وربما يؤدى إلى الموت . نلاحظ هنا وجود ميلين متضادين . فيجب على الأنا أن يواجه من ناحية الضغط العاطفى الذى يولده وضع منطو على خطر ، ومن ناحية أخرى التركيبات الأخلاقية للأنا الأعلى التى يجعل ناموسها الهرب صعب التصور . ويتصادف أن يقدم جرح وسيلة للهرب من هذا الاختيار ، وإذا بالشخص المصاب يعمل على إنماء عمى أو شلل يجعله فى حالة عجز عن العمل الإيجابى .وبهذا يشبع غريزة الابتعاد عن الخطر دون أن ينجم عن ذلك شعور بالإثم . ويمكن أن تكون الأعراض العصابية مصحوبة بآلام شعورية لإرضاء الأنا الأعلى ويرتبط العمى أو الشلل بأسباب نفسية ذلك أنه فى حالة التنويم المغناطيسى يعود البصر أو يسترد العضو المشلول القدرة على الحركة ثم يختفى عندما تتوقف حالة التنويم المغناطيسى . وتتم الأعراض بميكانيكية لا شعورية تماماً ودون غش متعمد .

وتسمى هذه الوسائل للهروب من صراع عاطفى عن طريق الإصابة باضطراب جسمانى يبحث فيه الأنا المهدد عن ملجأ ، تسمى فى لغة التحليل النفسى بعصاب الاستبدال أو التحول : Névroses de conversion . ويحدث كل شىء كما لو كان الصراع النفسى يتحول إلى أعراض جسمانية .وفى الحالات الأخف درجة التى لا تصل إلى أنه تكون عصاباً نستطيع أن نلاحظ كل يوم هذه الميكانيكية فى ظهور إصابات قليلة الخطر : سعال ، زكام ، صداع ، تجنبنا لقاءات لا نرغب فيها أو أعمالاً منفرة . فالصداع الذى يمنعنا من إلقاء خطبة يمكن أن يبدو تلقائياً ولكنه يساعدنا على التخلص من مهمة كنا لا نرغب فى القيام بها

ويعد العصاب القهرى[1] شكلاً آخر من أشكال الهروب . ويدخل فى هذه الطائفة الموسوسون الذين يشعرون بضرورة القيام بأعمال معينة مجردة من أى معنى فى

---

(١) يقابل ما يعرف فى اللغة الدارجة بالوسواس مثل أن يقوم المريض تحت إحساس قهرى بغسل يديه مرات عديدة فى أثناء النهار أو بغير ذلك من الطقوس القهرية قبل النوم مثلا .

ذاتها ولكنها ترمز إلى ميول مكبوتة . فالأعمال مثل الترتيب ، والعد ، ولمس الأشياء، لها قيمة تحمى أولئك الذين يلجأون إليها من أن يقوموا بأعمال أخرى يمكن أن تولد إصابات غير مرغوب فيها . ويمكن أن تكون ردود فعل تسعى ، رمزياً ، إلى إعدام عمل سابق ذى معنى نفسى قوى . وقد تكون أعمال القهر مصحوبة بأفكار تبدو غالباً تافهة وخالية من أى معنى ولكنها تساعد على إخفاء أفكار أخرى هامة من الناحية النفسية . وتتسبب استحالة القيام بهذه الأعمال والجهود التى تبذل لطرد الوساوس فى حدوث اضطراب عقلى خطير .

ويضرب فرويد مثلاً طريفاً عن العصاب الحوازى فى كتابه « مقدمة فى التحليل النفسى » .

كانت فتاة ذكية فى التاسعة عشرة من عمرها تشعر دون سبب ظاهر بانهيار شديد. إذ كان عليها قبل أن تأوى إلى فراشها أن تقوم بمجموعة من الطقوس المعقدة؛ كانت لا تريد أن تسمع أى ضجة فى أثناء الليل وفى سبيل ذلك كانت توقف الساعة ذات البندول فى حجرتها وتترك ساعة يدها خارج الحجرة . ثم ترتب بعناية الزهريات وشوالى الورد على مكتبها حتى لا تسقط على الأرض وتزعج نومها . وكانت تصر على أن يترك باب حجرتها المؤدى إلى حجرة والديها مفتوحاً . وأخيراً ترتب فراشها بطريقة معقدة بحيث لا تمس الوسادة الطويلة خشب السرير وتوضع المخدة محازية تماماً لقطر الوسادة الطويلة . وتهز زغب المخدة حتى يسقط الريش كله فى القاع ثم يبسط ليعاد توزيعة مرة أخرى بصورة متساوية « وتكون جميع هذه الحركات مقترنة بالخوف من عدم القيام بها على النحو الواجب . ولذا كانت تحاول مراراً وتكراراً ، ويتسرب الشك أحياناً إلى الاحتياطيات التى كانت تتخذها وتكون النتيجة هى انقضاء ساعتين قبل أن تستطيع أن تنام وتترك والديها المذعورين ينامان » (فرويد)

وقد أظهر التحليل الذى قام به فرويد لهذه الطقوس أن الهدف منها مزدوج فهى من ناحية ترمز لرغبات جنسية مكبوتة ومن ناحية أخرى تعد وسيلة دفاع ضد هذه الرغبات .

نبه فرويد إلى أن الاحتياطيات التى تتخذها هذه الفتاة قبل أن تأوى إلى

فراشها لها مقابل فى الحياة العادية . فكثير من الأشخاص يلجأون إلى القيام بأعمال روتينية قبل أن يناموا . ولا تعد هذه الاحتياطات أعراضاً عصابية إلا إذا اتخذت شكلاً مبالغاً فيه وكانت مصحوبة بوسوسة شديدة . وكذلك الحال بالنسبة لأعمال الوسوسة الأقل أهمية مثل : تفادى وضع القدم على الشق بين بلاطتين ، ولمس حاجز السلم ، وعد الخطوات ، وغسل الأيدى وغيرها من الأعمال التى يمكن ملاحظتها كثيراً فى الحياة اليومية . وهى لا تشير إلى وجود عصاب إلا إذا أصبحت تشيع الاضطراب جدياً فى سير الحياة وتصبح مصدراً للقلق إذا لم يتم إنجازها .

إذن فالأعراض العصابية لها معنى . إنها ميكانيكيات يستطيع الأنا بواسطتها الدفاع عن نفسه أمام إلحاحات الأنا الأدنى والقلق الذى يصاحبها عامة يمثل الخطر الدائم النابع من الأعماق .

يميز فرويد بين ثلاثة أنواع من الحصر أى القلق النفسى أو الضيق : حصر موضوعى نابع من تهديد خارجى ، وحصر عصابى يأتى فيه الخطر من الداخل وتثيره متطلبات الأنا الأدنى ، وأخيراً حصر أخلاقى يكون سببه الأنا الأعلى عندما تكون الأفكار والأعمال فى صراع مع أحكام الأنا الأعلى القاسية . وغالباً ما يكون الشخص العصابى فريسة للقلق الذى لا يستطيع منه فكاكاً برغم أن هذا القلق يكون على غير أساس أو مبالغاً فيه بالنسبة للمركز الخارجى ويمكن أن يكون القلق « حصراً هائماً »[1] Angoisse flottante بمعنى أنه يبدو غير قائم على سبب معين ، وبرغم ذلك فهو يولد شعوراً بعدم الراحة وبالخوف . ويمكن أن يكون القلق فوبياً Phobique متخذاً شكل خوف نابع من مواقف خاصة مثل : الخوف من الأماكن العالية ، أو من الفضاء أو من الأماكن المغلقة .. إلخ وقد يوافق المريض على أن خوفه لا يتناسب مع التهديد الذى يقدمه الموقف الخارجى أو أنه يبالغ فى هذا التهديد ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن التحكم فى هذا الخوف . وهذه المواقف التى يخشاها يمكن أن تكون ذات صلة بميول لا شعورية تهدد هذه المواقف بتحريكها .

---

(١) الحصر الهائم : المقصود بالحصر القلق النفسى والمقصود بلفظة الهائم أن القلق غير مرتبط بموضوع معين وإنما يستشعر المريض قلقاً دون ربطه بمصدر معين .

والعصابى برغم مرضه لا يفقد كل اتصال بالواقع . فقد يبحث عن مساعدة لتحسين حالته ويريد الخروج من حالة الشعور بعدم الأمان والتعاسة . ولا يسعى إلى الهرب من مشاكله عن طريق تشويه علاقته بالعالم الخارجى تشويهاً كاملاً ، أو الانسحاب الكامل منه . فهو واع بعجزه ويفهم ذلك إلى حد ما ويشعر بمسئوليته اجتماعياً . ويكمن هنا الفارق الرئيسى بين العصابى والمصاب بالذهان psychtique فمرضى الذهان ينسحبون من الواقع أو يشوهون بعض أوجهه . فالمريض بالذهان نادراً ما يعترف بعجزه « والانسحاب من الواقع يتم لدى المرضى العقليين بطريقتين : إما أن اللاشعور المكبوت يصبح من القوة بحيث يغرقه الشعور الذى يحدده الواقع ، وإما أن الواقع يغدو من القسوة بحيث لا يمكن أن يحتمله الأنا المهدد ، وفى ثورة يائسة للدفاع يلقى الأنا بنفسه بين ذراعى الميول اللاشعورية »[١] .

ويعد تصنيف الأمراض العقلية غامضاً إلى حد ما[٢] . والأشكال الرئيسية هى الشيزوفرانيا أو الفصام Schizophrénie ، والبارانويا Paranoia والذهان الهوسى الاكتئابى psychose maniaco — depressive

ويتميز الفصام la schizophrénie باختلاف الحياة العاطفية عن الحياة العقلية . فالمريض يتأثر بصورة بالغة من شىء تافه فى حين يظل ساكناً تماماً فى ظروف من المفروض حسب طبائع الأشياء أن تثيره . وعلى هذا النحو فقد تصيبه نوبة هياج لأن ورقة وقعت عند قدميه ويبدو غير متأثر عند إخباره بوفاة قريب له . هذا الاختلاف بين الحياة العاطفية والحياة العقلية أدى إلى دفع الفصام

---

(١) Freud : Nouvelles conférences, p. 16

(٢) يوجد تصنيف منتشر الاستعمال ، يميز بين الأمراض العقلية العضوية والأمراض العقلية الوظيفية . والأمراض العقلية العضوية هى التى نجد لها سبباً جسمانياً . ويمكن أن يتسبب فيها تدهور فى النخاع كما فى حالة الشيخوخة وإصابة المخ وعدم كفاية مد المخ بالدم والتسمم إلخ . أما الذهان الوظيفى فلا يبدو واضحاً أن هناك سبباً عضوياً . ويدخل فى هذا الذهان الفصام والهوس الاكتئابى .

وتعتبر هذه الأمراض أمراضاً فى الشخصية لا أمراضاً فى الجسد ، ولكن ليس من السهل تأكيد أنه لا توجد عوامل عضوية تتدخل لمجرد أننا لا نراها . ثم إنه لا يجب أن ننسى أن الأمراض العقلية العضوية تفسد الشخصية حتى إنه ليس فى الإمكان وضع خط فاصل بين الذهان العضوى والذهان الوظيفى .

بأنه « انفصال الأفكار » (١) "dissociation des idées" فالمصاب بالشيزوفرانيا انسحب من العالم ليدخل فى عالم من صنعه مأهول بالأهوام الغريبة والأفكار العجيبة .

ويميز الطب النفسى أربعة أشكال رئيسية للفصام : البسيط ، الهبفرينى hébéhrénique والتخشبى catatonique والباراناوى أو الهذائى parano فالفصام فى شكله البسيط يتميز ببطء التفكير والانسحاب من العالم المصحوب بالتخيلات . أما فى الشكل الهبفرينى hébéphrénique فتظهر بصورة أوضح الأوهام الخيالية ، والهلوسة المسموعة ، ونوع من العبط ، وأزمات ضحك عصبية وكذلك استعمال ألفاظ ومعان جديدة فى الحديث . وتتوالى على الشكل التخشبى catatonique حالة بلاهة ثم حالة إثارة . ففى حالة البلاهة يوجد انسحاب تام من الواقع ، ويبدو المريض غريباً كلية عن محيطه وعن حاجات جسده . فهولا يتكلم ويجب أن يعامل كما لو كان طفلاً صغيراً . وعندما يتحول إلى حالة الإثارة التخشبية يصبح سلوكه اندفاعياً وشديد النشاط إذ يبدو وقد خرج من بلاهته ليدخل فى حالة مضادة من النشاط الزائد لا على أثر تغير فى مركزه الخارجى ولكن استجابة لميكانيكيات عقله الغريبة الأطوار .. وأخيراً ففى الشكل الباراناوى la forme paranïde يلاحظ الشك وعدم الثقة حيال الأشخاص الآخرين ، وتفسيراً خاطئاً للأشياء وتو اً قوياً بالاضطهاد المصحوب بهلوسة شديدة .(٢)

هذا الشكل الأخير يشبه الذهان المعروف باسم بارانويا ، وفى الحقيقة ، يرى بعض الأطباء النفسانيين أن هذا الشكل يدخل فى هذه الطائفة . ومع ذلك ففى البارانويا لا وجود لاضطرابات التفكير وإن وجدت فبقدر ضئيل . وتتسم

---

(١) اصطلاح قد يفهم خطأ ويخلط بين الفصام وتعدد الشخصيات — وهو حالة يبدو فيها أن الفرد يغير شخصيته — إحداهما تبدو مبتهجة ومناكفة على حين تكون الأخرى جادة ومتعقلة كما فى الحالات الشهيرة التى درسها مورتون برنس : سالى بوشون .

(٢) كثيراً ما تخلط الهلوسة بالأوهام . فالوهم illusion هو فكرة خاطئة مثل الاعتقاد الخاطىء أن الأشخاص يتآمرون ضدك أما الهلوسة Hallucination فهى تصور خيالى دون موضوع مثل سماع أصوات أو رؤية أشخاص فى حين أنه لا يوجد من يتكلم ولا يوجد من يرى .

البارانويا بأقصى حد من عدم الثقة ، إذ يصل حال المريض بالبارانويا إلى حد الاعتقاد بأن العالم كله متآمر ضده ، وأنه مضطهد وأن أبسط الأعمال تهدد راحته . والواقع أنه مضطهد وفكرته التى مؤادها أنه مضطهد مبررة بمعنى معين ؛ فالاضطهاد فى الحقيقة داخلى ، إذ أن الأعمال والأقوال التى لا يثق فيها تأتى منه وتمثل الميول المكبوتة واللا شعورية التى يخاف منها . وبعبارة أخرى هو يحاول الهرب من الميول الداخلية بإلقائها على العالم الخارجى ونسبتها إلى أشخاص آخرين وسنناقش فيما بعد هذه الميكانيكية المسماة بالإسقاط projection

عندما يتم إسقاط الميول غير السارة على العالم الخارجى تصبح العملية منطقية للغاية . غالباً ما يشيد مرضى البارانويا نظاماً للدفاع على درجة عالية من الإحكام لتبرير ريبتهم . وقد ترامت إلى علمى حالة مماثلة كان المريض فيها قد بنى حجة مفيدة مؤداها أنه كان المقصود بأغلب عمليات القتل التى وقعت حديثاً . فكل القتلى فى السنوات الأخيرة يحملون عنصراً كان يراه فى نفسه سواء لتواجده فى نفس المكان عند ارتكاب الجريمة أو لأن الحروف الأولى من اسمه كان يحملها القتيل . وكان يرد على كل اعتراض بمجموعة من البراهين المرتبة بطريقة معقدة لتكون حجة مقنعة للغاية .

والشكل الأخير من أشكال الذهان الذى سندرسه باختصار هو الذهان الهوسى الاكتئابى la psychose maniaco — depressive كل منا يعرف قفزات المزاج أو لحظات الإحساس بالراحة التى يتبعها انهيار . وبصفة عامة يمكننا تقبل هذه القفزات أو التخلص منها أو التصرف بحيث لا تسيطر علينا سيطرة كاملة . ولكن فى الذهان الهوسى الاكتئابى تسيطر قفزات المزاج تماماً . وهى تظهر غالباً دون سابق إنذار وفى حالات معينة تطول فترة الانهيار ثم يتبعها تغير مفاجىء يأتى بإثارة شديدة . وفى حالات أخرى تنقضى فترة من الهدوء النسبى ثم تليها فترة من الانشراح المفاجئ ويختلف التطور من مريض لآخر . فى حالة الانهيار يكون المريض جامداً ولا يستطيع التغلب على حزنه العميق ، يرى نفسه غير صالح لأى شىء ، يدين نفسه ، لا يأكل ولا يتحرك إلا قليلاً . ويمكن أن تأتى مرحلة الجنون فجأة ، فيصبح المريض شديد الحيوية يتكلم كثيراً ويفصح عن أفكار غريبة ويبدو

كما لو كان يتفجر طاقة . ولا يزال أصل هذه الحالة غير واضح تماماً . والتفسير الفرويدى لها هو أنه فى حالة الانهيار يسيطر أنا أعلى شديد القسوة على الأنا غير المسلح الذى يكون تحت رحمته ويجبره على الرضوخ لقواعد أخلاقية غاية فى القسوة . وبعد فترة معينة يفقد الأنا الأعلى قدرته على الانتقاد ويستعيد الأنا قواه .وعندما يهدأ الأنا الأعلى ويسترد الأنا قدرته على الحركة ، يجد نفسه فى حالة من ازدياد النشاط ممزوج بالنشوة ويختال كما لو كان الأنا الأعلى قد فقد كل سلطته أو اختلط به وبالتالى فإن هذا الأنا المختل الذى تحرر يستسلم تماماً لإشباع كل رغباته[1] .

وهكذا فإن العصاب والذهان ميكانيكيات للدفاع يسعى الأنا بواسطتها لحماية نفسه من إلحاحات الأنا الأدنى وفى بعض الحالات يسعى للتصالح مع أنا أعلى شديد القسوة . وهذه الميكانيكات تعبر فى أشكال متطرفة عن ميول موجودة لدى كل منا فنحن نستخدم فى حياتنا اليومية ميكانيكيات نرمى بواسطتها إلى الدفاع عن أنفسنا من ميول لا شعورية قد يؤدى إظهارها إلى الاصطدام بقواعد الشعور . هذه الميكانيكيات هى مصدر أشكال التصرف التى تشبه إلى حد ما تصرفات العصابيين ومرضى الذهان . ومعرفة هذه الميكانيكيات ذات أهمية كبرى لفهم الإنسان على المستويين الشخصى والاجتماعى . ولذا فإننى أختتم هذا الفصل بتعداد أهم هذه الميكانيكيات .

أولاً التكوين العكسى La formation réactionnelle وهو يتعلق بإنماء سمات واهتمامات شعورية هى نقيض للميول المكبوتة . فيوجه الاهتمام بعيداً عن هذه الميول المكبوتة وبذا يشتد ردعها . ومن الأشكال العامة للتكوين العكسى الجهاد فى سبيل الحشمة . فعن طريق إدانة كل ماله صلة بالجنس –صور عرايا ، رقص ، أشخاص يتعانقون ، فن حديث، روايات– يتم الوصول إلى حل وسط تكون فيه الميول الجنسية اللاشعورية قد وجدت مخرجاً جزئياً فى الاهتمام المركز على الأشياء الجنسية على حين أنها فى ذات الوقت ممنوعة منعاً قطعياً بسبب الطبيعة المناقضة لهذا الاهتمام . فيوجد مثلاً أشخاص مغرمون بالبحث الدائم عن

(١) Freud : Conférences nouvelles., P. 67

منظر غير محتشم فى الحدائق العامة أو يتنزهون فى الأماكن الخلوية للتعبير عن عدم رضائهم عن البطاقات البريدية Les cartes postales المعروضة فى واجهات المحلات.

وهناك مثال آخر مألوف وهو مثال ربة البيت التى ترعب كل من يحيط بها بدأبها على إزالة الغبار والدعك والتنظيف . هذه المغالاة فى النظافة هى تكوين عكسى لميل شديد تكون فيه القذارة ذات معنى هام .

والإسقاط projection وسيلة للهروب من الميول اللاشعورية عن طريق نسبتها إلى أشخاص أو مراكز فى العالم الخارجى فيتحول التهديد من تهديد داخلى إلى تهديد خارجى . وبذلك يصبح الهجوم والهروب ممكناً كما لو كان متعلقاً بتهديد خارجى حقيقى . فبواسطة الإسقاط تميل إلى التعرف لدى الغير على هذه الميول التى نرفض الاعتراف بوجودها فينا ونديها . وإن مراقباً يقظاً يستطيع فى الغالب أن يحدد خاصية الميول اللاشعورية بتسجيل الأشياء التى يدينها بأعنف صورة . فالشخص الذى ينتقد كثيراً أخطاء الآخرين يكون لديه إحساس شديد بالذنب حيال أخطائه هو ، والشخص غير المخلص يقف بالمرصاد لغدر الغير ، والعاشق الكثير الشكوك « يسقط » ميوله الشخصية بعدم الوفاء .

ويعتبر التسامى وسيلة هامة للتعبير عن الميول الجنسية . إذ تجد هذه الميول هدفاً واهتمامات لا ترتبط مباشرة بالجنس . فينتزع من هذه الميول وجهها الجنسى وتعبر عن نفسها بوسيلة يقبلها المجتمع . وتبعاً لنظرية فرويد ينبع الكثير من صور الإبداع الفنى والأدبى والثقافى من تحول الطاقة الجنسية . وميزة التسامى أنه يتضمن أقل قدر من الردع إذ لا يتعلق الأمر بميكانيكية دفاع عن الأنا ضد إلحاحات الأنا الأدنى وإنما يتعلق بطريقة تعاون بين الأنا والأنا الأدنى . ومن هنا فهى الوجه المقابل للتكوين العكسى . La formation réactionnelle . وقد أوضح ارنست جونز التقابل بين التكوين العكسى والتسامى على النحو الآتى : « يمكن أن يتسامى الميل البدائى للاستعراض إلى رغبة فى السيطرة جسمانياً أو بالقول أو بأى شكل من أشكال الشهرة . وبواسطة التكوين العكسى يمكن أن يتحول هذا الميل للاستعراض إلى تواضع أو خجل . ويمكن أن تتسامى اللذة البدائية التى يجدها الأطفال فى القذارة إلى هواية الرسم أو النحت أو فن الطبخ ، أو تؤدى إلى

رد فعل يبدو فى الميل للنظافة والترتيب وما إلى ذلك ؛

ووجود التسامى دليل على أن الأنا من القوة بحيث يستطيع استعمال الميول الغريزية لتحقيق أهداف اجتماعية . وبدلاً من أن ينحنى الأنا أمام الواقع الذى يضيق الخناق على ميول الأنا فإن الأنا يبحث فى الواقع الخارجى عن وسائل للتعبير تكون مخرجاً مناسباً لميول الأنا الأدنى دون أن تثير صراعاً مع القواعد والقوانين الاجتماعية . ولذا يمكن اعتبار التسامى المصدر الذاتى للتقدم الاجتماعى . أما الأمر الذى قد يثير نقاشاً فهو إمكان تشجيع التسامى لأنه يتدخل على مستوى لا شعورى ، ولكننى أميل إلى الدفاع عن نظام تعليم مستنير بمعرفة التحليل النفسى ، يكون الهدف منه ترقية مناهج تقوية الأنا والتأثير بطريقة غير مباشرة على إمكانيات التسامى. وفى نفس الوقت يجب إتاحة الفرصة للتقدم الاجتماعى مثل التنظيم الاقتصادى القائم على أسس معقولة وغيره من الأشياء التى سنعرض لها بعد دراسة النظرية الماركسية .

ومن أشهر ميكانيكيات الدفاع المعترف بها دون صعوبة التبرير La Ratinalisation إذ يسمح التعقل بتحقيق أعمال لولاها لأصبحت مصدر قلق نفسى عن طريق إيجاد توافق بينها وبين قواعد الشعور . ويتم الوصول إلى هذا الهدف عن طريق توسط ميكانيكية قوامها تبرير العمل . وعندما يتم العثور على السبب الذى يبرر هذا العمل على ضوء قواعد الشعور يمكن القيام به دون لوم أو شعور بالذنب . وعلى هذا النحو فإن منتج الأسلحة يمكن أن يجد لنفسه أعذاراً لكون أرباحه تأتى نتيجة لموت الأبرياء عن طريق « إثبات » أن الطبيعة البشرية تتطلب الحرب وأن هذه الحرب ضرورية للتقدم لأنها تنبه وتحرك الخلق والاختراع ، هذا التبرير هو دفاع ضد المنطق الذى يمكن أن يجبرنا على تعديل سلوكنا .

عندما نتبنى وجهة نظر لضبط التعبير عن ميولنا اللا شعورية وللتوفيق بينها وبين قواعد الشعور فإن أى اعتراض منطقى يمكن الإحساس به كما لو كان مهدداً لهذا الضبط بين الأنا والأنا الأدنى. ويلقى هذا ضوءاً على واقعة أن كثيراً من الناس فما يتعلق بحياتهم العاطفية ، يقررون الانتماء سياسياً أو دينياً ثم يبحثون عن أسباب تبرر قرارهم هذا ،وإذا ما دار نقاش بين شخصين فى هذا الوضع ، فإنه ينتهى

(١) Ernest Jones : Paperson Psycho — Analysis, Benn 1918

عادة بصراع بين نظريتين عقليتين يتبنياهما لتبرير أهداف عاطفية . فكل شخص يفكر فى العثور على حجج لتدعيم ميكانيكية دفاعه أكثر مما يفكر فى الإصغاء للآخر . والشخص ذو «العقلية الواسعة» خاصة إذا كان يحب توجيه الأنظار إلى هذه الصفة ، يكون عادة أكثر ميلاً إلى «المعقولية» من خصمه الذى لا يزهو بهذه الخصلة . فإصرار شخص على سعة أفقه وتفتح ذهنه يكون فى الغالب دليلاً على أنه يستشعر الحاجة إلى تبرير مجموعة من المعتقدات التى يتعلق بها بشدة .

فإذا كانت هذه الأفكار حاضرة فى الذهن أمكن تجنب الكثير من المناقشات البيزنطية غير المجدية، خاصة فيما يتعلق بالدين والسياسة، حيث لا تغلب الحجج المنطقية على الآراء النابعة من العاطفة . والحاجة التى يستشعرها بعض الأشخاص للتعلق بمعتقداتهم تؤدى بهم إلى الاندفاع وراء أنواع متباينة من التطرف حيال أولئك الذين يختلفون معهم فى الرأى . وأياً كان هدوء وسماحة طبيعة الشخص فمن الممكن أن تتحول إلى وحشية وشراسة إذا ما كان توازنه العقلى مهدداً بواسطة عرض وجهات نظر لا يستطيع تقبلها لأسباب عاطفية .

هذه الميكانيكيات التى عرضناها فيما سبق يمكن ملاحظتها فى الحياة اليومية ، وليس من الصعب استظهارها لدى الأشخاص الذين نعرفهم ولكن الصعوبة تزداد عندما يتعلق الأمر بأنفسنا . ويزداد حدوث النسيان فى الكلام أو عند الكتابة وهو ما يطلق عليه فرويد «علم النفس المرضى للحياة اليومية» "La psychcpathologie de la vie quotidienne" وقد بين فرويد أن هذه الحالات اليومية من النسيان ليست من قبيل الصدفة البحتة ولكنها مقصودة ومحددة بواسطة تدخل الميكانيكيات اللاشعورية فى الحياة الشعورية .

وعلى ذلك فقد أوضح أنه عندما ينسى شخص ذو ذاكرة قوية موعداً فذلك لأن لديه نفوراً حقيقياً لاشعورياً من هذا الموعد . والطبيب الذى يقول لعميلته الغنية «آمل ألا تغادرى الفراش سريعاً» يعبر عن رغبته اللا شعورية فى أن يستمر فى العناية بها . ويعرض فرويد حالة إرنست جونز الذى أهمل تصدير رسالة بالبريد عدة أسابيع وعندما صدرها فى النهاية نسى أن يكتب العنوان وأعيدت له فكتب العنوان ونسى أن يضع عليها طابع البريد .

العصاب والذهان، أشكال من سوء التكيف مع الواقع الاجتماعى . وهى تميز

الأشخاص الذين يخفقون بطريقة أو بأخرى فى علاقاتهم الشخصية والاجتماعية ويستبد بهم القلق والتعاسة حتى إنهم يرون الحياة غير محتملة . ويعد سوء التكيف هذا ذا أهمية كبرى فى المجتمع المعاصر . وهكذا ففى نهاية عام ١٩٥٤ قرر البيان الذى أصدرته لجنة أندروود Underwood عن الأطفال أن خمسى (٢/٥) أسرة المستشفيات المهيأة يشغلها المصابون بأمراض عقلية أو مختلى العقول . أما عن كون العلاقة بين العصاب والذهان علاقة كمية فهى نقطة لم يتم بعد توضيحها ويجادل البعض فى كون الذهان شكلا متطرفاً من أشكال العصاب . فيدافع أيسنك Eysenck مثلاً عن فكرة أن كلا من الشكلين يكشف عن أوجه مختلفة من الشخصية . ويبدو مع ذلك أنه فى كلا الشكلين توجد عوامل أساسية يؤدى التوتر الذى يطرأ على المركز الشخصى أو الاجتماعى إلى التأثير عليها . وتقدم الحياة الحديثة فرصاً عديدة لإيقاظ ميول عصابية أو ذهانية لدى الأشخاص الذين لديهم استعداد سابق . فالسعى لإحراز نجاح شخصى ولزيادة الثراء الذى يعد سمة التوفيق ، والعمل على التفوق على الجار الذى هو أساس نظام التعليم لدينا ، والشعور بعدم الطمأنينة اقتصادياً واجتماعياً مضافاً إليه الخطر المستمر الناشئ عن إمكان التدمير النووى وغيرها من العوامل تساهم فى زيادة التوتر وتعمل على تهديد التوازن العقلى للأشخاص الذين يكون تكوينهم هشاً . ويبين لنا تحليل فرويد ما هى الصراعات التى على أساسها يتطور العصاب والذهان . وسنرى فيما بعد أن التحليل الماركسى سيوضح لنا المراكز الاجتماعية الخارجية التى يمكن أن تنبه وتزيد شدة هذه الصراعات .

وبهذا نصل إلى نهاية الموجز الذى أقدمه للأفكار الرئيسية للنظرية الفرويدية .

كان شاغلى هو عرض هذه النظرية بأكبر قدر ممكن من الأمانة مع تجنب المتاهات . لقد كان فرويد أحد المفكرين العباقرة الذين تحتفظ أفكارهم بحيويتها وسلطتها خلال عشرات السنوات بعد موت أصحابها ، على حين أن أفكار من يدعون بالمصححين ، Révisionnistses تختفى معهم . ولذا فإن نظريات يونج Jung وآدلر Adler لا تقدم اليوم سوى قيمة تاريخية بعد أن اختفى مؤسساها .

ولا يعنى هذا أن النظرية الفرويدية لا تتطور ولكن يعنى أن التطور طرأ

فى مجال العلاج ، فى تطبيق أسس النظرية على المركز الإكلينيكى . وقد سبق لنا أن سجلنا أن التلاميذ المعاصرين لفرويد لديهم إحساس متزايد بالمشاكل الاجتماعية وأن هناك محاولة لإدخال النظرية الفرويدية فى الأسس الثقافية والاجتماعية لسلوك الإنسان . وهذا الكتاب مساهمة فى هذه المحاولة مادام يسعى للجمع فى وحدة غنية بين المحاولتين الكبيرتين اللتين شهدهما زماننا لفهم الطبيعة الإنسانية .

يأتى الاعتراض الأساسى على التحليل النفسى ، فى علم النفس العام من السلوكيين Les bihavioristes وخاصة من أولئك المتأثرين بنظرية بافلوف . ولما كان كثير من الماركسيين يعدون نظرية بافلوف ركناً فى علم النفس فإننى لا أود أن أختم هذا الفصل دون أن أمسها .

إن نقط الالتقاء بين فرويد وبافلوف أكثر مما يتصور بصفة عامة . فكلاهما انفرادى متزمت ، وهما يعتقدان أن السلوك الإنسانى له أساس عصبى عضوى Neuro — physiologique . ولكن على حين يصر فرويد على واقعة أن علم النفس لا يستطيع أن ينتظر حتى يتم الوصف العصبى الفسيولوجى للسلوك الإنسانى ، يرى بافلوف وتلاميذه أن علماً وضعياً للسلوك الإنسانى لا يمكن أن يوجد دون هذا العمل .

ومع ذلك فقد باءت بالإخفاق جميع المحاولات التى أرادت إكمال المسافة بين الفروفسيولوجيا والسلوك ، حتى إن سلوكياً دقيقاً مثل كلارك . ك . هل Clark C. Hull كتب أن : « المسافة شاسعة ولا يمكن اجتيازها بين الوصف التشريحى والفسيولوجى للجهاز العصبى كما نعرفه اليوم فى أدق تفاصيله ، وما يعتبر ضرورياً لتشييد نظرية معقولة ومرضية لسلوك الجماعات » . وحتى يتقدم علم النفس يزداد اليقين يوماً بعد يوم بضرورة إبقائه مجالاً مستقلاً تشيد أفكاره وقوانينه الخاصة على حدة .

اقترح بافلوف أن عملية التعلم يمكن أن تتم فى ظروف معينة وأن حيواناً محفوظاً فى الجو الصناعى لأحد المعامل يتعلم الاستجابة لبعض المثيرات التى كانت قبل ذلك لا تؤثر فيه . فالكلب يسيل لعابه عند سماع دق الجرس الذى أصبح علامة للأكل بعد أن حرك عدة مرات فى نفس وقت تقديم الوجبات . وقد وسع

بعض علماء النفس الأمريكيين حدود الميكانيكيات الشرطية وحسنوها . وحددوا على وجه الدقة وسيلة مسماة « الشرطية الآلية » "conditionnement instrumental" يقوم فيها الحيوان بعمل مثل الضغط على بدالات أو إدارة الرأس وهى حركات آلية تؤدى إلى حصوله على مكافأة .

أما ما يحدث فى مخ الحيوان ، وطبيعة الاتصالات المتمركزة فى غشائه فلايزال موضوعاً تسيطر عليه التأملات الخيالية . ويرفض أغلب علماء أمراض المجموعة العصبية الحديثين وصف بافلوف لهذه الميكانيكيات . ومع ذلك فإن من فضائل النظرية الشرطية أنها تستطيع أن تعلمنا شيئاً عن الميكانيكيات التى تعمل فى أثناء اكتسابنا لأشكال جديدة من السلوك مثل كيفية تعلم هذا الشىء أو ذاك . ولكنها لا تستطيع برغم ذلك أن تبرر نظرية للسلوك ، وإنما أقصى ما تستطيع هو إيضاح بعض الأوجه الهامة مثل معرفة ردود الفعل التى تحدث فى ظروف معينة . ولكننا يجب أن نتساءل وهذا أمر عظيم الأهمية فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى : لماذا تكتسب هذه المجموعة من ردود الفعل وما هى أهدافها ؟ لأن التوقف عند معرفة كيف تكتسب غير كاف .

فنحن نعرف مثلاً أن الأطفال يحتاجون للحب وللأمان ولعناية شديدة من الوالدين حتى يصبحوا بالغين سعداء . ونعرف أن الإهمال والفقر والحرمان من الحب والبيت المحطم يمكن أن تسبب كارثة فى حياتهم المستقبلة . فيمكن أن ينتج عن عدم إشباع بعض الحاجات أشكال من السلوك تؤدى إلى هذا الإشباع ولكنها تحقق مضرة للفرد وللمجتمع .

وكمبدأ عام يمكن وصف أشكال السلوك هذه بعبارات شرطية غير أن الموضوع الحقيقى لدراستنا هو هذه الحاجات غير المشبعة ، أما التشويه الذى يطرأ على السلوك نتيجة لعدم إشباع هذه الحاجات فيضع مشاكل خطيرة فى علم النفس لا يمكن الرد عليها بعبارات الانعكاس الشرطى .

ويمكن أن نتساءل أيضاً : ما هى فائدة نظرية الانعكاس الشرطى لإيضاح انجذابنا نحو الدين ؟ سنرى أن فرويد كان يعتقد أن الدين يقدم إشباعاً وهمياً لحاجات عميقة وأنه مواساة لصدمات هذه الحياة وفكرة فرويد عن الله ، هى إسقاط projection

للصورة الأبوية يتوجه نحوها الفرد ليستكمل الانتفاع بالحب والحماية اللذين كان ينتفع بهما عندما كان طفلاً ، توضح معنى الميل الديني عند فرويد . ويبقى أن نعرف هل يمكن أن نفسر هذه الفكرة بعبارات شرطية ؟

نحن نعرف أن نوع الدين والاعتبارات الأخلاقية مشروطة بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد ومن الممكن دراسة الطريقة التي تصطدم بها المؤثرات الاجتماعية لدى الطفل عندما يكبر . ولكن المشكلة الرئيسية تظل قائمة . ما هي طبيعة الحاجة التي تبحث عن إشباع وهمي في الدين ؟

وصف فرويد بعض الميكانيكيات الداخلية التي تفسر سلوك الفرد والتي تتحدى تفسيراً بعبارات شرطية مثل ميكانيكيات الإسقاط projection والتبرير rationalisation اللذين شرحناهما في هذا الفصل . فهما يساعداننا على تفهم ما يحدث في حالات التعصب العنصري واللوني ؛ وهما يخرجان إلى النور الكراهية والخوف الكامنين واللذين يسقطان على الأقليات ثم يبرران بحجج عقلية بعد ذلك .

وقد خلق فرويد نظرياته قبل أن تدخل اصطلاحات مسيطرة dominantes ومتغيرات variables ونواتج résultantes في لغة علم النفس . وتعد أفكاره عن الكبت والأنا والأنا الأعلى والأنا الأدنى جزءاً من الأفكار المتسلطة التي بدأ منها عمله . وهي ذات قيمة في تفسير أوجه السلوك الإنساني الذي يبدو بدونها متناقضاً ، وهي تسمح لنا بفهم جزء كبير من النشاط الإنساني .

كان فرويد يأمل أن يأتي اليوم الذي يدعم فيه علم أمراض المجموعة العصبية « النورلوجيا »"neurology" نظرياته وكان شديد الإيمان بالوحدة العلمية . وفي رأيي أن أبحاث بافلوف ساهمت إلى حد كبير في تحقيق هذا الأمل . ولكن هذا لا يمنع أن يكون لعلم النفس نظرياته الخاصة من الممكن أن تزودنا نظرية نوروفسيولوجية Neuro — physisologiquc بمعلومات عن طريقة سير الميكانيكيات الوسيطة للسلوك ولكن خصائص حاجات الإنسان والتعبير عن رضائه أو حرمانه تتطلب لإيضاحها أكثر من دراسة نورولوجية . وأي نظرية Neuro — physiologique نورفسيولوجية لا يمكن أن تفيد إلا كسند لنظرية علم النفس، ولكنها لا يمكن أن تكوّن بمفردها نظرية .

الجـزء الثانى

فرويد وماركس

٥ ـ مجتمعات بدائية

لفرويد وماركس كثير من الأفكار المشتركة عن طبيعة المجتمعات البدائية . كلاهما[١] شيد نظريات تأملية إلى درجة عالية حتى إنه يصعب إذا أخذنا فى الاعتبار صعوبة الموضوع ، دعمها ببراهين مادية . فقد حاول كل منهما أن يستنتج ما حدث للإنسان البدائى الذى انقاد إلى إخضاع نفسه لمحرمات وإقامة حدود لحياته الجنسية .

اتخذ فرويد من إحدى نظريات دارون المتعلقة بطبيعة الجماعات الإنسانية الأولى نقطة البداية لنظريته عن العشيرة البدائية . افترض دارون أن الإنسان « كان يعيش فى الأصل فى جماعات صغيرة ، كل رجل مع امرأة ، أو مع عدة نساء إذا كان قوياً ، يدافع عنهن بغيرة ضد الجميع[٢] . وابتداء من هذه الفكرة فصل فرويد نظريته عن العشيرة البدائية والتى مؤداها أنها كانت تعيش تحت سيطرة رجل قوى يحتفظ لنفسه بجميع النساء ويجبر الشبان على ضبط رغباتهم الجنسية وإلا تعرضوا للخصاء . وقد مكنته هذه النظرية من تفسير النظام المعقد للموانع بين المحارم كما توجد فى المجتمعات البدائية وكذلك أصل التوتمية . وفى كتاب أخاذ ، التوتم والتحريم[٣] Totemet Tabou صور الرابطة بين التوتم المتعلق بحيوان أو نبات احترم على منوال أحد الأسلاف وبين تقنين القيود التوتمية . وكان فرويد يعتقد أن هذا التقنين يعكس القيود التى كان يفرضها الإنسان البدائى على رغباته المحرمة، احتراماً لذكرى الأب .

---

(١) هذا الوجه من أوجه الماركسية كان موضوع دراسة هامة من جانب إنجلز ، زميل ماركس ، دراسة منشورة فى « أصل الأسرة » .

(٢) أصل الإنسان ، الجزء الثانى ص ٦٠٣ . The Origine of man, Vol. II, P. 603

Freud : Totem et Tabou, Payot, No. 77

(٣) التوتم Totem : وهو عبارة عن كائن حيوانى أو نباتى وأحيانا مادى ينظر إليه الرجل البدائى فى احترام وخشوع ويعتقد البدائيون أنهم ينحدرون من ذلك التوتم كما تسمى القبيلة باسمه أى أن التوتم عندهم هو رمز للأب أو الجد وبديل عنه .

والتوتم كما يعرفه فريزر[١] .هو مجموعة من الأشياء المماثلة يكن لها البدائى احتراماً متسماً بالاعتقاد فى الخرافات ، وذلك لإيمانه بأنه توجد بينه وبين كل أشياء التوتم رابطة وثيقة وخاصة . والعلاقة بين الفرد وتوتمه علاقة مباركة متبادلة ، فيحمى التوتم الإنسان ويعبر الإنسان عن احترامه للتوتم بطرق مختلفة : بعدم قتله إذا كان حيواناً أو بعدم قطعه أو جنيه إذا كان نباتاً . والذى يميز التوتم عن التعويذة هو أن التوتم لا يتعلق أبداً بموضوع معزول وإنما دائماً بمجموعة من الأشياء ، عادة يكون نوعاً من الحيوان أو نوعاً من النبات ونادراً ما يكون صنفاً من الأشياء المادية . ويحمل أعضاء الجماعة التوتمية اسم توتمهم ويكونون مقتنعين بأنهم من سلالته . وفى داخل القبيلة الواحدة يمكن أن تتواجد معاً عدة جماعات توتمية ويمنع التنظيم المستمر لقواعد الزواج أعضاء المجموعة التوتمية من الزواج من أشخاص ينتمون إلى نفس التوتم أو من إيجاد علاقات جنسية معهم . ويعتبر هذا مبدأ أساسياً من مبادئ التوتمية . فيتعين على أعضاء التوتم أن يتزوجوا من خارج جماعتهم التوتمية ومخالفة هذه القاعدة معاقب عليها من القبيلة بأجمعها . وكذلك فإن خرق القاعدة التى تحرم قتل أو أكل الحيوان أو النبات التوتمى يعاقب عليه بقسوة برغم أن العقاب فى هذه الحالة ينزل على المخالف تلقائياً . وهكذا فإن الفرد الذى يكتشف أنه أكل بطريق الخطأ حيواناً توتمياً يمكن من جراء ذلك أن يمرض ويموت . ويسرد فرويد المثل الآتى المأخوذ عن فريزر ، لإيضاح مدى قسوة معاملة الأشخاص الذين يخرقون قواعد تحريم الزواج : « فى الحالات النادرة التى تحدث فيها الواقعة التى نتكلم عنها عند قبيلة (تا — تا — هى ، Ta — ta — thi » فى ويلز الجنوبية الجديدة[٢] ، يقتل الرجل ، أما المرأة فتعض وتصوب الرماح على جسمها إلى أن يمتلئ بالجروح حتى تموت أو تكاد ، والعلة التى لا تقتل من أجلها فوراً هى أنها تعرضت للإكراه ، وحتى فيما يتعلق بعلاقات الحب المؤقتة تكون موانع القبيلة مراعاة بدقة حتى إن

---

(١) J.g. Frazer : Totomism and Exogamy, Hogarth Press, 19190.

(٢) Nouvelle. Galles du sud, New South Wales.

إحدى دول الاتحاد الفيدرالى الأسترالى على الشاطئ الشرقى وعاصمتها سيدنى .

أى خرق لهذه الموانع يعد أكثر الأشياء بشاعة ويعاقب عليه بالموت »[١] .

وترفع موانع أكل التوتم وقتله فى فترات معينة فى الاحتفالات المعروفة باسم العيد التوتمى . ويشترك كل الأعضاء فى هذه الاحتفالات ويأكلون قطعة من حيوان الضحية ، مقيمين بذلك جماعة يربطها التوتم . ويصحب مأتم الحيوان أنات عالية ثم يلى المأتم احتفالات ترفع فيها كل قواعد التحريم التوتمية . وبذا تطلق الحرية لكل الرغبات المكبوتة وتسود « روح الإجازة » التى تسمح بكل أنواع الإفراط ويرى فرويد أن هذا يوضح طبيعة الإجازات فى وقتنا الحاضر ، التى يبدو خلالها أن كل القواعد الملزمة فى الحياة العادية تلقى جانباً ، ونسمح فيها لأنفسنا بالإفراط والمغالاة التى تحمل على تقطيب الجبين فى الظروف العادية .

توجد إذن ثلاث خصائص أساسية يحاول فرويد تفسيرها عن طريق نظريته فى العشيرة البدائية . أولا : أن أعضاء التوتم يعدّون أنفسهم من سلالة سلف مشترك . ثانياً : أن العلاقات الجنسية داخل الجماعة التوتمية ممنوعة بشدة . ثالثاً : أن الأعياد التوتمية التى يحتفل بها دورياً تأذن برفع التحريمات وتكون مصحوبة بمظاهرات متناقضة من مآتم وأفراح . ويعطى فرويد التفسير الآتى : كشف لنا التحليل النفسى أن الحيوان التوتمى يقوم مقام الوالد ، وهذا يفسر لنا التناقض الذى أشرنا إليه فيما سبق : من ناحية تحريم قتل الحيوان ومن ناحية أخرى الاحتفال الذى يلى موته ، احتفالا يسبقه تفجر الحزن . هذا الوضع العاطفى المتناقض ، الذى يميز حتى الآن عقدة الأبوة عند أطفالنا والذى يمتد أحياناً إلى حياة البالغين ، ينطبق أيضاً على الحيوان التوتمى الذى يعد بديلا للأب[٢] .

حاول فرويد إيجاد علاقة بين هذا التفسير وفكرة داروين عن العشيرة البدائية عن طريق الفرض الذى قد يبدو ، باعترافه خيالياً ولكنه يتميز بتقديم وحدة لسلسلة من الظواهر التى ظلت معزولة حتى ذلك الحين . فى العائلة الإنسانية البدائية يبعد الذكور الأصغر سناً نتيجة لغيرة الأب . فيتجمع أولئك الصغار لقتله وأكله . وقد كتب فرويد « إن الجد العنيف كان نموذجاً محسوداً ومخيفاً

(١) Freud : Totem et Tabou, p. 13.

(٢) Freud : Totem et Tabou, p. 162.

لكل أعضاء هذه الجماعة الأخوية . غير أنه بواسطة عملية الامتصاص يتجهون إلى تحقيق توحدهم به ويحصل كل منهم على جزء من قوته . والمأدبة التوتمية ، التى ربما كانت أول عيد للإنسانية، كانت تكراراً واحتفالا بذكرى هذا العمل الخالد الإجرامى الذى يعد نقطة البداية لكثير من الأشياء من : تنظيم اجتماعى ، إلى قيود أخلاقية إلى أديان . ولكن بعد قتل الأب بواسطة الأبناء الإخوة تتضح وتتأكد لديهم المشاعر المتناقضة التى كانوا يكنونها له . هذا الأب كان موضع حبهم وإعجابهم أيضاً . وبعد أن يشبع موته مشاعر الضغينة التى كانوا يحملونها له تطغى عليهم مشاعر الحب والإعجاب . وهم يظهرون هذه المشاعر فى شكل ندم فيشعرون بإحساس بالذنب يختلط مع الشعور العام بالتأنيب . ويغدو الميت أكثر قوة مما كان فى أى لحظة فى أثناء حياته ، وهذه أمور لانزال نلحظها حتى يومنا هذا فى الأقدار الإنسانية . فما منعه الأب فيما مضى ، يمنعه الأبناء على أنفسهم فى الحاضر ... وينكرون فعلتهم بتحريم قتل التوتم ، بديل الأب ، ويتنازلون عن جمع ثمرات هذه الأعمال برفض إيجاد علاقات جنسية مع النساء اللاتى حرروهن »[1] .

ومع ذلك فإن إقامة سور ضد فكرة المحارم لم يكن يتم بسهولة ، ذلك أن كل أخ كان منافساً للآخرين . ويفرض فرويد ، أنه خلال مدة ، وجدت علاقات بين المحارم ، إذ أن الميزة الكبرى التى كان يتمتع بها الأب منفرداً قد أصبحت من حق الأبناء . ونلتقى هنا بالأفكار التى عرضها إنجلز فى « أصل الأسرة » الذى يستعمل اصطلاح « زواج الجماعة » ، المأخوذ من كتاب ل . ه . مورجان فى « المجتمع القديم "Ancient Society;" ، ليشير إلى أن جميع نساء الجمـــاعة فى التوتمية ينتمون جنسياً إلى رجال جماعة توتمية مختلفة . وقد أمضى مورجان الجزء الأكبر من حياته بين الهنود الإيروكيين وتبنته قبيلة السنيكا . ويصف عمله الأساسى « المجتمع القديم » تطور المجتمع الإنسانى ، من الوحشية إلى المدنية ماراً بالبربرية . وعلى أثر أبحاثه التى قام بها بين الهنود ودراساته للوثائق التى أتته من العالم أجمع ، انتهى إلى أن نظرية الزواج من خارج القبيلة exogamie

---

(١) Totem et Tabou, p. 163 — 4 — 5

التى يتبناها عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا (علم التاريخ الطبيعى للإنسان) تستند على فهم خاطئ، فالزواج من خارج القبيلة exogamie يصف أشكال الزواج التى كانت تتم عندما كان أعضاء قبيلته مجبرين على البحث عن نساء خارج قبيلتهم فى حين أن الزواج من داخل القبيلة endogamie ينطبق على الزيجات داخل القبيلة . كان سائداً أن هناك شكلين مختلفين تماماً للزواج ، الزواج من خارج القبيلة والزواج من داخل القبيلة . ولكن مورجان أوضح أن التفرقة بين القبائل التى تتزوج من الخارج والقبائل التى تتزوج من الداخل لا أساس لها وأنه فى داخل الجماعات البدائية كانت القبائل مقسمة إلى عدد معين من الطبقات « التزاوجية » classes — matrimoniales وكان على الرجال الذين يكونون « طبقة متزاوجة » أن يختاروا نساءهم من داخل القبيلة ولكن من خارج طبقتهم بحيث إن القبيلة كانت تسمح فى مجموعها بالزواج من داخلها فى حين أن الطبقات كانت لا تسمح بالزواج إلا من خارجها . هذه الطبقات بحكم المنع المطلق للزواج داخلها ، تبدو مقابلة للجماعات التوتمية التى تكلمنا عنها .

ويفترض مورجان وإنجلز أنه فى أقدم شكل لنظام الزواج كان رجال جماعة ما يمارسون حقوقاً زوجية على جميع نساء جماعة أخرى ، بمعنى أن الأعضاء المكونين لجماعة ما لم يكونوا محددين بالاتصال بامرأة واحدة وإنما كانوا يستطيعون الاتصال جنسياً بأى امرأة من الجماعة التى لهم حق الاتصال بها . ويكون هذا « زواج الجماعة » والأطفال من نتاج هذا الزواج كانوا ينادون كل رجل كان من حقه أن تكون له علاقات جنسية بأمهم « بأبى » وينادون كل امرأة من جماعة الأم « بأمى » وكذلك كانوا يتنادون فيما بينهم بأخى وأختى . ومع ذلك فإن أنجلز يعتقد أن هذا الوضع الذى كان لا يقيد الحياة الجنسية بشدة ليس أقدم أشكال العلاقات الجنسية . أو كما يقول « إن جميع أشكال الزواج الجماعى التى نعرفها مصحوبة بشروط معقدة إلى حد كبير حتى إنها تقودنا إلى قبول وجود علاقات جنسية سابقة عليها أكثر بساطة ، نصل فى نهاية تتبعها وتحليلها إلى فترة سحيقة القدم كانت فيها العلاقات الجنسية حرة حرية مطلقة وهى الفترة التى حدث فيها تطور الحيوان نحو الإنسانية »

ويتساءل أنجلز : « ماذا يعنى تعبير علاقات جنسية حرة حرية مطلقة ؟ إنه يعنى أن الموانع الموجودة حالياً لم يكن لها وجود فيما مضى .. حرة حرية مطلقة إلى حد أن الحدود التى فرضها العرف كانت غير موجودة بعد » .

ما هى القيود التى سادت فى الفترة التالية خلال زواج الجماعة ؟ على ما يبدو هذه القيود هى الأسوار ضد زواج المحارم التى كانت أصل تحريم الزواج داخل الجماعة ، فإذا كانت نظرية فرويد فيما يتعلق بأصل التوتمية .. صحيحة أى أن هذه النظم تنبع من قتل الأب — فإن علينا أن نعترف بوجود فترة استراحة بين القتل وبعث منع الاتصال جنسياً بالمحارم ، فترة استراحة يطلق فيها الأبناء المنتصرون العنان لشهواتهم الجنسية . ولذا فإن فرض هذه القيود لم يتم كما لاحظ فرويد بسهولة ، بحيث إننا نستطيع أن نضع جنباً إلى جنب نظرية أنجلز عن « فترة العلاقات الجنسية الحرة حرية مطلقة » ونظرية فرويد المتعلقة بقتل الأب .

ويبدو التشابه بين آراء فرويد وأنجلز أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالشروط الضرورية لتكوين زمرات اجتماعية هامة والتى يقف التنافس بين الذكور عقبة فى طريقها . ويعبر فرويد عن ذلك بقوله : « إذا كان الأبناء متفقين طالما أن الأمر متعلق بقتل الأب ، فإنهم يتحولون إلى متنافسين بمجرد أن يتعلق الأمر بالحصول والسيطرة على النساء ، فيبدى كل منهم ، تشبيهاً بالأب ، إرادة فى الحصول على جميع النساء . وكان الصراع العام الذى يمكن أن ينتج عن ذلك كفيلا بتحطيم المجتمع .. فإذا ما أراد الإخوة أن يعيشوا معاً لم يكن أمامهم إلا طريق واحد عليهم أن يسلكوه : بعد تخطى خلافات خطيرة كان عليهم إقامة قواعد تحريم العلاقات بين المحارم وهى القواعد التى بواسطتها يتنازلون جميعاً عن رغبة تملك النساء محل النزاع » .

أما أنجلز الذى لم يكن فى استطاعته إلا التأمل فى مجال استطاع فيه فرويد أن يشيد بناء مؤسساً على أبحاث أنثروبولوجية أكثر عمقاً ، فقد مهد برغم ذلك بطريقة بارعة لنظرية فرويد عن الكبت ، باعتباره عنصر ثبات فى الحياة الاجتماعية . وقد كتب فى ذلك « إن التسامح المتبادل بين الكائنات الإنسانية ، واختفاء الغيرة ، كانا برغم ذلك الشرط الأول لتكوين جماعات أكثر أهمية ، وأكثر دواماً ، وهى التربة الوحيدة الصالحة لتحقيق تطور الحيوان نحو الإنسانية » .

ويستطرد مشيراً إلى إحدى خصائص الزواج الجماعي ، الذي يكون أول أشكال الزواج من خارج القبيلة ، وهي خاصية اختفاء الغيرة لأن هذا الزواج يتطلب حتماً أن أي امرأة تستطيع الحصول على إشباع جنسي من أي رجل من الجماعة المقابلة : « ولكن ما هو أقدم وأقوى شكل للأسرة وجدفى «التاريخ» ويمكن أن نلاحظه حتى يومنا هذا هنا وهناك ؟ إنه زواج الجماعة ، ذلك الشكل من أشكال الزواج الذي تنتمي فيه جماعات كاملة من الرجال إلى جماعات كاملة من النساء بالتبادل وهو شكل لا يترك أي مكان للغيرة » .

إذن نستطيع بسهولة ربط وجهات نظر إنجلز وفرويد . « فترة العلاقات الجنسية الحرة حرية كاملة » التي يشير إليها الأول ، تجد موازنها في الفترة التي تلي قتل الأب البدائي ، الذي يسمح بالإشباع الكامل للغرائز الجنسية . وعلى حين يذكر إنجلز أن التسامح المتبادل بين الذكور الشبان كان ضرورياً لثبات المجتمع ، يلاحظ فرويد أن على الإخوة حتى يعيشوا معاً أن يقيموا أسواراً في وجه الاتصال بالمحارم . وفي ختام المطاف ، يكون الزواج الجماعي الموازن لأول تجمع توتمي تكون في داخله الغيرة والعداوة المتبادلة ممنوعة ومعاقباً عليها وتكون في خارجه الرغبات الجنسية مباحة .

ولنرجع الآن إلى نظرية الأب البدائي والتي يرجع إليها الفضل في إقامة تأصيل لمجموعة كبيرة من العناصر المتضادة . فقد كان فرويد شاعراً بأنها ذات صبغة تأملية إذ يقول بصددها : « حتى أتجنب أي سوء فهم أعتقد أنه من المفيد أن أذكر صراحة أنني عندما أقيم علاقات ، لا أنسى أبداً الطبيعة المعقدة للظواهر التي يمكن أن تستنتج وأن نيتي الوحيدة هي إضافة عامل جديد يمكن استخلاصه من الأبحاث في التحليل النفسي إلى الأسباب المعروفة أو غير المعترف بها حتى الآن في الدين والأخلاق والمجتمع »[1] .

وهناك اعتراض واجهه فرويد في الكتاب الذي نحن بصدده يبدو لي أنه يجد رداً جزئياً عليه في اكتشافاته التالية للميول النفسية التي تضمها فكرته عن الأنا الأعلى وقد ذكره كما يلي : « إننا نقبل في الواقع أن إحساساً بالمسئولية استمر خلال ملايين

---

(١) Totem et Tabou, p. 180.

السنين ، متنقلاً من جيل إلى جيل ومتصلاً بخطأ قديم موغل فى قدمه حتى إنه فى لحظة معينة لم يستطع الإنسان أن يحتفظ بأقل ذكرى له . إننا نقبل أن عملية عاطفية لم تتولد إلا لدى جيل من الأبناء أسيئت معاملتهم بواسطة الأب ، استطاعت أن تظهر لدى أجيال جديدة لم تقدر لها هذه المعاملة بفضل القضاء على الأب الطاغية »[١] .

إن الصعوبة فيما يتعلق بهذه النظرية تتجلى فى استنادها إلى الاعتقاد فى توارث الصفات المكتسبة ، وفى انتقال نتائج التجارب العاطفية من جيل إلى جيل وأن هذا يناقض النظرية المعترف بها والمقبولة فى التوالد الجنسى . ومع ذلك فإن فرويد بعد أن كتب التوتم والتحريم Totem et Tabou فصل آراءه المتعلقة بالصلات بين الطفل وأبويه حتى إن فكرته عن الأنا الأعلى تلقى أضواء جديدة على الموضوع ويتكون الأنا الأعلى ابتداء من توحدات بالأبوين ، وإدماج الأب الشديد القاسى كما يبدو للطفل فى الشعور . ولكن الموقف القاسى للأب حيال طفله يمليه على الطفل الأنا الأعلى لديه . وهكذا فإن الأنا الأعلى يتصرف كما لو كان حاملاً للتقاليد ، حتى إنه بعد مجموعة من التوحدات يظهر الشعور بالإثم النابع من قتل الأب البدائى ، بعد أجيال من اقتراف الجريمة . وفى الفقه المسيحى مثلا يلعب الشعور بالإثم المنساب من نشاط ثورى ضد الأب (الرب) دوراً أساسياً ويكفر عن هذه الخطيئة بواسطة تضحية الابن الذى يصبح ، بعد التكفير عن جريمته ، شبيهاً بالرب ، مثل أبيه . ففى سر القربان المقدس « سر الأفخارستيا » (الاحتفال التوتمى للمسيحيين) ، يؤكل جسد الابن ، ويتوحد الذين يشتركون فى هذا الاحتفال بالأب بوساطة الابن ، ويشاركونهما قداستهما . ويفترض مذهب الخطيئة الأولى حتماً أن الإحساس بالذنب المتولد عن أول ثورة ضد الرب ، يتنقل من جيل إلى جيل .

وهكذا نرى أن فكرة فرويد عن الأنا الأعلى تعطى لهذا الاحتفال تفسيراً نفسيًا . ورأينا أن نظرية فرويد تبرز الدور الأساسى الذى تلعبه العوامل الجنسية فى التنظيم الاجتماعى . ويبدو — وإن كان أقل وضوحاً وصراحة — أن إنجلز يعترف

---

(١) Ibid : p. 180 — 181

بأساس جنسى للمجتمع ، وهو ما يبدو فى تعليقاته التى تمتدح مورجان « إن الفضل الأكبر لمورجان هو أنه اكتشف وأعاد بعث هذا الأساس الجنسى السابق للتاريخ المكتوب فى خطوطه العريضة ، وأنه عثر ، فى الاجتماعات الجنسية لدى الأمريكيين الشماليين ، على مفتاح يقدم لنا حلاً لأهم ألغاز التاريخ اليونانى والرومانى والألمانى القديم والتى ظلت دون حل حتى يومنا هذا »[1] .

ولكن مع قبول فكرة الأساس الجنسى للتاريخ كان إنجلز يصر على أن التطور المؤسس على الصلات الجنسية ، كان يسمح بالنمو التقدمى لإنتاجية العمل ، حتى إن العلاقات الاقتصادية تتجه لتصبح الخاصية المسيطرة على التنظيم الاجتماعى وهذا لا ينفى الدور الأساسى للعوامل الجنسية ، لأن الطاقة الغريزية المتصلة بهذه العوامل قادرة على التنقل ، أو على التسامى ، أو على أشكال أخرى غير مباشرة من التعبير ، كما رأينا فى الفصل الرابع . فتحول الاهتمام الجنسى إلى ميكانيكية عمل قد أوضحها فرويد فيما يتعلق باللغة ، فاللغة فى بدايتها كانت وسيلة لمناداة الرفيق الجنسى وتحولت إلى إثارة منغمة منتظمة للعمل . وقد كتب فرويد ناقلاً عن أحد علماء اللغة الذى وصل ، عن طريق مستقل عن علم النفس ، إلى نفس النتائج : « إن الأصوات الأولى المنطوق بها استخدمت لنقل أفكار وللنداء على الرفيق الجنسى ، وقد صاحب النمو التالى لجذور اللغة تنظيم العمل فى الإنسانية البدائية . كانت الأعمال تنجز بطريقة مشتركة مصحوبة بكلمات وعبارات منظومة تتكرر . وهكذا انتقل الاهتمام الجنسى لينصب على العمل . كما لو كان الإنسان البدائى لم يلجأ إلى العمل إلا عن طريق جعله موازناً وبديلاً للنشاط الجنسى . لذا فإن الكلمة التى تنساب فى أثناء العمل الجماعى كان لها معنيان ، الأول يعبر عن العمل الجنسى والثانى العمل الإيجابى الشبيه بهذا العمل الجنسى . وشيئاً فشيئاً أخذت الكلمة تنفصل عن معناها الجنسى لتلتصق نهائياً بالعمل »[2] وهكذا تلتقى أفكار إنجلز بأفكار فرويد الذى يرى أن ميكانيكية العمل تقدم مخرجاً للطاقة الجنسية المتنقلة . ولعل دراسة دور الكبت توضح ما سبق .

---

(١) Engels : Der Uroprung der Familie Préface.

(٢) Introduction à la psychanalyse, p 152

للكبت فى تاريخ المجتمع أهمية أساسية . كان كل من إنجلز وفرويد يعتقد أنه عنصر ضرورى لتوفير الثبات للمجتمع . وقد كتب فرويد : « نعتقد أن الثقافة خلقت تحت دفع ضرورات حيوية على حساب إشباع الغرائز » . ولكن كبت غريزة يخلق الحاجة إلى شكل واع من أشكال النشاط يسمح لها بالتعبير عن نفسها دون إشاعة الاضطراب فى التنظيم الاجتماعى . كلما ازداد خضوع مجتمع للجنس قل وضوح الحاجة إلى نقل التعبير عن الغرائز الجنسية لأن هذه الغرائز وإشباعها لا تصدم قواعد الضمير . وقد قابل إنجلز بين نمو ميكانيكية العمل ونهاية الخضوع للجنس ، وطبيعى أنه عندما كان يتكلم عن الجنس كان يقصد التعبيرات الشعورية ، الظاهرة للحياة الجنسية ، لا الغرائز الشعورية الكامنة "sous — jacents" وقد رأينا أن هذه التعبيرات ، مثل مذاهب الزواج ، هى مظاهرات واعية ، دخلت فى إطار اجتماعى آذنة للرغبات المكبوتة بالحصول على إشباع . وتتنازل فى رأى إنجلز « العلاقات الجنسية الحرة حرية مطلقة » التى كانت تميز الأشكال الاجتماعية القديمة للإنسانية ، عن مكانها عن طريق خلق الزواج والمجتمع لمظاهرات وأشكال أكثر تحديداً . ويمر بذلك المجتمع من التنظيم الاجتماعى الذى كانت تسيطر فيه الغريزة الجنسية إلى تنظيم مختلف تسيطر فيه ميكانيكية العمل . وبعبارة أخرى يصبح الإنسان عاملاً عندما يكون قد كبت أطماعه الجنسية ، لأن العمل يفترض تعاوناً اجتماعياً لا يمكن وجوده دون وجود هذا الكبت . وقد رأينا أن الكبت أساساً لتوفير الثبات للعلاقات الإنسانية فى المجتمع ، ولكن النقطة المهمة ، عند أخذ هذا العنصر فى الاعتبار (عنصر الكبت) ، هو أنه تدخل تحت ضغط الأحداث الخارجية . ويرى فرويد ، وهو يحلق متأملاً فى أصل الكبت ، أن الفترة الجليدية Période glaciaire من الممكن أن تكون قد أثارته بإجبار الكائنات الحية على العيش فى أراض أصغر عن طريق جعل زجر المخالفات ضرورياً فى قلب العشيرة ، بهدف شحذ قتال عنيف بين العشائر المتنافسة لامتلاك الأرض . وهكذا اتجهت الخلافات الداخلية فى جماعة واحدة إلى خلافات مع جماعات أخرى لضرورات اقتصادية بحتة .

ويعبر فرويد بطريقة أكثر وضوحاً عن فكرة أن الكبت هو رد فعل ضد صعوبات اجتماعية واقتصادية عندما يقول : « إن الأساس الذى يرتكز عليه

المجتمع الإنسانى هو فى النهاية من طبيعة اقتصادية : ذلك أن المجتمع أمام عجزه عن تقديم وسائل العيش لأعضائه دون عمل، يجد نفسه ملزماً بالحد من عدد أعضائه وتحويل طاقتهم من النشاط الجنسى إلى العمل . ونحن هنا أمام الحاجة الحيوية الأبدية ، التى ولدت مع الإنسان وما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه »[1] .

نستطيع أن نقول إن نظريات فرويد وماركس عن السلف البدائى للإنسان تأملية إلى درجة يصعب معها الاعتراف لها بقيمة علمية . وفى الواقع تتعرض هذه النظريات لانتقادات قاسية من جانب عدد من الأنثروبولوجيين. وهى تقترب فى هذا من نظريات هوبز وروسو ولوك عن أصل الإنسانية : تأملات تثير الاهتمام بسبب قيمتها التفسيرية . وبرغم ذلك فإننى أعتقد أن قيمتها تتضح أكثر إذا نظرنا إليها باعتبارها محاولات لإكمال النقص فى معرفتنا بنوع إنسانى سابق ، لا باعتبارها مكملة لنقص معرفتنا للإنسان . إذا كان لنظرية التحول La théorie trans formis te معنى فهو فى ضرورة الاعتراف بأن الإنسان له سلف هو ما قبل الإنسان .

إن إحدى الصفات التى يتمتع بها الإنسان دون غيره هى قدرته على التنبؤ سلفاً ، واستطاعته التنازل عن إشباع غريزى مباشر لفائدة مستقبلة وإن كان هذا أمراً صعباً حتى على إنسان اليوم فلاشك أنه كان شديد الصعوبة على أسلاف ما قبل الإنسانية الذين كانوا خاضعين لغرائز ملحة تطلب إشباعاً مباشراً وغير مزودين بميكانيكية تحكم فعالة . كل ما نستطيع أن نخمنه هو العملية التى استطاع بها الإنسان تشييد نظم اجتماعية واقعية تسمح له بتحديد حياته الجنسية والتحكم فيها ، وأن نكون على يقين من أن هناك مرحلة ضرورية خلال التطور من الحيوان إلى الإنسان . ولعل ما يجعلنا نقتنع بنظريات فرويد وماركس هو أنها تعكس على المستوى التاريخى ما نلاحظه لدى الطفل الذى يكبر ويتحول إلى كائن اجتماعى ، يتدرب على السيطرة على غرائزه وعلى تحديد احتياجاته ليندمج فى المحيط الاجتماعى ، ويتعلم التنازل عن بعض طموحه الشخصى الذى يهدد الأهداف الاجتماعية . ولعل الفضل الأكبر للتصوير الفرويدى والماركسى هو أنه يعطينا لمحة للمحاولات والصعوبات لطفولتنا الأولى : طفولة الإنسان الفرد وطفولة الإنسانية .

(١) Freud : Introduction à la Psychanalyse.

٦ ـ الدين والأخلاق

الفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا الكتاب هو أن الماركسية والتحليل النفسى يكونان محاولتين متكاملتين لدراسة الطبيعة الإنسانية ، وبينما يرتكز التحليل النفسى على العناصر الشخصية والحاجات والقوى التى تدفع الإنسان إلى النشاط ، تهتم الماركسية بالمركز الاجتماعى الخارجى الذى يعبر هذا النشاط من خلاله عن نفسه . وهذا الفصل يدرس هذا التكامل من وجهة نظر الدين والأخلاق ، ولعل التكامل بين الماركسية والتحليل النفسى لا يظهر فى أى مجال من المجالات الأخرى بقدر ما يظهر فى موضوعنا هذا .

وأود بادئ ذى بدء أن أحدد نقطة . إن أى محاولة لوصف وتصوير العوامل النفسية والاجتماعية التى تحيط بالفكر الدينى لا يمكن أن تعيننا على معرفة ما إذا كانت التأكيدات الدينية المتعلقة بالله ، وبالخلق ، وبالحياة الآخرة .... إلخ .... صحيحة أم خاطئة . وبعبارات أخرى ، إن شرح أسانيد عقيدة معينة وتفسيرها لا يفيدنا فى بيان صحة أساسها وسلامته . لا اعتراض لى على هذا كله . وسنكتفى هنا بمعالجة الوجه الاجتماعى والنفسى للدين . ربما وجدت حقائق دينية معينة ومناهج خاصة لإيضاحها لكن هذا يخرج عن نطاق بحثنا . فموضوع بحثنا هو دراسة الأسباب التى من أجلها يعتنق بعض الأشخاص ديانات معينة والصلة بين هذه المعتقدات والمحيط العام للحياة الاجتماعية .

عند ما يعيش عدد كبير من الأشخاص ويعملون معاً خاصة فى ظروف تكون فيها المفارقات فى الامتيازات والطبقات مصدر طاقة للتوتر ، يصبح من الضرورى العثور على وسائل لتحديد علاقاتهم . وهذه الوسائل يمكن أن تقوم بدور التحديد هذا ؛ إما بواسطة القوة أى عن طريق الممارسة الحكومية للسلطة ، وإما بالتربية واتباع وسائل إقناع لقيادة هؤلاء الأشخاص إلى قبول بعض قواعد السلوك باعتبارها طبيعية ولا يمكن مناقشتها . ويعتبر الدين إلى حد كبير وسيلة

لتحقيق هذه الوحدة فى السلوك الاجتماعى .

وهو يصل إلى هذه النتيجة عن طريق إقامة بعض قواعد السلوك ، وبعض الأفكار عما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون ، ويتأكد من مراعاتها عن طريق تعزيم جزاء ينزل من عل ، من مستوى فوق إنسانى . وبعبارة أخرى تحصل الأديان على آثارها الاجتماعية الهامة بقولها « يجب أن تتصرفوا على نحو معين لأن هذه هى إرادة الله . فإن أطعتم فستكافأون فيما بعد وإلا فإن عقاباً شديداً ينتظركم » . ويبدو أن هذا هو الدور الاجتماعى الأساسى للدين : فرض الرضا بقواعد سلوك باسم عقاب ينزل من قوة فوق البشر .

وتتوقف الآثار الاجتماعية للدين على أهمية بعض الخصائص النفسية لدى الإنسان . ويأتى فى مقدمة هذه الخصائص الاستعداد للتساؤل عن معنى الوجود الإنسانى وعن طبيعة الحياة وهدفها . وهذه التساؤلات لا توضع بطريقة محددة ونادراً ما تتعدى القلق الغامض فيما يتعلق بوضع الإنسان ، ولكن هذه المكنة ، مكنة التفكير والشعور بهذه المشاكل تبدو مقصورة على الجنس البشرى ، ويعطيها الدين نوعا من الإجابة وتقدم العلوم والفلسفة إجابات أخرى .

لا يكفى أن نقول إن الدين يعطى إجابات للأسئلة المتعلقة بالمصير الإنسانى إذ أن النقطة الهامة هى معرفة السبب الذى من أجله يحتاج كثير من الناس إلى إجابات خاصة يقدمها لهم الدين تحت شكل إله وخلق وسماء وجحيم ؟ وفهم السبب الذى من أجله تسمح هذه الإجابات للدين بأن يلعب دوره فى التحكم فى العلاقات الإنسانية ، بمساهمته فى التقليل من التوترات الاجتماعية ؟ تنيرنا النظرية الفرويدية على وجه الخصوص فيما يتعلق بالسؤال الأول وترشدنا الماركسية بالنسبة للسؤال الثانى .

كان ماركس يعد الدين فى الأصل انعكاساً فى عقل الإنسان لعلو القوى الطبيعية . كان الإنسان البدائى الذى عليه أن يواجه مخاطر الطبيعة يفترض وجود قوى فوق طبيعته مسئولة عن تقلبات الحياة . وكان يسعى إلى استرضاء هذه القوى بمساعدة القرابين والصلوات ، يتصور أن هذه القوى كائنات قادرة على التأثير فى حياته تأثيراً طيباً أو تأثيراً سيئاً .

وقد تعدلت الفكرة عن الدين مع تطور المعرفة وتعاظم الانتصارات العلمية التى حققها الإنسان والتى أدت إلى انحسار الذعر الذى كانت توحى به الطبيعة . فالتهديد الأساسى لأمن الإنسان أصبح إذاً نابعاً من القوى الاجتماعية ، وحل محل العجز الذى كان يستشعره الإنسان فى مواجهة القوى الطبيعية عجز فى مواجهة القوى الاقتصادية والاجتماعية التى لا تخضع بدورها لرقابته وتحكمه .ويعبر إنجلز عن هذه الفكرة بالطريقة الآتية « كل دين ما هو إلا انعكاس خيالى فى عقل الإنسان للقوى الخارجية التى تسيطر على وجوده اليومى ، انعكاس تأخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق أرضية ... ولكن سرعان ما تدخل قوى اجتماعية إلى جانب القوى الطبيعية لتقف فى وجه الإنسان وتبدو بنفس الغرابة ونفس الغموض وتسيطر بنفس الضرورة التى تبدو بها سيطرة قوى الطبيعة نفسها . ومن هنا تجد الشخصيات الخيالية التى لم تكن تعكس فى البداية إلا قوى الطبيعة الغامضة ، تجد سنداً اجتماعياً فتصبح ممثلة لقوى تاريخية .... رأينا فى مناسبات عديدة كيف أن الإنسان فى المجتمع البورجوازى المعاصر خاضع لعلاقات اقتصادية من خلق الإنسان نفسه ، ولوسائل إنتاج ناتجة بدورها عن الإنسان كما لوكانت نابعة عن قوة غريبة. فالأساس الواقعى للنشاط الانعكاسى الدينى موجود إذن ، ومعه الانعكاس الدينى نفسه » .

فالنظرية الماركسية ترى إذن أصل الدين فى الخاصية المسيطرة للحقيقة الخارجية ، حقيقة كانت تعكس فى البداية القوى الطبيعية ثم بالتدريج القوى الاجتماعية التى يشعر الإنسان وهو أمامها بأنه ضعيف أعزل عاجز . ولكننا نستشعر الحاجة إلى تفسير مكمل لغموض وتركيز هذا الفكر الدينى ، لماذا مثلا يتجه الإنسان عندما يحس بعجزه إلى تشخيص القوى الخارجية ثم إلى محاولة استجداء مساعدة الآلهة أو الإله عن طريق الصلوات والطقوس ؟ يبدو أن التفكير الماركسى يتطرف عند التشديد على الطابع الانعكاسى للدين وتجاهل النشاط النفسى الذى يبدو مقصوراً على الإنسان إذا لم يكن لدى الإنسان مبدأ إيجابى ، وإذا لم تكن حياته النفسية سوى انعكاس سلبى للعالم ، فما أمكننا تصور قدرته على إكمال ضعفه أمام قوى الطبيعة والقوى الاجتماعية بواسطة خلق الدين . لذا يبدو لنا أن دراسة العوامل الذاتية التى تحدد الطابع الدينى ضرورية حتى نستطيع إتمام هذا الوصف للقوى

الخارجية التى تسوق الإنسان إلى طلب مساعدتها . وهو ما تحاول نظرية فرويد القيام به .

يميز فرويد ثلاثة عوامل مشتركة بين الأديان . أولا : يحتوى الدين على تصوير لأصل العالم وهو تصوير مشتق من وصف مولده . ثانيا : اتجاهه إلى مواساة الإنسان عن متاعب هذه الحياة بمنحه تأمينا يتمثل فى حياة أفضل فى المستقبل . ثالثا : يقدم قواعد للحياة يستحق من يراعيها المكافأة فى الحياة الآخرة . ويسأل فرويد كيف يعمل الدين للتوفيق بين هذه الخصائص الثلاث ؟

يصف فرويد الصلة بين نظريتى خلق العالم وتصوير الإنسان لمولده على النحو التالى :

« يروى المفكرون أن العالم قد خلق بواسطة كائن يشبه الإنسان ، ولكن يفوقه فى كل شىء فى القوة وفى الحكمة وفى العاطفة ... كائن أعلى من البشر أسبغت عليه كل الصفات المثالية ... ومن الطريف أن نذكر أنه ، عندما يتعين الاعتقاد بوجود عدة آلهة ، يظل خلق العالم منسوباً إلى إله واحد وأن هذا الإله الخالق غالباً ما يكون رجلا برغم الإشارة إلى مقدسات نسائية وكثير من الأديان تجعل بدء خلق العالم انتصار الإله على قوة نسائية ينزل بها إلى مستوى الوحش . ويسهل بقية تحقيقنا أن الإله الخالق يسمى دون مواراة الأب ، ويستنتج التحليل النفسى من ذلك أن الأمر فى الواقع يتعلق بأب قوى قادر يهيمن كما كان يبدو فيما مضى لطفل صغير ، ويتخيل المؤمن خلق العالم على الصورة التى تم بها مولده هو ذاته » .

نستطيع أن نوفق بين الآراء الماركسية والآراء الفرويدية فى الدين على النحو الآتى : العجز الذى يقود إلى الدين فى الفكر الماركسى يخلق الحاجة إلى الحماية والتوجيه لمواجهة صعوبات العالم الخارجى . هذا العجز إن هو إلا تكرار لتبعية الطفل لوالده فى رأى النظرية الفرويدية ، هذا الوالد الذى كان يحمل تبعة التوجيه والحماية اللذين كان الطفل فى حاجة إليهما . ومن الطبيعى ألا يرى البالغ أباه بنفس الصورة التى كان يراه بها أيام كان طفلاً ، فقد اكتشف أن والده تحت نير حدود ونقائص الجنس البشرى . وللبحث عن الحماية لا يستطيع أن يتجه إلى والد يعيش على هذا الكوكب الأرضى . وبرغم ذلك فهو لايزال يحتفظ فى الأدعية بصورة الأب التى رسمها أيام طفولته ، الأب القادر الذى كان يعاقب ويكافىء من يطيع أوامره ومبادئه وأنه ليتجه إلى هذه الصورة ليحمى نفسه ويبحث لنفسه عن

الراحة عندما يهدده الواقع . ويتم إسقاط هذه الصورة للأب القوى المقتدر على العالم الخارجى ، وتستخدم باعتبارها حامياً . وهكذا يستعيد المؤمن بطريقة مبالغ فيها ، المواقف التى كان يتخذها نحو أبيه عندما كان طفلاً . الإله السماوى مقتدر لا تخفى عليه خافية ، وهو قاس ومع ذلك فهو يشيع محبة ورحمة . إذن فنحن نراعى فى الدين الدور الهام الذى يقوم به الأنا الأعلى الذى يتوحد بالقوى الخارجية التى تحكم حياة الإنسان . فالانعكاس الخيالى فى مخ الإنسان لهذه القوى ، كما يقول إنجلز يقود الإنسان إلى إسقاط الأنا الأعلى ثم يلجأ إليه طالباً الحماية .

ترجع أهمية هذه المحاولة الفرويدية — الماركسية إلى قدرتها التفسيرية وتعلمنا الملاحظة أن الناس يبحثون خاصة عند الضيق أو القلق ، عن الراحة والحماية لدى كائن مقتدر . ونستطيع أن نفهم لماذا تلجأ الأديان عادة إلى عبارات تذكرنا بعلاقة الطفل بأبيه ، لماذا يقدم الإله أحياناً كما لو كان أباً ودوداً رحيماً وأحياناً كشخص مطلق مهيمن ، يمكن أن يتملكه الغضب (المنتقم — الجبار — المذل — القهار) . لأن هذه هى الصفات التى ينسبها الطفل الصغير لأبيه ، الأب الذى يكون أحياناً محباً متسامحاً ويتشدد أحياناً أخرى فى طلب طاعة مطلقة غير مشروطة « افعل هذا لأنى أمرتك به » .

كان فرويد يشبه الدين بعصاب يجتازه الإنسان خلال تطوره : « فهو يكون محاولة للسيطرة على العالم الواقعى الذى نعيش فيه بمساعدة عالم مثالى ولكنها محاولة لا يمكن أن يقدر لها النجاح . هذا الفهم يحمل علامة الحقبة التى خرجت منها طفولة الإنسانية المصبوغة بالجهل .. والمكافآت التى يعد بها هذا العالم غير جديرة بالثقة ، فالتجربة تعلمنا أن العالم ليس جنة للأطفال » .

وبنفس الروح البلاغية يعبر ماركس عن أفكاره فيما يتعلق بالآمال التى تخلقها الأديان فى القلوب : « الدين هو التنهد ، تنهد كائن محمل بالمشاغل ، إنه قلب عالم بلا قلب ، إنه روح ظروف حياة معينة ولكن هذه الحياة مجردة من هذه الظروف ، إنه أفيون الشعب . إن إلغاء الدين الذى هو سعادة وهمية للشعب ، لهو الشرط الأول لتحقيق سعادته » .

لقد بدأت قائلاً إن بحث الخصائص النفسية والاجتماعية للدين لا تفترض

سبق الحكم على وجود حقائق دينية . وكثير من الأشخاص الذين يميلون إلى قبول جزء كبير من التحليل الفرويدى – الماركسى السابق المتعلق بالجانب النفسى – الاجتماعى للدين يمكن مع ذلك أن يحتجوا على هذا التحليل لأنه يتجاهل بعض الصفات الأساسية . ربما يشبع الدين الحاجات روحانية معينة تنبع من طبيعتنا ويقودنا إلى الحقيقة المتعلقة بالله وعلاقاتنا به . ربما كان صحيحاً أننا نميل إلى أن نسقط على الله مواقف ومخاوف وعواطف كنا نستشعرها نحو أب طفولتنا ولكن هذا ليس كل شيء . إن عقيدتنا فى وجود الله ، مصدر وسند وجودنا ، لا تعتمد فقط على هذه الإسقاطات . إن التجربة الدينية تحوى كشفاً لحقائق لا يستطيع أى تحليل فرويدى – ماركسى أن يمحوها .

وأستطيع أن أرد على هؤلاء الأشخاص بأن قولهم ربما كان صحيحاً ، ولكن حتى يومنا هذا لا يوجد أى تكنيك – منطقى أو فلسفى أو علمى – يستطيع أن يقدم لنا وسيلة للتمييز بين الحلم والواقع فى هذا المجال . ولعل الإلحاح فى ضرورة حيازة هذه الحقيقة الخاصة التى نسميها الحقيقة الدينية ، تهم العالم النفسانى أكثر مما تهم العالم الأجتماعى الذى يذهب إلى أنه لا يستطيع أن يُقيِّم أساس هذه الإلحاحات ، فهو يهتم من الناحية النفسية بكون المؤمن لا يميل إلا إلى احترام معتقداته ، ويعد معتقدات من لا ينتمى إلى دينه وهمية نتاج الجهل والخلط . وإننى أرى العالم النفسانى قادراً على فحص هذه المسألة المتعلقة بالمعتقدات المتصارعة . فالمحلل النفسى الفرويدى مثلاً سيميل إلى تفسير هذه الطبيعة المتشددة فيما يتعلق باليقين الدينى بنسبتها إلى الآثار المشتركة لمتطلبات الأنا الأدنى والأنا الأعلى ، لأن طبيعة الأنا الأدنى هى كونه متشدداً ومطلقاً فى حين أن طبيعة الأنا الأعلى هى منح السلطة لهيئة لا يمكن سحبها منها أبداً .

إذن آراء فرويد وماركس فى الدين شديدة التقارب ، تنسبه إلى الطفولة : طفولة الإنسان الفرد وطفولة الجنس البشرى .

وسنقوم بدراسة نظريات كل من فرويد وماركس بالنسبة للأخلاق وقواعدها .

لا تبتعد وجهة نظر فرويد هنا عن وجهة نظره فيما يتعلق بالدين لأن فرويد يعلق ويربط الأوامر الأخلاقية والتزامات الضمير والأفكار عن الخير والشر بالأنا

الأعلى « فنواهى وأوامر الآباء تبقى مع البالغ وتكون ضميره الأخلاقى » يريد فرويد بهذا أن يقول إن اكتساب الأفكار الأخلاقية عند الفرد يتم بواسطة نظام المكافآت والعقوبات . فالطفل يتعلم ربط الخير بالشيء الذى يرتضيه الوالدان، والشر بالشيء الذى يستنكرانه ويتجسم فى عقل الفرد توجيه الآباء وسلطتهم التى تعمل فى البداية كمؤثرات خارجية على طريقة تصرف الطفل تتجسم لتصبح نوعاً من الرقابة الأخلاقية. والآباء أنفسهم يعكسون فى نواهيهم ضغوط المجتمع فينقلون إلى أبنائهم طرق تفكير مجتمعهم مع ربطها بقيمة عاطفية إلى حد أن ما لا يسمح به المجتمع يرتبط لدى الطفل بالخوف من فقدان حب الأبوين .

وعلى العكس ترى الماركسية المشكلة الأخلاقية ابتداء من هذا التفكير الاجتماعى حيث إن المجتمع مقسم إلى طبقات ، فهى ترتكز على الدور الذى تلعبه المصلحة الطبقية فى تحديد أشكال التفكير . هذا التركيز من جانب الماركسية على الدور الذى تلعبه المصالح الطبقية فى تطور الفكر الأخلاقى كان نقطة البداية ، فى تصور خاطئ للأخلاق الماركسية . إذ أن هناك فكرة ذائعة مؤداها أن الماركسية ترفض كل الأفكار الأخلاقية ، التى كانت تعكس مصلحة هذه الطبقة أو تلك ، وأن الذى يخدم مصلحة طبقة يعد « طيبا » بالنسبة لأعضائها ، والذى يعوق مصالحها يعد « سيئاً » وهذا هو المعنى الوحيد « للطيب » و « السيء » .

هذا الرأى يظهر كثيراً فى كتابات إنجلز وماركس لأن كتاباتهما عن الأخلاق تميل إلى التلميح أكثر من ميلها إلى التصريح ولكن لتقدير عمل أى مفكر من الضرورى أن ندرك ما وراء أفكاره ، وأن ندرس، على ضوء المعنى العام، الفقرات التى تبدو غامضة مبهمة . ومن الممكن دائماً أن نأخذ كأساس للتفسير وشرح أى مؤلف فى مجموعه فقرة من هنا وأخرى من هناك ، وأن نبدأ نقاشاً مشوهاً . ومن ناحية أخرى إذا بذلنا مجهوداً لربط الأخلاق الماركسية بالنظرية الماركسية العامة عن طبيعة المجتمع ، يصبح واضحاً أنها لا تؤدى بالضرورة إلى النسبية الاجتماعية التى أوضحناها فيما تقدم .

من الضرورى أن ندرك تمييزاً بين المعنى العام والمعنى الخاص للأخلاق بالنسبة للأخلاق الماركسية .

ترتبط الأخلاق الماركسية ، بنظرة شاملة لطبيعة المجتمع ، وهى نظرة تشبه كثيراً الأخلاق عند أرسطو . كان أرسطو يرى فى دولة المدينة « Polis »[١] طريقة للحياة الطبيعية للإنسان لأنها تقدم له الوسائل التى كان يستطيع بواسطتها إنماء الخصائص التى تميز الجنس البشرى . كان أرسطو يقول : إن الإنسان الذى يعيش خارج المجتمع إما حيوان أو إله . ولعل ماركس لم يكن ليعارض هذه الجملة خاصة فى شقها الأول .

إذا وضعنا سؤال أرسطوطاليس – ما هى وظيفة المجتمع ؟ وما هدفه ؟ نجد أن الإجابة التى يعطيها ماركس مفتاح لنظريته فى الأخلاق العامة . عند ماركس يعد المجتمع بالنسبة للإنسان نظاماً يجب أن يتيح له الحصول على وسائل المعيشة ، والوصول إلى التحرر من سيطرة القوى الطبيعية . فعند ماركس كما هو الحال عند أرسطو المجتمع هو الوسيلة التى بواسطتها يستطيع الإنسان إنماء ما لديه من الإنسانية ، هنا تكمن عظمة المجتمع ودوره الإيجابى . المعنى الأرسطوطاليسى لوظيفة شيء هو الإفصاح عن خصائصه الذاتية ، والقيام بنشاط خاص به . وكما نستطيع أن نقارن الأشياء ، نستطيع أن نشيد تدرجاً بين المجتمعات على أساس فائدتها ، نستطيع أن نقول إن قلما أحسن من آخر لأنه يكتب بطريقة أكثر دقة ويحتوى على حبر أكثر إلخ .... ونستطيع أن نسطر لوحة القلم المثالى بتعداد الصفات المرغوبة فى قلم . بالمثل نستطيع أن نقول إن مجتمعاً أفضل من آخر كلما اقترب من المجتمع المثالى . ويتبدى لنا هذا المجتمع المثالى فى النظرية الماركسية عندما يتكلم ماركس عن اليوم الذى يحل فيه التعاون محل الصراع بين الطبقات ، اليوم الذى يلغى فيه « الأفق الضيق للقانون البورجوازى » ويكتب المجتمع على لوائحه « من إلى كل حسب إمكانياته » نحو « لكل حسب حاجاته » .

تبدو فكرة ماركس أن ما هو طيب بالنسبة للإنسان يتحقق فى مجتمع دون طبقات مؤسس على مستوى مرتفع للإنتاج ، تبدو هذه الفكرة مختلفة عن المثل

---

(١) يستخدم أرسطو لفظ Polis أى مدينة بمعنى المجتمع من الناس الذين تنظمهم أوضاع تدبر شئونهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض فى كل المجالات ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Politico أى سياسة أمور الناس (انظر أرسطو : الأخلاق إلى نيقوماخوس . ترجمة أحمد لطفى السيد) .

الأعلى السياسي لأرسطو والذى وصفه الأستاذ « تيلور » كما لو كان المثل الأعلى لأرستقراطية قليلة العدد ولكنها تمتلك أوقات فراغ ومستوى عالياً من الثقافة ، هذه الأرستقراطية التى لا تمتلك ثروة هائلة ولا تتميز بطريقة ملحوظة بغنى مادى ، وقد تحررت تماماً من روح المقامرة والمخاطرة تعمل بهدوء على ارتقاء العلوم والفنون على حين تقوم طبقة من العمال على توفير حاجاتها المادية . هذه الطبقة العاملة لا تتمتع بالحقوق المدنية ، تعامل بلطف ولكنها تظل دون مستقبل . ومع أن ماركس كان يكن لأرسطو إعجاباً شديداً ويعده أعظم فلاسفة الحضارة القديمة ، إلا أنه كان أول من يعترف بأن فكرة أرسطوطاليس يجب أن ينظر إليها من زاوية الظروف التاريخية التى كان يعيش فيها وليس على ضوء ظروف الوجود المعاصرة .

كان ماركس لا يشغل باله بتعريف ما هو خير للإنسان بقدر انشغاله بكيفية تحقيق السعادة فى المجتمع . وبعبارة أخرى الذى كان يهمه هو تحقيق الظروف المواتية التى تمكن الإنسان من الوصول إلى السعادة ، أكثر من اهتمامه بالخصائص المجردة لحالة السعادة . كان يرى فى البداية السعادة فى اختفاء عبودية الإنسان للقوى الطبيعية والاقتصادية ، وفى إيقاف الظروف التى يعد الإنسان فيها نفسه ؛ على حد تعبير « كانت » وسيلة لا غاية . ولكنه ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه « كانت » ، أوضح أن واقعة معاملة الآدميين كوسائل أكثر منهم غاية كانت نتيجة ظروف اقتصادية تغصب البعض على استخدام آخرين كما لو كانوا وسيلة لزيادة ثرواتهم وتأكيد سلطاتهم وامتيازاتهم . كان ماركس يذكر الضرورة الملحة للعمل على القضاء على كل الظروف التى كان الإنسان فيها كائناً مهملاً ، متدهوراً ، ذليلاً ، ومحتقراً .

فى ضوء هذه الفكرة العامة التى ترى سعادة الإنسان فى تحطيم الظروف الطبيعية والاقتصادية التى تكبل حياته ، يجب أن تكون دراستنا للفكرة الخاصة للنظرية الماركسية التى تربط الأخلاق بطبيعة طبقات المجتمع وقد عبر إنجلز عن هذه الفكرة بالطريقة الآتية « إننا نرفض كل محاولة لفرض أى مبدأ أخلاقى علينا ، تكون بمثابة قانون أبدى . يتجدد بطريقة أزلية غير قابلة للتعديل ... وإننا لنتفق على أن كل الأخلاقيات السابقة مشتقة فى آخر المطاف من المستوى الاقتصادى الذى بلغه مجتمع فى عصر معين . ولما كان المجتمع قد نما حتى الآن تبعاً لتناقض

الطبقات ، فإن الأخلاق ليست إلا أخلاق طبقة » وعندما يصل إنجلز إلى هذه النقطة يلفت الانتباه إلى الوجه العقائدى (الأيديولوجى) للأخلاق ، واقعة أن الأخلاق يمكن استخدامها لحماية المصالح الخاصة وتبريرها لطبقة ما . ويؤيد فكرة أنه طالما كان المجتمع مقسماً إلى طبقة تحكم وطبقة محكومة فإن تطبيق قواعد الأخلاق يتجه إلى الاكتفاء بحماية طبقة أو إلى الإثقال على كاهل أجزاء معينة من المجتمع . فى مجتمعنا المعاصر ، مثلا سواء تعلق الأمر بغنى أو فقير ، تعتبر سرقة الطعام شراً ، ومع ذلك إذا أخذت الظروف الاقتصادية التى يعيش فيها الرجل الغنى فى الاعتبار فإن القاعدة الأخلاقية « لا تسرق » لا تنطبق عليه إلا بطريقة شكلية .

تفترض فكرة الأخلاق العالمية فى تطبيقها ، ويصوغ الفلاسفة عامة قواعد أخلاقية عالمية . ولكن هذه القواعد تظل ، فى تصور الماركسية ، صيغاً مجردة وخاوية مادامت الظروف المادية الضرورية لتطبيقها عالمياً غير مواتية .

لذا تدعو الماركسية إلى وضع أخلاق يرى سعادة الإنسان فى تحريره تدريجياً من المصادفات المادية والاجتماعية التى تحد من نموه . وينهض ماركس، باعتباره داعية للأخلاق، ضد استغلال الإنسان للإنسان . أما باعتباره مفكراً علمياً فإنه يحاول تجاهل الاهتمامات الأخلاقية ،فى تحليله للمجتمع ، ولكن وجهة نظره الأخلاقية تنفذ من حين إلى آخر ، وهو ما قاله شومبيتر Schumpeter « إن برودة النظرية الاقتصادية تحيطها فى صفحات ماركس ثروة من الجمل التى تفيض بالعواطف فتكسبها حرارة ليست من طبيعتها » ويحذرنا من أن تقودنا هذه الجمل إلى هز أكتافنا عندما يطلب ماركس الحق فى أن ينظر إليه باعتباره محللاً بالمعنى العلمى للكلمة لأن هذه الجمل لا تصادر فى شىء طبيعة التحليل .

إن العجز عن تفهم المتطلبات الأخلاقية الماركسية هو المسئول عن هذه الشروح الخاطئة للموقف الماركسى . ونجد مثالاً على ذلك فى انتقاد الأستاذ ك . ر . بوپر[1] للماركسية ، عندما يصف الماركسية بأنها تتسم بنسبية أخلاقية : « المبدأ الأخلاقى الذى تعتمد عليه الماركسية ، يمكن تلخيصه فى الشعار : « تبنوا

(١) K. R. Popper : The Open Society and isits enemies vol. 2. , p. 191 — 192.

أخلاق المستقبل» . » يتصور بوپر أن ماركس يقول لنفسه : «إننى أرى أن البورجوازية مصيرها الفناء وأن البروليتاريا ومعها أخلاق جديدة ستنتصر عليها، أرى أن هذا التطور لا يمكن تجنبه . ومن الجنون أن نقاومه ، تماماً كالجنون الذى يمكن أن نصاب به إذا ما ذهبنا إلى عكس قانون الجاذبية الأرضية . لذا فإن اختيارى الأساسى يكون فى صالح البروليتاريا وأخلاقها . هذا القرار يرتكز على تنبؤ علمى وتاريخى » .

وبعبارة أخرى فإن ماركس اختار الاشتراكية لا لشىء إلا لأنه كان يرى أنها جزء من مستقبل ممكن التحقيق. ومن المعقول أن يكون هذا المستقبل الممكن التحقيق قد بدا أقل طموحاً مما كان يتصوره ماركس ومع ذلك فإن ماركس كان يقول فى رأى بوپر : « تبنوا الناموس الأخلاقى الذى يسرع بتحقيقه » إذن فالماركسية بحسب بوپر تتطلب مستقبلية أخلاقية ،فكرة : «كل ما هو آت حسن » .

نرد باختصار على پوپر بأن ماركس انساق إلى تحليل المجتمع الرأسمالى فى زمنه لأنه كان يفرض حدوداً خطيرة على ازدهار حياة الكثيرين من أعضائه. وكونه فكر فى أن يتناول هذا المجتمع بالدراسة العلمية قد أدى بپوپر إلى إساءة فهم ماركس بجعله يعتقد أن ماركس لم يكن سوى عقل علمى وليس كائناً بشرياً متأثراً بآلام المجتمع الرأسمالى فى زمنه . ويعطى بوپر بهذا الصدد دليلا على فكرة خاطئة لدور العلم فى اكتشاف القوانين . إن التفكير العلمى لا يسعى إلى اكتشاف القوانين بهدف إنذار البشرية بأنه من الجنون أن تقاوم هذه القوانين. إن هدف البحث العلمى ليس تأكيد عجز الإنسان ، ولكن مساعدته فى جهوده لإخضاع الطبيعة للأهداف التى يرنو إليها . إن قانون الجاذبية الأرضية « القاسى » لا يعيد الإنسان على سطح الأرض ، فهو يصنع الطائرات آخذاً فى الاعتبار هذا القانون ، ويدرس الوقائع المحكومة بهذا القانون ، وعلاقاتها ببعضها ، ويجد بذلك نفسه قادراً على استخدام الوسائل التى يتمكن بها من محاصرتها وتجنيدها واستخدامها والتعاون معها . إن شفقة ماركس نحو الكادحين حثته على البحث عن علاج لآلام حياتهم عن طريق نظام اجتماعى أكثر عدالة . وقد علمه تكوينه العلمى أن يبحث عن القوانين التى تسود تغيراً اجتماعياً بهدف أن تكون إعادة بناء المجتمع على أسس أكثر إنسانية أقدر على المضى ابتداء من قاعدة معقولة .

إننا نفهم الآن بأى طريقة تتكامل وجهات نظر ماركس وفرويد فى الأخلاق رأينا أن الفكر الفرويدى ينسب إلى ضغط الأنا الأعلى الأوامر الأخلاقية والإحساس بأن أعمالاً معينة يجب إتيانها وأنها شريفة . ولكن هذا ليس كل شىء كما يشير إلى هذا فرويد ، فالنمو النفسى يتطلب إحلال أخلاق الأنا محل أخلاق الأنا الأعلى . وبعبارة أخرى ، إن الشخص البالغ ، الذى تعدى الإلحاحات العاطفية للطفولة والذى أصبحت أحكامه مبنية على ملاحظة للواقع ، يتبنى أخلاقاً تتفق مع هذه الملاحظة ، يكف عن الخضوع للمتطلبات الأنوية ويتكيف مع المجتمع ويبدأ فى التفكير بطريقة عالمية ، فى التفكير للآخرين كما يفكر لنفسه، وفى أن يصبح واعياً اجتماعياً . هذا الوصف للتطور النفسى الذى يذهب من الأنانية التى تلازم الطفولة إلى الوعى اجتماعياً لدى البالغ تعتبر المساهمة الأساسية من فرويد فى مجال الأخلاق، ولكن وهو ما اعترف به تلاميذ فرويد بسرعة، نادراً ما تم هذه العملية بطريقة كاملة ودون عقبات . فالحياة المعاصرة تميل إلى تشويه وإقلاق وإيقاف هذا النمو للصفات المعقولة .

أما المساهمة الماركسية فتتحصل فى التركيز على الجانب الاجتماعى للأخلاق ، على واقعة أن مجتمعاً ما أفضل أخلاقياً من مجتمع آخر بقدر ما يسمح للإنسان بإنماء كل خصاله .

فإذا ما نظرنا إلى النظريتين الفرويدية والماركسية معاً ، فإننا نراهما يقدمان لوحة كاملة لمولد الفكر الأخلاقى ونموه عند الإنسان .

٧ ـ التطور الاجتماعي

الماركسية تحليل للعوامل التى تحدد تطور المجتمع ، ولكن ما يطلق عليه اسم مجتمع ليس فقط جماعة مجردة أعلى من مجموعة أفراد . فهذا الاصطلاح يشمل كذلك مجموع العلاقات التى تنشأ بين هؤلاء الأفراد . وقد أصاب جينسبرج وجه الحق عندما عرفه عن طريق تشبيهه باللوحة التى تمثل الأنشطة والعلائق بين الآدميين . هذه العلائق الاجتماعية لها ملامح الطريقة التى يعيش بها الأفراد معاً ، وطبيعة التناقضات والصراعات التى تتدخل بينهم ، ونظم وقواعد السلوك التى يملونها للتحكم فى تصرفهم . لذا فإن دراسة تطور المجتمع يؤدى بنا إلى دراسة التغيرات التى تطرأ على تصرفات الأفراد فى طريقة تفكيرهم وفى طريقة عملهم . ولذا أيضاً فإن الماركسية التى تدرس أوجه تغير السلوك الإنسانى الناتج عن التغيرات فى ظروف وجودهم تستدعى بالضرورة نظرية نفسية ، نظرية موضوعها العلاقة بين المظاهر النفسية وظروف الحياة الخارجية . وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد . أما الآن فاهتمامنا يقتصر على الإشارة إلى أن الماركسية تعود بالضرورة إلى وضع بعض الفروض النفسية ، وذلك لأن هدفها هو بيان أشكال التفكير والنشاط التى تنتج عن التغيرات الخاصة فى المجتمع . ومع ذلك فسنفحص ، قبل دراسة هذه الفروض ، ما تنبئنا به الماركسية عن العوامل الخارجية التى تكيف السلوك الإنسانى .

تعرف النظرية الماركسية فى التطور الاجتماعى باسم الفكرة المادية للتاريخ أو المادية التاريخية ، وقبل وصف جوانب هذه النظرية التى تهمنا سأتعرض لشرح بعض الاصطلاحات الهامة المستعملة فى التعبير عن هذه النظرية .

العملية التى ينتزع بواسطتها الإنسان وسائل وجوده من العالم الخارجى أى غذاءه وملابسه ومأواه يطلق عليها ماركس دون تعيين عملية الإنتاج أو شكل الإنتاج أو منهج الإنتاج . وهى تشمل ، إجمالا ، مجموعتين من العوامل : عوامل ذات صلة بدور الإنسان فى شكل الإنتاج ، وهى التى تسمى أحياناً عوامل شخصية ،

وعوامل تتعلق بالظروف الخارجية أو العوامل الموضوعية . وتنطبق العوامل الشخصية على هذا النشاط ذى الطابع الإنسانى الذى يسمح للإنسان بالتأثير على الطبيعة والذى يسميه ماركس العمل . فهو يقول « إن العمل هو أولا وقبل كل شيء عملية تنشأ بين الإنسان والطبيعة ، عملية يتفاوض خلالها الإنسان مع الطبيعة فيما يتعلق بقواعد تعديل المادة وطرق التحكم فيها . وهو يقف فى مواجهة الطبيعة باعتباره إحدى قواها . وهو يحرك القوى الطبيعية لجسمه ، ذراعاه وساقاه ، ورأسه ويداه ، ليحصل على الجوهر فى شكل يفيده فى وجوده »[1] .

ويوضح ماركس هذه الخاصية ذات الطابع الإنسانى للعمل بقوله التالى : « إننا نتصور العمل بشكل يجعله مقصوراً على الإنسان وحده . فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه عمليات الناسج ، والنحلة تخجل أكثر من بنّاء إنسان بالطريقة التى تبنى بها خلاياها الشمعية . ولكن الذى يميز فى المجموع أسوأ بنّاء إنسان عن أحسن نحلة ، هو أن البنّاء يشيد خطة الخلايا فى رأسه قبل أن يحققها فى الشمع » .

وتشمل من ناحية أخرى العوامل الشخصية العلاقات بين الناس بعضهم وبعض فى أنشطة الإنتاج وطبيعة وتقسيم العمل ، والطريقة التى يتم بها تقسيم ثمار الإنتاج والعلاقات المتعلقة بالملكية ، وطبيعة المنظمات مثل النقابات والكارتل والجمعيات التعاونية ، وكل شيء يكون لوجوده تأثير مباشر على أنشطة الإنتاج : باختصار مجموع الروابط التى لها علاقة مباشرة بالأنشطة الإنتاجية فى المجتمع .

ويقول ماركس إن الإنتاج يتطور فى وسط هذه الروابط : « إن نشاط الإنسان فى الإنتاج لا يمارس فقط على الطبيعة وإنما أيضاً على الآخرين من بنى جنسه . فالأفراد ينتجون بالتعاون بطريقة معينة وبتبادل أنشطتهم . وحتى ينتجوا فإنهم يحددون بعض الروابط بينهم ولا يتم الإنتاج إلا فى هذا الوسط وهو بذلك نتيجة تأثيرهم على الطبيعة » .

والعوامل الموضوعية التى لا تعتمد على الإنسان تشمل : (ا) الأشياء التى تصنعها الطبيعة تحت تصرف الإنسان : الأرض ، والغابات ، والسمك ، والمناجم ، والحيوانات ، إلخ ، والمواد الأولية مثل الخشب والفحم والتقاوى ، (ب) آلات

(١) Karl Marx. Das Kapital, p 192, Dietz Verlag Berlin 1965

العمل . ويسمى ماركس هذه العوامل أحياناً وسائل الإنتاج ويسميها أحياناً أخرى القوى المنتجة .

والآن تتجه نيتى إلى عرض التطور التاريخى كما يراه ماركس . ولما كان هذا الوجه للماركسية غير مشروح شرحاً كاملا فى أى من كتابات ماركس وإنجلز فإننى أجد لزاماً علىّ أن أفسر وأن أحاول استخلاص الفكر العميق لهذين الكاتبين وأن أحول العناصر المفهومة ضمناً دون تصريح إلى عناصر صريحة واضحة .

تتعلق النظرية الماركسية فى التاريخ بالتغيرات الهامة التى حدثت فى التاريخ والتى ولدت هياكل اجتماعية جديدة وهى تدرس فى المقام الأول نتيجة التغيرات فى طريقة أو شكل الإنتاج التى تسمح للناس بكسب عيشهم . فعلى عكس الحيوانات لا يقف الناس سلبيين فى مواجهة الوسط الجغرافى ، فهم يتعاونون لينتزعوا من هذا الوسط وسائل بقائهم ، وتعلمهم التجربة والاكتشاف مناهج جديدة ، أكثر فاعلية لتنظيم جهودهم ، وهم يتعلمون كيف يصنعون أدوات لرى الأرض وكيف ينقون الغابات ويحيونها ، كيف ينتزعون من الطبيعة أكثر مما تقدم . ويكف الوسط الإنسانى عن أن يكون صاحب الدور الأوحد فى التأثير على الصفات الطبيعية للأرض والمناخ .. إلخ . إن أى وسط اقتصادى يتطور على أساس وسط أصيل طبيعى ، يشهد على اشتراك الجهود التعاونية للإنسان التى تسعى إلى الارتفاع فوق مستوى الوجود الذى تسمح به الظروف الطبيعية .

فالمجتمع من وجهة النظر الماركسية هو حصيلة قدرات التنظيم التى تسمح للإنسان بالتعاون مع غيره فى الأعمال التى تهدف إلى تأكيد وسائل الوجود . أى شكل الإنتاج الذى يسمح للإنسان بإحراز النصر فى كفاحه من أجل الوجود . وهذه نقطة رئيسية فى النظرية الماركسية . إذ يتطلب شكل الإنتاج أن يقيم الناس فيما بينهم روابط من طبيعة تجعل سير الإنتاج فعالا إلى أقصى درجة ممكنة . وفى المجتمعات البدائية تبدو حقيقة هذا الأمر واضحة . وبالضرورة يكون هيكل جماعة من الصيادين مختلفاً عن هيكل جماعة من الزراع . وتختلف العلاقات بين أعضاء كل جماعة ومهمة كل منهم وواجباته . وتعكس الأعراف والقواعد العامة للسلوك هذا الاختلاف . ويعطى أحد الكتاب الماركسيين ج . بليكانوف مثالاً

طريفاً على ذلك : لم يتخط « المازى » Les Masais ، بإفريقيا الاستوائية الشرقية اجتماعياً مستوى الوعى ، فوسائل وجودهم كانت غاية فى البدائية تسمح لهم بالكاد أن يعيشوا ، ونتيجة لذلك لم تكن بهم حاجة إلى أسرى الحرب لأنهم ما كانوا إلا ليضيفوا حملا ثقيلا على إمكانياتهم الضئيلة . لذلك فلم تكن بهم أى رحمة حيال هؤلاء الأسرى ، يقتلون كل من يقع بين أيديهم . وعلى العكس فإن جيرانهم الفاكومبا Les Wakamba ، وصلوا إلى مرحلة الزراعة وكانوا بحاجة إلى أيد عاملة إضافية ، إذ كانت كثرة العمال تعنى لديهم محصولا أوفر ـ ولذا فإنهم كانوا يحولون أسراهم إلى عبيد ، أى كانوا يظهرون بمظهر أكثر إنسانية لأنهم بلغوا مرحلة أرقى فى الإنتاج . ومن وجهة النظر الماركسية يوجد هنا علاقة هامة بين قواعد الأخلاق ومستوى الإنتاج . وهو موضوع سنعود إليه فيما بعد ـ وقد وضحت احدى الدراسات الحديثة للبوشيمان « بصحراء كالاهاري »[1] . العلاقة بين الهياكل الاجتماعية وندرة المياه وموارد الغذاء[2] . يعيش البوشيمان فى مجموعات صغيرة عائلية حول نقط مياه لأن تكوين جماعات ضخمة يؤدى سريعاً إلى الإقلال من احتياطى الغذاء . ويلعب الصيادون بينهم دوراً خطيراً بسبب المسئولية التى تفرض عليهم مطاردة وذبح الصيد المتناثر وإحضاره إلى نقط مراكز المياه ـ وقانونهم الجنسى غاية فى القسوة والاختلاط ممنوع بأى شكل من أشكاله : وهى نتيجة مباشرة لضرورة عدم زيادة عدد أعضاء الجماعة . ويتوقع من الأم التى ترضع وليداً وتنتظر طفلا ثانياً أن تقتل هذا الطفل الثانى .

ويؤدى اكتشاف أشكال جديدة للإنتاج إلى تشييد روابط اجتماعية جديدة تسمح لها بالسير بطريقة أقل عنفاً . ويبدى الأستاذ أكتون فى دراسته للنظرية المادية للتاريخ فكرة أن الرابطة بين ظروف الإنتاج ومناهج أو قوى الإنتاج هى إلى حد ما ، رابطة منطقية تنشأ حتماً . وهو يوضح هذه النقطة بتصور مجتمع من الصيادين يستعملون زوارق صغيرة يسير كل منها شخص واحد : « فالقوى المنتجة هى الأشخاص الذين يسيرون الزوارق الفردية والذين يصيدون على ظهرها ،

---

(١) Les Bochimans du desert du Kalahari

(٢) Elizaberth Thomas, The Harmless People, Secker and Warburg, 1959.

وعلاقات الإنتاج هى دفع الزوارق فردياً إلى البحر وعمل الأفراد المستقل » .

ثم يفترض أن شخصاً يبنى سفينة أكبر ، أى أنه يشغل قوى إنتاجية جديدة . « وهذا يؤدى إلى تغير فى روابط الإنتاج لأن القوى الجديدة تحتاج إلى شخص يهيئ لركوب البحر وإلى شخص يدبر وإلى عدة أشخاص لإلقاء الشباك الكبيرة . والآن بأى طريقة ينشىء الاختراع الجديد علاقات إنتاج جديدة ؟ يبدو لى أننا عندما نتكلم عن اختراع جديد نتكلم فى الوقت نفسه عن علاقات عمل جديدة . فى نفس الوقت الذى ينفذ فيه المخترع مشروع إنزال مركب ضخمة يفترض قيام وظائف جديدة ... لذا ، عندما نقول إن التغيرات الهامة فى القوى المنتجة تؤدى ضمناً إلى تغيرات فى علاقات الإنتاج فإن هذه الحتمية تكرار غير أنه ليس مجرداً من كل فائدة . لأن معرفتنا لدواليب العمل فى المجتمع تتحسن إذا ما أخذنا فى الحسبان أن إنتاج الثروة ليس فقط علاقة بين الطبيعة والأفراد وإنما أيضاً علاقة الأشخاص بعضهم ببعض »[1] .

هذا المثال الذى ضربه الأستاذ أكتون يثير الانتباه إلى نقطة هامة فى النظرية الماركسية . فعلى الرغم من الاعتراف بأن التغيرات فى القوى المنتجة يولد تغيرات فى علاقات الإنتاج ، فكثيراً ما يحدث (فى رأى الماركسيين) أن هذه التغيرات الأخيرة لا تتم إلا بعد وقت طويل . بمعنى أنه لا يوجد ضبط آلى لعلاقات الإنتاج لتوائم التغيرات فى أشكال الإنتاج . ويفسر الماركسى هذا التأخر بإرجاعه إلى عامل هام فى علاقات الإنتاج لا يواجهه الأستاذ أكتون : وهو واقعة أن هيكل المجتمع الطبقى ينتج عن العلاقات المتصلة بالملكية فى المجتمع .

ربما كان هذا العامل قليل الأهمية فى مجتمع كذلك المجتمع الذى يواجهه الأستاذ أكتون . ولكن فى مجتمع معقد حيث يكون من شأن الهياكل الاجتماعية الموجودة أن تضفى امتيازات هامة لجزء من أعضاء المجتمع يصبح انضباط ظروف الإنتاج لتلائم قوى الإنتاج الجديدة عسيراً . وهذا هو سبب تركيز الماركسيين على التناقض بين علاقات الإنتاج ونمو قوى إنتاجية جديدة . فماركس مثلا

(١) H.B. Acton, The materialist Conception of History, dans Proccedings of the Aristotelian Society, Vol. III, 1951. 52

ينادى بأن نمو شكل الإنتاج الرأسمالى عاقته الروابط الاجتماعية التى كانت ترجع إلى الإقطاع والامتيازات المحلية والامتيازات الموروثة بمجرد الميلاد . ولكى يصبح هذا الشكل الرأسمالى فى الإنتاج مزدهراً كان فى حاجة إلى شروط معينة : حرية التنافس ، حرية حركة اليد العاملة ، الحقوق السياسية للطبقة الرأسمالية الصاعدة . وبنفس الطريقة يؤيد ماركس أن الهيكل الاقتصادى للرأسمالية — أى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى تجعل الربح هو المحرك — يعوق الاستعمال الكامل لقوى الإنتاج الجديدة . ويفرض ضرورة تغيير الروابط فى الإنتاج ، وكذا الانتقال من المرحلة التى تسيطر فيها الفائدة الخاصة إلى مرحلة الاستجابة للحاجات الجماعية التى تسمح بأحسن استخدام لقوى الإنتاج . ولما كانت هذه التغيرات تفترض تغيرات فى ملكية الجهاز الإنتاجى ، فإن التناقض بين علاقات الإنتاج والقوى الإنتاجية يظهر فى صورة عداء بين طبقات المجتمع ، عداء بين أولئك الذين يريدون الاحتفاظ بعلاقات الإنتاج القائمة فعلا فيما يتعلق بالملكية وبين أولئك الذين يطالبون بتغيرات تسمح بملاءمة علاقات الإنتاج لقوى الإنتاج . هذا العداء بين الجماعات ، كما يؤكد ماركس ، هو المنبع الديناميكى للتغير الاجتماعى ، إنه صراع الطبقات .

ومن المهم أن نحدد على وجه الدقة هذه الفكرة الماركسية عن صراع الطبقات ، لأن أهميتها فى النظرية الماركسية ربما يبالغ فيها أو يقلل من قدرها .

يعرف ماركس الطبقات بطريقة موضوعية بالنسبة للملكية . وهكذا فخلال أى مرحلة تاريخية ، تكون الطبقة المالكة للجهاز الإنتاجى فى المجتمع ، الطبقة التى تحكم الاقتصاد : ففى مجتمع زراعى يعد طبقة ملاك الأراضى هى الطبقة المسيطرة اقتصادياً ، وفى مجتمع صناعى تكون طبقة ملاك المصانع هى المسيطرة ... إلخ . وبذا تعتمد الطبقات غير المالكة فيما يتعلق بوسائل وجودها على الطبقات المالكة وهذه الرابطة بين الطبقة المالكة والطبقة التى لا تملك شيئاً — بين أصحاب الامتيازات والمحرومين من كل الامتيازات — تكون عاملا هاماً فى الظروف العامة للإنتاج .

ويرجع إنجلز ظهور انقسام المجتمع إلى طبقات إلى زيادة قوى الإنتاج حتى

أصبح فى الإمكان إنتاج فائض عن الكمية الضرورية لحاجات الحياة الأولية . فكان إنجلز يفترض أن المجتمعات البدائية لها هيكل غير طبقى أو لا طبقات فيها لأن مستوى الإنتاج كان منخفضاً يكفى بالكاد لتغذية جميع أعضائها . ومن نتيجة ذلك أنه كان يجب على الجميع المشاركة فى العمل بطريقة متساوية . وكانوا جميعاً يقتسمون حاصل هذا المجهود الجماعى . لم يكن هناك مكان لطبقة صاحبة امتيازات لأنه لم يكن هناك فائض لمدها بالغذاء . فى هذه الظروف كان وجود هذه الطبقة كفيلاً بتعريض الجماعة لفقدان جزء من قوة العمل الإنسانى مما يؤدى إلى نقص تغذية بعض أعضائها . كان الفقر يولد المساواة .

ويشرح إنجلز هذا بالطريقة الآتية: «كما يخرج الآدميون بدائيًّا من المملكة الحيوانية – بالمعنى الضيق للكلمة – يدخلون فى التاريخ وهم لا يزالون نصف حيوانات ، أفظاظ ،لا يزالون عاجزين فى مواجهة قوى الطبيعة ، لايزالون يجهلون مدى قوتهم ، ونتيجة لذلك يكونون مساكين مثل الحيوانات ولا ينتجون أكثر منهم إلا بقدر ضئيل . فيسود بذلك نوع من المساواة فى ظروف الوجود . وبالنسبة لرؤساء العائلات يسود أيضاً نوع من المساواة فى الوضع الاجتماعى – على الأقل – انعدام الطبقات الاجتماعية »[1] .

وهذه هى المرحلة التى سماها إنجلز « الشيوعية البدائية » ومع ذلك فقد أنكر بعض الأنثروبولوجيين وخاصة الأستاذ مالينوفسكى أن هذه المرحلة وجدت فى أى فترة من الفترات . وعلى الرغم من ذلك فهو يذكر فى دراسته لسكان جزر تروبيون[2] على سبيل المثال ، بعض العادات التى تدلل على وجود مرحلة شيوعية بدائية . فهو يصف بالألفاظ الآتية القيام بالعمل الجماعى : « العمل الجماعى عنصر هام فى الاقتصاد القبلى لسكان جزر تروبيرون . وهم يلجأون إليه عند القيام ببناء الأكواخ السكنية ومخازن حفظ الاحتياطى ، وبعض أشكال العمل الصناعى ونقل البضائع وخاصة فى لحظة الحصاد عندما يتعين نقل كميات كبيرة من المنتجات من بلدة إلى أخرى غالباً ما تكون متباعدة » .

---

(١) Anti Duhring, p. 211, Editors Sociales

(٢) Trobirand

ومن المهم أيضاً أن نذكر أنه فى تصديره للدراسة التى قامت بها دكتورة أودرى ريتشاردز عن « الجوع والعمل فى قبيلة متوحشة »[1] والتى ركزت فيها على أن العمل الجماعى هو أساس البحث عن الغذاء فى الجماعات البدائية كتب الأستاذ مالينوفسكى: « الآن فقط بعد أن أحطت بدراسة الدكتورة ريتشاردز أستطيع أن أرى بوضوح الفجوات فى ملاحظاتى على الميلانيزيين . إذا لم يكن لهذا الكتاب فضل سوى أنه يلزم الباحث بأن يفتح عينيه وفكره على الدور الهام الذى يلعبه الغذاء فى المجتمعات البدائية ، فهذا يكفى لاعتباره حادثة فى تاريخ الأنثروبولوجيا » وقد كتبت الدكتورة ريتشاردز تقول: « فى أكثر القبائل توحشاً تعد المجاعة واقعة ممكنة الحدوث بصفة مستمرة إن لم تكن تهديداً فعلياً . والبحث عن الغذاء هو الشاغل الأساسى لكل عضو إيجابى فى الجماعة وأهم النظم هى تلك المتعلقة بالملكية وبتوزيع القوت » . وفى ملاحظاتها على قبيلة بازوتو[2] وشكل مرعاها تقول : « حسب العرف الأهلى ، تعد الأرض المحتلة بواسطة قبيلة من الناحية النظرية ملكاً للرئيس المسيطر ، وحسب مبادئ شيوعية يتصرف باعتباره قيماً على القبيلة مالكاً للأرض لحساب الأفراد الذين يشغلونها ويستخدمونها ، والذين يتبعونه. وفيما يتعلق بشعوب بانتو[3] بالجنوب الشرقى تقول : « إنها تملك مزارع وأراضى صيد ملكية مشتركة .. وتقوم العلاقات بين القبيلة وكذا العلاقات العائلية والأسرية على أساس الحاجة للغذاء ، وهى حاجة بدائية وبيولوجية . ويقتسم الطفل باعتباره عضواً فى جماعته الغذاء ويتلقاه من أشخاص معينين يعدهم أعضاء من أسرته ومن دمه . وباعتباره بالغاً يصل إلى مرحلة اكتماله اقتصادياً باعتباره منتجاً للغذاء عندما يشترك لأول مرة فى أنشطة القبيلة الهامة مثل الصيد الجماعى أو المراسيم الوطنية التى تعلن أول الثمار أو أول الغيث » .

وليست النظرية القائلة بأن حالة شيوعية بدائية تسود عندما ينتقل الإنسان من عالم الحيوان ليعيش فى جماعات عائلية ، ليست هذه النظرية فى نهاية الأمر بعجيبة فمن حقنا أن نستنتج أنه أمام خطر المجاعة الذى تتعرض له

---

(١) Dr. Audreu y Richards, Hunger and Work in a Savage Tribe.

(٢) Basouto

(٣) Bantoues.

يوميا يتحتم القيام بنشاط تعاونى بهدف البحث الدائم عن الغذاء الذى أدى إلى تقهقر الغيرة المتبادلة التى قدمها إنجلز فى « أصل الأسرة »[1] .

وتفضى التجربة والاختراعات والاكتشافات التى تحركها وحدات اجتماعية نامية ذات حاجات متزايدة ، أماناً وإمكانية فائض يضعان أسس تقسيم المجتمع إلى طبقات . كان إنجلز يفترض أن التقسيمات الطبقية ظهرت أول ما ظهرت مع الرق . عندما سمحت قدرة العمل بإنتاج مايزيد على الضرورى لحفظ المجتمع ساهمت اليد العاملة الإضافية فى تحرير بعض أعضاء المجتمع من الخضوع التام فى مواجهة العمل . ويرى إنجلز أن هذه القوى الإنتاجية الجديدة قدمتها الحرب. « حتى ذلك الحين ، لم يكن قد تم التوصل إلى معرفة طريقة معاملة أسرى الحرب ، لذا فقد كانوا يقتلون جميعاً ، وحتى فى تاريخ لا حق متأخر عن تلك المرحلة كانوا يؤكلون . أما فى مستوى « الحالة الاقتصادية » التى وصلنا إليها اليوم فقد أصبحوا ذوى قيمة لذا فهم يتركون أحياء وينتفع بعملهم . . وهكذا اخترع الرق »[2] .

فتقسيم المجتمع إلى طبقات يقابل مرحلة معينة من نمو قوى الإنتاج . وفى الوقت نفسه فإن إقامة عدم المساواة التى تظهر فى اختلاف تقسيم الثروات المنتجة واختلاف الامتيازات ، هذاالتقسيم الطبقى يولد تيارات متعارضة . لكن مادامت هذه التقسيمات تقابل احتياجات طريقة الإنتاج أى طالما أنها لا تعوق طريقة الإنتاج يظل هذا التعارض مستمراً . وعن هذا يقول إنجلز : « طالما أن شكلا بعينه فى الإنتـــاج يكون صاعداً فى طريق تطوره ، فإنه يحظى بالتأييد حتى من أولئك المغبونين فى طريقة التوزيع المقابلة لذلك الشكل فى الإنتاج وعندما تختفى إلى حد كبير شروط وجودها .. وتطرق الأبواب طريقة جديدة فى الإنتاج عند ذلك فقط يبدو التقسيم غير المتساوى ظالما أكثر فأكثر »[3] .

إذا طبقنا هذا على العصور الحديثة ، فإن التعارض الأساسى الذى يعكس

---

(١) Engels : "L'Origine de la famille."

(٢) Engels : Anti — Duhring, p. 212

(٣) Ibid, p. 181.

التناقض بين القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج يكمن فى علاقة الطبقة الرأسمالية بطبقة العاملين . قامت الأولى بدور تاريخى هام فى توحيدها لآلات الإنتاج المبعثرة وهى الحالة التى كانت سائدة فى الفترة الأسبق . قبل النظام الحالى كان الإنتاج يتم أساساً على مستوى صغير . كانت أدوات الإنتاج مملوكة للمنتج الذى كان ، اعتماداً على مواده الأولية وعلى جهده ، ينتج بضائعه ، ونتيجة لهذا كان الإنتاج يعود عليه أى كان يملك نتاج عمله . هذه الصناعة الصغيرة تقوضت نحو نهاية القرن الخامس عشر عندما لحقت التجارة طفرة على أثر اكتشاف أمريكا والدوران حول رأس الرجاء الصالح ، وفتح أسواق فى الهند والصين ، الأمر الذى حتم توسيع الإنتاج . وقد تم هذا التوسع بفضل إحلال وسائل يستخدم فيها عدد كبير من العاملين يتعاونون فى طريقة الإنتاج محل الوسائل الفردية المبعثرة « فبدلا من العجلة ، والغزل اليدوى ، ومطرقة الحداد ظهرت آلات النسج والمهن الميكانيكية والمطرقة البخارية ، وبدلا من الورشة الفردية ظهر المصنع الذى يفرض تعاون مئات وآلاف الرجال . وكما هو الحال بالنسبة لوسائل الإنتاج ، فإن الإنتاج نفسه تحول من سلسلة من الأعمال الفردية إلى سلسلة من الأعمال الجماعية والمنتجات من منتجات فردية إلى منتجات اجتماعية »[1] .

وهكذا بإضفاء طابع اجتماعى على الإنتاج لعبت الرأسمالية دوراً تاريخياً هاماً ولكنها لعبته بحرمان جزء كبير من المجتمع من ملكية وسائل الإنتاج . أصبحت أدوات الصناع "Artisans." ذات قيمة فى التنافس مع التنظيم الصناعى للرأسماليين وانمحى رب العمل الصغير . كانت هذه العملية إحدى علامات الثورة الصناعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الذى رأى اختراع الآلة البخارية ، وآلات النسيج والمهن الميكانيكية . . إلخ . وكانت النتيجة ميلاد طبقة لا تملك وسائل إنتاج ، طبقة بروليتاريا . « أصحاب المصانع الصغيرة والتجار وأصحاب الدخول الصغيرة والفلاحين والفنانين الريفيين أى أن كل الطبقة الدنيا فى الفترة السابقة ، تحولت إلى بروليتاريا من ناحية لأن رؤوس أموالهم الصغيرة لا تسمح لهم باستخدام وسائل الصناعة الكبيرة ، فينهاوون فى سباقهم مع أصحاب رؤوس

(١) Anti. Duhring, p. 308 — 309

الأموال الكبيرة ، ومن ناحية أخرى لأن مهارتهم الفنية حطت من قيمها طرق الإنتاج الحديثة . حتى إن البروليتاريا أصبحت تنتخب من جميع طبقات الشعب »[١] .

ولكن فى الوقت نفسه الذى كانت تقدم فيه الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج على نطاق واسع ، أساساً اشتراكياً للإنتاج ، فى نفس الوقت الذى كانت تنظم وتخطط الإنتاج الصناعى ، كانت تحتفظ بالطابع الفردى للملكية الذى كان علامة الإنتاج الفنى الريفى الذى كانت تحل محله .

كان هدف الإنتاج فى أوائل العصور الوسطى إشباع حاجات المنتج وعائلته وكان هذا يستهلك ما ينتجه . وفى فترة لا حقة نشأ التبادل بين صانع المدينة وفلاح الريف . يبيع الأول إنتاجه للأخير ويشترى المنتجات الزراعية . هذا النوع من التبادل استقام تلقائياً على أثر تقسيم العمل ، ولم يكن يعتمد على أى تخطيط للإنتاج . كان كل منتج يعمل مستقلاً عن المنتجين الآخرين حتى إنه لم يكن ليستطيع تقييم الطلب على إنتاجه بدقة .

هذا الطابع الفوضوى للإنتاج استبقته الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج ، كما استبقت الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، وبصورة أشد لأن الإنتاج الصناعى المصطبغ بالمعقولية "rationnelle" كان يسمح بصنع كميات كبيرة من السلع التى كانت تلقى فى السوق من كل منتج على حدة . « ويظهر التناقض بين الإنتاج الاجتماعى وما يوافق الرأسمالى ، يظهر كما لو كان تناقضاً بين تنظيم الإنتاج فى المصنع الفردى وفوضى الإنتاج فى المجتمع كله ككل »[٢] .

وفى إطار هذا التناقض بين الإنتاج الاجتماعى والملكية الخاصة ، بين التنظيم الصناعى وانعدام التنظيم فى المجتمع ، قامت الماركسية بتحليل ميول الرأسمالية

(١) Manifeste du parti communiste, p. 22, Editions Sociales 1961.

(٢) Anti Duhring, p. 313.

واتجاهاتها . وهناك عنصر نظرى هام لا يمكن فصله عن التنبؤات المتعلقة بمستقبل الحركات الاجتماعية . إن اتجاها أو تحركاً ما يبدو هاماً فى لحظة معينة يمكن أن ينحرف أو يتغير من تأثير عوامل كان لايمكن التنبؤ بها فى اللحظة المذكورة . إن الحرب العالمية الأولى والثانية أعطت انطلاقا خارقاً للعادة للاختراعات وللاكتشافات وحولت تكنيكات الإنتاج . إن تقوية الحركات العمالية والنقابات والمنظمات العمالية سمحت للطبقة العاملة بالحصول على أنصبة أكبر من الإنتاج الاجتماعى ، وسمحت بقلب العملية التى تزيد من فقرها والتى كانت تبدو لماركس غير ممكن تفاديها . وهذه كلها عوامل ما كان ماركس ليستطيع التنبؤ بها بشكل كامل وبالتفصيل . وقد قيل نتيجة لذلك أكثر من مرة إنه كان مخدوعاً لأن التطور البسيط المحدد نسبياً الذى وصفه اعتماداً على تحليله لم يحدث . لذا يُدَّعَى أن تحليله لم يكن سليماً .

ويذكر على وجه الخصوص فى مجال رفض الأخذ بالماركسية كتابات كينز وجالبرت ولكن كلا من الكاتبين يصر على تدخل الحكومة فى الحياة الاقتصادية تدخلا يحد ، إلى مدى بعيد ، من البحث عن الربح باعتباره عاملا حاسماً فى توجيه استثمارات رأس المال .

فى الواقع هذا النقد ليس رفضاً للماركسية إلا بقدر اعتبار الطائرة — وهى استخدام لقانون طبيعى — رفضاً لقانون الجاذبية الأرضية . إذ لا تزال النقطة الهامة من النظرية الماركسية فى الاقتصاد صحيحة وهى أن ترك التحكم فى رأس المال للأفراد والبحث عن الربح يقودان إلى فوضى الإنتاج والتوزيع .

طبيعى أنه من الممكن تصور وسائل تخفف من الآثار الفوضوية للإنتاج. وهناك اقتصاديون يعرفون بلا شك التحليل الماركسى ، يستطيعون إخضاع الحكومة لخطط الاستثمار العام . . إلخ . بهدف إضفاء المعقولية على الحياة الاقتصادية للرأسمالية . ومع ذلك فإذا ما طبقت هذه الحكومات هذه الخطوط بطريقة تحد من البحث عن الربح وتعطى الأولوية لرخاء الجماعة ، فإن هذا لا ينقض التحليل الماركسى للاقتصاد ، ولكنه ينقض النظرات التى تصحبها عن الأنانية

وانعدام المسئولية الاجتماعية لدى الرأسماليين . وبعبارات أخرى ، فإن التنبؤات الماركسية المتعلقة بسلوك الرأسماليين أصبحت غير مقبولة . ولكن التحليل الاقتصادى للرأسمالية لا مأخذ عليه . إن ما يدعوننا إليه كينز وجالبرت وتلاميذهما هو التسليم بأن القادة السياسيين للرأسمالية أقل أنانية وأكثر معقولية مما كان يظن الماركسيون . وسأعود إلى هذه المحاولات لنقض الماركسية فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ناظراً إليها من وجهة أكثر عمومية .

حتى هنا لم يثر عرضنا للماركسية ما كان يطلق عليه ماركس اسم الأساس الاقتصادى للمجتمع economie de base أى القوى المنتجة فيه والعلاقات بين الآدميين التى يتم فى محيطها نمو هذه القوى . وسندرس الآن « الهيكل العقائدى » الذى شيد على هذا الأساس . ويقودنا هذا إلى النظرية الماركسية فى علاقة فكر الإنسان بوسطه الاجتماعى وإلى كل الآثار التى تترتب على هذه العلاقة .

إن التعريف التقليدى (الكلاسيكى) للعلاقة بين الهيكل العلوى Super—structure والأساس الاقتصادى Infrastructure يجد مكانه فى إحدى فقرات « نقد الاقتصاد السياسى » لماركس . وتبدأ هذه الفقرة بنظرات على النقاط التى درسناها فيما سبق . وهى أنه فى أى شكل من أشكال الانتاج يقيم الناس فيما بينهم علاقات إنتاج تقابل مستوى معيناً من نمو القوى المنتجة ، ويستطرد قائلا : « إن الهيكل الاقتصادى هو الأساس الحقيقى للمجتمع ، يشيد عليه بناء أو هيكل علوى قانونى وسياسى يقابل بعض الأشكال المحددة للضمير الاجتماعى . إن طرق الإنتاج للحياة المادية تؤثر فى سير الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية . ليس ضمير الآدميين هو الذى يحدد وجودهم ، بالعكس إن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد ضميرهم : فى مرحلة معينة من مراحل النمو ، تدخل القوى المادية للإنتاج فى المجتمع فى صراع مع علاقات الإنتاج الموجودة أو — وهو يعد التعبير القانونى عن الشىء نفسه — تدخل فى صراع مع علاقات الملكية التى تحكمت فى طريقة سيرها الأسبق . هذه العلاقات التى كانت فى مرحلة سابقة التعبير عن نمو قوى الإنتاج ، تصبح عائقاً لهذا النمو .

وبذا تبدأ فترة ثورة اجتماعية ويؤدى تغير الأساس الاقتصادى إلى تغير محدود فى مجموع الهيكل العلوى الواسع . عند دراسة هذه التحولات ، يجب ألا ننسى التمييز بين التحولات المادية للظروف الاقتصادية للإنتاج ، التى يمكن تحديدها بنفس دقة تحديد أى علم فيزيائى ، والتعبيرات القانونية ، والسياسية ، والدينية ، والفنية ، والفلسفة أى الإفصاحات العقائدية (الأيديولوجية) ، التى بواسطتها يصبح الناس واعين بهذا الصراع ويبدأون فى حصاره والتخفيف منه » .

إن مغزى هذه الفقرة الغزيرة المتعلقة بالمادية التاريخية تعتمد على المعنى الذى يعطيه ماركس لكلمات مثل « يحدد Determiner ويؤثر فى Conditionner إن المعنى الواسع الذى يمكن أن نعنيه عندما نقول إن الأساس المادى يحدد ويؤثر فى الهيكل العلوى نجده فى العبارة المكتوبة على ضريح ماركس والتى حررها إنجلز : « تماما كما اكتشف داروين قانون تطور الأجناس ، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ ، الواقعة البسيطة ، المغطاة حتى الآن بمثالية شديدة ، إن الإنسانية يجب أولا وقبل كل شىء أن تأكل وتشرب وتسكن وتلبس قبل أن تهتم بالسياسة ، وبالعلوم وبالفن وبالدين . . إلخ » .

وبعبارة أخرى يجب أولا الوصول إلى مستوى معين فى الإنتاج المادى قبل أن تتمكن الحياة الثقافية من أن تأخذ سبيلها إلى النمو . إن أى مجتمع يجب أن يتمكن أولا من إهداء الوقت لبعض أعضائه ليتخصصوا فى أنشطة غير إنتاجية ، وهو ما يعنى أنه ملزم بإنتاج فائض يسمح لهم بالحياة . وهى واقعة اعترف بها أرسطو الذى كان يرى أن أوقات فراغ البعض شرط ضرورى لنمو الحياة الثقافية فى المجتمع وفى اليونان القديمة ، قدم الرق ، كما أوضح إنجلز ، فى Anti-Dühring الأساس المادى لنمو الفن والعلم والفلسفة اليونانية . فالقول إن المستوى المادى للإنتاج يحدد تطور الحياة الفكرية يماثل بالمعنى الواسع القول إن المستوى المادى للإنتاج يضع الحدود التى يمكن فيها للحياة الفكرية أن تنمو ، إلى حد ما . هذا المستوى المادى يضع المشاكل التى تستغيث بالحياة الفكرية لتتولى حلها . أى أن العلاقة بين المستوى المادى للإنتاج والحياة الفكرية يمكن التعبير عنها بهذه الحقيقة : وهى أن الفنانين والعلماء والفلاسفة يجب أن توفر لهم وسائل المأكل والمشرب والمسكن

إذا أردنا أن ننتظر منهم المساهمة فى حياة المجتمع .

ومع ذلك فإننى أرى أن ماركس كان يريد أن يقول أكثر من ذلك . فلم يكن شاغله الأخير هو تقرير أن مستوى المعيشة ضرورى لنمو الحياة الثقافية فى أى مجتمع ولكن أكثر من ذلك إن الوجه الثقافى له علاقة هامة بوجه المجتمع أو الهيكل الطبقى الذى ينمو فيه . إن هذا هو المعنى الذى يرمى إليه ماركس عندما يستعمل اصطلاح « يحدد » .

بصفة عامة ، الثقافة — أى اهتمام الإنسان بالفن والأدب والموسيقى والعلوم والفلسفة شكل من أشكال النشاط الإنسانى الذى لا يمكن توفيره ، على الأقل فى قدر كبير منه . إلا إذا وصل الناس لمستوى إنتاج يحرر بعضهم من ضرورة المساهمة بكل وقتهم فى عملية الإنتاج . وبمعنى أخص يتحدد الوجه الثقافى بواسطة الوجه الاجتماعى ، فالأدب والفن والسياسة والعلم والدين موجهة عقائدياً بحيث تعكس وتحمى مصالح الطبقة الموجهة . أى أنه توجد علاقة بين الأفكار المميزة لعصر ومصالح الجماعات المسيطرة فى ذلك العصر . هذه الأفكار يمكن استخدامها كأسوار لحماية مصالح جماعات مسيطرة حتى إن المصالح الخاصة لجماعة تقدم على أنها المصالح العامة لمجتمع . وقد وصف هيوم فى كتابه « العقد الأصلى » هذه الميكانيكية خير وصف : « بما أنه لا يوجد أى حزب حالياً ، دون سند من نظام فلسفى أو نظرى ، يتعلق به ويلحق بنظامه السياسى أو العملى ، فإننا نجد ، نتيجة لذلك ، أن كل حزب من هذه الأحزاب التى تقسم الأمة قد شيد نظاماً من الطراز الأول بهدف حماية وإخفاء خطة العمل المتبعة فيشبه الحزب الحكومة بشيء مقدس لتصبح مؤلهة وأعلى من أن تعصى ، حتى إن الهجوم عليها يصبح معصية أياً كان الطغيان الذى قد تؤول إليه .. ويؤسس حزب آخر الحكومة على الرضا الشعبى ، ويفترض أنه قد وجد فى الأصل عقد يعترف للمواطنين بحق مقاومة عاهلهم عندما يستشعرون أنه قد آذاهم بالسلطة التى بين يديه والتى حصل عليها لتحقيق صالح الجماعة . هذه هى المبادئ النظرية لهذين الحزبين والنتائج العملية التى قد تترتب عليها » .

إن فكرة ماركس عن الثقافة وأنها موجهة عقائدياً لتبرير مصالح طبقة ، تتفق تماماً مع فكرة فرويد عن التبرير "Rationalisation" . وقد وصف إنجلز هذه العملية processus بعبارات ما كان لمحلل نفسانى حديث ليستخدم غيرها

« الأيديولوجية هى عملية من صنع مفكر واع ولكنه يملك فى الواقع وعيا غير سليم : لأن الدوافع الواقعية التى تدفعه تظل بالنسبة له غير معروفة ، أى أن الأمر لا يتعلق مطلقاً بعملية أيديولوجية . ومن ثم فهو يتصور دوافع ظاهرة أو خاطئة » .

إن ما اكتشفه فرويد فى النفس الفردية اكتشفه ماركس فى الشبكة الواسعة للعلاقات الإنسانية فى المجتمع .

ومن المهم أن ننبه إلى أن واقعة بعض أوجه الحياة الثقافية للإنسان يمكن أن تستخدم لتبرير مصالح اقتصادية خاصة لا تعنى بالضرورة أن هذه الأجه لا معنى لها إلا المعنى الاقتصادى . فهناك فارق هام بين السؤالين : « ماهى الظروف التى ولدت وجهة النظر هذه أو تلك — ما هو دورها فى المجتمع ؟ » . وبين السؤال « هل وجهة النظر هذه مبررة ؟ » . يمكن أن نبحث عن الظروف التى أعطت دفعة لنظرية داروين وأن نقول إن هذه النظرية قدمت أحياناً كما لو كانت تبريراً لظهور جماعات غنية قادرة فى المجتمع . وهذا لإيضاح الاستعمال الأيديولوجى لهذه النظرية . ولكن السؤال يظل: « هل النظرية فى حدود نطاقها يمكن أن تبرر الوقائع؟ هل هى سليمة أو خاطئة ؟ » إن لم يكن الأمر كذلك فإن النظرية الماركسية ستجد نفسها فى مركز متناقض فى الظاهر . وربما كان هذا يعنى أن الماركسية باعتبارها نتاجاً لبعض الظروف التاريخية ، تكون سلاحا نظرياً فى يد الطبقة العاملة ، لاحق لها فى أن تكون أكثر صحة من أى نظام نظرى آخر يهدف إلى وصف تاريخى فهى ليست إلا نتاج ظروف مختلفة تبعاً للمصالح الطبقية المختلفة . ومن المؤكد أن ماركس كان لا يعنى هذا .

باختصار ، يجب أن نقيم تمييزاً بين الوجه الأيديولوجى لنظرية — واقعة أنها يمكن أن تستخدم كسند ومبرر لمصالح اجتماعية معينة — وقدرتها كنظرية على تفسير الوقائع التى تتصل بها أو بإعطاء إجابة على المشكلة المتعلقة بها .

ولنعد الآن إلى وجه عام للنظرية التاريخية الماركسية ، إذ أننى أرى أنه من الأفضل النظر إليها لا باعتبارها صيغة ضيقة لبناء العلاقات بين الهيكل العلوى والأساس المادى ، ولكن باعتبارها وسيلة للوصول إلى دراسة اجتماعية ، وسيلة للبحث عن هياكل المجتمع من زاوية تكنيك الإنتاج . وقد عالج إنجلز بوضوح هذه النقطة : « ولكن ، قبل كل شىء ، إن فكرتنا عن التاريخ ، أنه مرشد

للدراسة لا رافعة بناء على طريقة هيجل . كل التاريخ يجب أن يدرس بعين جديدة وظروف الوجود للأشكال المختلفة من المجتمعات بحيث تكون موضوع فحص دقيق ويستطرد منتقداً الماركسيين « الذين يستخدمون اصطلاح المادية التاريخية . . . فقط بهدف إدخال . . . معارفهم التاريخية المتناثرة . . بأسرع ما يمكن . . . فى نظام منمق معتقدين أنهم بذلك قد قاموا بعمل خارق للعادة » .

هكذا تؤكد النظرية الماركسية أن دراسة مناهج الإنتاج تسمح للأفراد بكسب عيشهم ، وأن فحص علاقات الإنتاج ، وطبقات المجتمع ، وحق الملكية ، تعد محاولات لفهم الظاهرة التاريخية المعقدة . لا أحد من المؤرخين المعاصرين سيوجه انتقاداً لقيمة هذه الطريقة فى دراسة التاريخ . وعلى سبيل المثال كتب الأستاذ بترفيلد فى دراسته الناقدة للنظرية الماركسية فى التاريخ : « إن صيغة الماركسية تحدد منهجاً وتقدم إرشادات لذلك الذى يرغب فى دراسة التاريخ من وجهة نظر عامة أو لذلك الذى سيكرس نفسه للبحث التاريخى . وهى تعرف الموقف الذى يجب أن نتخذه عندما نريد دراسة التاريخ ، ولا يوجد تفسير آخر يمكن أن يقدم لنا شيئاً أكثر من ذلك . وقد ألح الكثير من مفسرى النظرية الحديثين على هذه النقطة . وبعبارات أخرى ، فى حالة معطاة ، يجب أن نبنى بناء على فرض ، وتشير علينا الصيغة الماركسية بوسيلة للبدء ، إنها تقول لنا من أى جهة نغرس عصانا »[1] .

ما هى الرابطة بين النظرية الفرويدية وهذه الفكرة الماركسية عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للإنسان فى المصطلحات الفرويدية ؟ الأنا هو ذلك الجزء من الأنا الأدنى الذى يعدل بالاحتكاك مع الواقع الخارجى ، وهو واقع بالنسبة للإنسان على وجه الخصوص اقتصادى واجتماعى . أى أن الأنا يعكس الواقع الاجتماعى ويسعى جاهداً لتحديد متطلبات الأنا الأدنى وتصنيفها لتتفق مع متطلبات الواقع الاجتماعى . يقول ماركس إن ضمير الإنسان يحدده وجوده الاجتماعى ، وهو مضمون لا يسع النظرية الفرويدية إلا أن توافقه . ولكن الفرويديين يذهبون إلى أبعد من ذلك ويوضحون أن العلاقة بين الأنا الشعورى والعالم الاقتصادى

(١) Butterfield, History and the maxxian Method - Scrutiny Vol. 1, No. 4, p. 344.

الخارجي ليست فى اتجاه واحد ، وأن الأمر لا يتعلق بصلة سلبية للأنا فى مواجهة العالم الخارجي ، ولكن بصلة يبحث الأنا من خلالها بطريقة إيجابية ، عن وسائل للتعبير عن دوافع الأنا الأدنى . أى أن الأنا فى مواجهة الأنا الأدنى ليس مجرد مرآة عاكسة للواقع الخارجي ولكنه يسعى لإعادة تشكيل هذا الواقع على أحسن مايكون ليخدم أهداف الأنا الأدنى . وبهذه الطريقة تثرى النظرية الفرويدية التأكيد الماركسى المبسط بأن الواقع الاجتماعى يحدد الضمير . فالنظرية الفرويدية تقول : « إنه لا يكفينا أن ندرس الواقع الاجتماعى باعتباره مؤثراً حاسماً على الشعور ، ولكن يجب أيضاً دراسة الميكانيكيات النفسية التى تعطى للشعور مضمونه ، والتى تبرر تغلبه على الواقع الخارجي . وقد قدمنا فى الفصل الرابع عرضاً للميكانيكيات التى يستخدمها الأنا باعتبارها همزة وصل بين الواقع والأنا الأدنى ، وفسرنا كيف يتحرك الأنا عن طريق الإسقاط والتسامى والتبرير فى مواجهة الأنا الأدنى ويوفق بين متطلباتها ومتطلبات الواقع الخارجي . إن ما هو صحيح بالنسبة للنفس الفردية فى علاقاتها بالعالم يبدو صحيحاً ، على مستوى أكبر ، مستوى الكتل الاجتماعية فى المجتمع . وقد رأينا أن الطبقة المسيطرة تبرر مصالحها بهدف جعلها مصالح المجتمع بأكمله . وهى تشيد هيكلا أيديولوجيًّا معقدا من الحجج الفلسفية والدينية والسياسية يبرر احتفاظها بالسلطة وامتيازاتها .

ومع ذلك فهناك عامل يجب أن يؤخذ فى الا عتبار ، لأن الأنا لا يتصرف فقط باعتباره وسيطاً بين الأنا الأدنى والواقع . يجب أن نأخذ فى الحسبان الأنا الأعلى ، هذا التجسيد للسلطة كما يراه الأنا الضعيف غير المميز الذى يصاحب الطفولة . كان فرويد يقول : إن الأنا يجب أن يخدم سيدين ، من الأنا الأعلى ينبع هذا التأثير اللامعقول الذى تمارسه فى حياة الإنسان التقاليد والسلطة . .

ولنتذكر الظروف التى تحيط بصياغة الأنا الأعلى حتى نستطيع أن نقيم على وجه الدقة الدور الذى تلعبه فى الحياة الاجتماعية .

إن الاتصال الأول للطفل بالواقع ، أول صدماته وأول إشباعاته تأتيه ، فى جزء كبير منها ، من الأشخاص الذين يحيطونه ، والديه وأصدقائهما . . . إلخ . إن إحدى الخصائص البيولوجية الهامة للكائن الإنسانى هى طول فترة الضعف التى

تلازم الطفل والتى لا يستطيع أى نظام سياسى أن يتجنب وجودها . إن ردود الفعل النفسية للطفل أمام هذا الضعف ، الخضوع شبه الكامل للبالغين مصدر تشابه لا يمكن تحاشيه أيًّا كان الوسط الا جتماعى .

ينتهى الطفل إلى الا عتراف بأن ثمة سلطة خارجية لها القدرة على حرمانه من إشباع رغباته . وبطرق متباينة تجعل الطفل يشعر بالفرق الأساسى بينه وبين البالغ ، هذا الأخير له الحق فى إشباع أو عدم إشباع حاجاته الملحة . . ويترك الدور الذى يلعبه الوالدان أو الأشخاص المتمتعون بالسلطة ، يترك هذا الدور علامات على الطفل تغصبه على التكيف مع مقتضيات الواقع . عندما يكون الأنا ضعيفاً وغير قادر بعد على التحكم فى الحاجات الملحة للأنا الأدنى يتوحد جزء من الأنا فى الوالدين ، وباعتباره أنا أعلى يستمر فى مراقبة ميول الأنا الأدنى ، ويغصب الأنا على زجر الميول التى يقدر أنها غير لائقة ، وفى مرحلة متأخرة تجبر هذه المراقبة من الأنا الأعلى الفرد على طاعة السلطات الخارجية . . فهى مسئولة على وجه الخصوص وإلى حد بعيد عن الطاعة العمياء لسلطة الكنيسة ، والدولة والحزب السياسى . . . إلخ . وبهذا المعنى يفسر لنا الأنا الأعلى معقولية التحفظ ، الذى يقود إلى الاحتفاظ بنظم اجتماعية بالية ويعرف المصلحون الاجتماعيون تمام المعرفة أن المعارضة الأشد التى تمارس فى مواجهتهم تأتى من عبء التقاليد ومن الرابطة التى تربطنا عاطفيًّا بالنظم الا جتماعية الحاضرة . وهذه النظم لا يمكن فهمها إذا لم نعرف الدور الذى يلعبه الأنا الأعلى فى وجودها . لأنه برغم أن طابعها يمكن أن يكون إلى حد بعيد نتيجة للضرورات الاقتصادية والاجتماعية ، فإن سيطرتها على الأنشطة الإنسانية والتى تظل محتفظة بها لمدة طويلة بعد أن تختفى أسباب وجودها ، يرجع إلى النشاط الدافع للأنا الأعلى .

ونتيجة لذلك فإن الأنا الأعلى وسيلة لنقل أساليب السلوك التقليدية . أو كما كان يقول فرويد : « إن الانسانية لا تعيش أبداً فى الحاضر بشكل تام ، ففى أيديولوجيات الأنا الأعلى بقايا الماضى ، وتقاليد الجنس والشعب التى لا تتراجع إلا ببطء أمام تأثير الحاضر وأمام التغيرات »[١] . أوضحت الماركسية الطريقة التى

---

(١) Freud : Nouvelles conférences, p. 73

تخلق بها التقاليد والنظم والأيديولوجيات لتخدم مصالح الجزء الحاكم للمجتمع . ولكن الماركسية لم تفسر الطاعة العمياء من جانب أشخاص لا تمثل هذه النظم أى مصلحة من مصالحهم . وتتولى النظرية الفرويدية عن الأنا الأعلى القيام بهذه المهمة الهامة لفهم هذا الوضع . لو كان ضغط الأنا الأعلى غير موجود ، لكانت مهمة المصلحين الاجتماعيين أسهل بكثير ولما تبقى سوى ضرورة تفسير كيف أن بعض التغييرات الاجتماعية يمكن أن تعدل آلام المجتمع وتفيده فى مجموعه . إذا لم تكن التفسيرات المعقولة تصطدم بمقاومة نابعة من تعلق الأنا الأعلى بالنظم الاجتماعية البالية لفهم الناس بسرعة ضرورة ترقية النظم الاجتماعية المقابلة للواقع الاقتصادى .

لهذا السبب يعد بعض المحللين النفسيين — المهتمين بالمشاكل الاجتماعية والذين يفهمون ويقدرون ضرورة التطور الاجتماعى ، يعدون — إحلال « أخلاق الأنا » محل « أخلاق الأنا الأعلى » من الأمور الأساسية الجوهرية .

وعلى سبيل المثال يرى الاستاذ فلوجيل أن هدف « علم الاجتماع التقدمى » هو تقوية الأنا ضد « الرقابة القاسية التى لا تزال لا شعورية للأنا الأعلى » . وهكذا يتحرر الفرد من سطوة سلطة لا معقولة ويسمح له عقله بالتحكم بطريقة أفضل فى شخصيته .

إننى أرى أن الماركسية يمكن أن تقدم للمصلح الاجتماعى أضواء على الأسباب الاقتصادية وبصفة عامة التاريخية لآلام المجتمع الحاضر. إن ما يسعى إليه المصلح هو العمل على جعل الناس يتصرفون ويفكرون بطريقة معقولة حتى تتكشف لهم حقائق الحياة الاجتماعية . والأمل ضعيف فى تقديم هدف معقول للسلوك إذا تركنا الأسئلة الجوهرية ، المتعلقة بمصدر جزء كبير من لا معقولية الإنسان ، دون إجابة . وعلى العكس ، إذا ما عرف هذا المصلح الاجتماعى المبررات اللاشعورية للسلوك الإنسانى ، فإنه يكون مسلحاً تسليحاً أفضل فى نضاله لتوجيه هذه القوى اللاشعورية توجيها موضوعياً ومعقولا .

٨ ــ المادية الديالكتيكية

ينتمي فرويد وماركس إلى تلك الطبقة من كبار المفكرين الذين تجبرنا نظرياتهم على إعادة النظر لا فى المشاكل التى تثار فى مجالهم فحسب وإنما أيضاً فى جميع المشاكل التى يثيرها الوجود الإنسانى . كل منهما كان يعد الفلسفة أساساً « بحث عن تصور للكون » . ولكن إذا كان فرويد يرى أن التحليل النفسى لا يكون إلا مساهمة فى « التصور العلمى للكون » ، فإن الماركسية كانت تهدف إلى تكوين نظرية تضم فى آن واحد الكون ومكان الإنسان فيه ، وللوصول إلى هذا الهدف سعت النظرية الماركسية إلى الارتكاز على التجربة الإنسانية والاكتشافات العلمية .

بذر الماركسيون الشك حول صلاحية المساهمة الفرويدية ، التى كان يصعب إدخالها فى إطار فكرتهم عن الكون التى شادها مفكروهم ابتداء من العلوم الفيزيائية والدراسات البيولوجية ، والاجتماعية ، والسياسية . ومع ذلك ، كما آمل أن أوضح فى هذا الفصل ، فإن جزءاً كبيراً من النظرية الفرويدية يندمج بصورة موفقة فى الفكرة الماركسية عن الكون . ويثرى جزء آخر لايقل عنه أهمية النظرية الماركسية ويصحح بعض أوجهها الشرسة أو الخشنة . سأبدأ بلمحة عن المعطيات الأساسية للفلسفة الماركسية ، فلسفة المادية الديالكتيكية . ثم أحاول إيضاح العلاقة بين النظرية الفرويدية وهذه الفلسفة .

يجب بادئ ذى بدء الإشارة إلى أن اصطلاح « المادية » يستخدم هنا بمعنى مختلف تماماً عن المعنى الدارج الذى يؤخذ فيه كمرادف للمصلحة الشخصية واحتقار الثقافة والفظاظة والخشونة . . . إلخ . فالمعنى الماركسى للمادية يعبر عن فكرة أن العالم الخارجى له وجود مستقل لايعتمد علينا أو على أى شرط آخر . فى الواقع ، أساس الفلسفة المادية هو التأكيد البسيط المعتاد أن العالم الخارجى موجود . إن الأشجار والجبال والبيوت والبلدان الأخرى توجد باعتبارها كذلك .

ومن ناحية أخرى ، فإن اصطلاح المثالية ، كما يستخدمه الماركسيون ، لا دخل

له بأى مثل أعلى ، ولذا يكون من الأسلم استخدام اصطلاح فكرى ideisme الذى ينطبق على الاتجاهات الفلسفية مثيراً للشك حول الوجود المستقل للعالم الخارجى . وتطلق الماركسية اصطلاح المثالية على كل من فكرة « كانت » التى ترى أن صفات الفراغ والزمن التى تبدو منتمية للعالم بصورة خاصة ، ليست سوى إسقاطات لفكرنا نحن ، وفكرة « بركلى » الأكثر تأصيلا والتى مؤداها أن الموضوعات المادية لا توجد إلا باعتبارها إحساسات للفكر الإنسانى أو الإلهى . كل الأفكار الفلسفيه التى تبعد عن هذا التأصيل المطلق للوجود المستقل للعالم الخارجى وتنكر الطبيعة التابعة غير المستقلة للحياة النفسية ، يكيفها الماركسيون بالمثالية .

يعد الماركسيون المثالية وجهة نظر خطرة اجتماعياً . وهم يتفقون على أنه إذا ابتعدنا عن الفكرة الواقعية وعن استقلال العالم الخارجى ، فإننا ننساق إلى معالجة المشاكل التى يضعها هذا العالم كما لو لم تكن حقيقية ، لأن الصراع ضد عالم خارجى لا يعدو أن يكون ، إلى حد ما إسقاطاً لفكرنا ، يعنى الصراع ضد شبح . ومن هنا تأتى الحجة إن المثالية تشجع الاتجاه إلى الابتعاد عن المشاكل الاجتماعية العاجلة التى تطلب وتلح فى طلب اهتمامنا . ومن ناحية أخرى ، فإن الاعتقاد فى وجود مستقل للعالم يشحذ البحث العلمى . فالطبيعة حافز ، لا لشىء إلا لأنها توجد مستقلة عن إرادتنا وتضع أمامنا عقبات يتعين تخطيها . هذا الاعتقاد يتفق كذلك مع ما تعلمنا إياه الجيولوجيا ، والفلك ، والعلوم الأخرى التى تقول لنا إن « الكون » وجد قبل ملايين السنين من ظهور الحياة . ولم يظهر الضمير إلا متأخراً ، عندما بلغت المادة الحية درجة عالية من التعقد .

فالحجة المادية تدعو إلى الاعتماد على التجربة اليومية والمعارف العلمية إلى أبعد حد . ومن جهة نظر معرفة الكائن ذاته ترتكز الماركسية تماماً على العلم وعلى الحصافة والرشد .

ما هذا إلا تقديم للفلسفة الماركسية . وهى تسمى المادية الجدلية لأنها تنادى بأن الكون يقدم بعض الملامح الديناميكية للتغير والتطور وهى ملامح تتلخص فى قوانين ديالكتيكية للتطور . ويتبنى ماركس للتعبير عن آرائه لغة هيجل تكريماً له . فقد كتب يقول « منذ حوالى ثلاثين عاماً فى عصر كانت لا تزال فيه بدعة ،

انتقدت الجانب السحرى من ديالكتيك هيجل . وكنت على وجه التحديد أعمل فى الجزء الأول من « رأس المال » عندما كانت الأكاديمية الحزينة المتصنعة الضعيفة التى يعلو صوتها ، فى هذه الأيام فى الأوساط المثقفة بألمانيا ، تنظر إلى هيجل باعتباره « كلباً ميتاً » . عندئذ تقدمت باعتبارى ، دون مواراة ، تلميذ ذلك المفكر الكبير . وقد داعبت ، فى الفصل المخصص للقيمة ، الألفاظ التى كان يستعملها والتى تعد خاصة به » . لطالما وجه النقد لماركس لأنه استخدم لغة هيجل لأن القوانين المسماة بالديالكتيكية تحمل فى طياتها غموضاً كان ماركس يدعو إلى القضاء عليه عند هيجل . ولكن مع أن هذه اللغة قد تبدو غريبة بعض الشىء . سنرى أن استعمال ماركس لها ينطبق على مجموعة معينة من العمليات عظيمة الأهمية فى العالم الخارجى وفى الفكر الإنسانى .

فلنعرض أولا أسس الفكر الديالكتيكى .

عرفت النظرية الديالكتيكية عن الحقيقة أول انطلاقها لها فى موجة القرن التاسع عشر ، فى الوقت الذى كانت تشق فيه فكرة أن العالم ما هو إلا نتيجة لتطور طويل طريقها . فثار الشك عندئذ فى كفاية المنطق اليونانى القديم الذى ينبنى على معطيات جامدة وغير متحركة باعتبار هذا المنطق عاجزاً عن تفسير نغمة تغير الكون . شيد أرسطو ثلاثة قوانين تكون إطاراً للتفكير فى كل شىء ، وهى قوانين لم تتعرض لأى انتقاد حتى بداية القرن التاسع عشر .

القانون الأول قانون وحدة موضوع البحث . وكان هذا القانون يفرق بين موضوع البحث وبين بقية العالم ، « ا » هو « ا » يملك خصائص ذاتية تميزه وتخصصه . ومن هنا سمه قانون التماثل أو الوحدة . "Loi d'identité"

والقانون الثانى قانون التناقض La loi de contradiction وهو يقول إن « ا » هو « ا » وليس أى شىء آخر . وإن « ا » ليس « ب » .

والقانون الثالث قانون استبعاد المراحل الوسطى La loi de L'exclusion du moyen terme وهو يكمل القانون الثانى مقرراً أنه بين « ا » ، « ب » لا توجد مراحل وسطى .

وهكذا كان التناقض مستبعداً ، وكانت موضوعات العالم تعالج بأعتبارها

منفصلة بطريقة جامدة كما لو كانت كل منها مخلوقة من قالب معين .

ومع هذا فأمام تطور المعارف الذى أوضح أن أشد أشكال الوجود تعقيداً تنتمى إلى أشكال أدنى وأبسط ، وأن ما كان يعد نتيجة خلق مقدس لم يكن فى الواقع إلا نقطة وصول تطور طويل ، تولدت الحاجة إلى منطق يستطيع التعبير عن هذه الوقائع .

شيد هيجل فى القرن التاسع عشر منطقاً يتلاءم بصورة أفضل مع الاكتشاف الوليد لقوانين التطور .

وقد أطلق اسم ديالكتيك ، أخذاً عن الاصطلاح اليونانى ، على منهجه المنطقى ، وكان يريد بذلك أن يعيد إلى الأذهان فن الجدل والمناقشة الذى كان يصل ، عن طريق نقض النظريات والصراع بين الأفكار ، إلى تشييد تأصيل أو جـمـّاع "Synthése" للأفكار المتناقضة مما كان يسمح بفحص الحقيقة عن قرب . وكان هيجل يرى فى صراع العناصر المتناقضة السبب الحقيقى لكل تغير تطورى ، وكان ينادى بفكرة أن كل شىء هو فى طريقه ليصبح شيئاً آخر ، وهو دائماً فى حالة تغير ، وهو ما يجعل قوانين أرسطو عاجزة عن تعريفه وفهمه . حقاً أن « ا » هو « ا » ، ولكنه يسعى لكى يصبح شيئاً مختلفاً عن « ا » . وهو لا يختلف عن بقية العالم اختلافاً جوهرياً ولكنه ينتمى إليه ويرتبط به بصورة وثيقة . وعن طريق هذا التطور لأوجه التناقض يتطور نحو أشكال وجود جديدة .

وقد كيف الموضوعات التى ينمو فيها التناقض بأنها « إيجابية » ، وسمى التناقض « بالنفى » وأطلق على التأصيل الجماع الجديد النابع من ضبط التناقض اسم « نفى النفى . أو نقيض النقيض » .

وقد أعيد تصوير هذه العملية على النحو الآتى : « قضية théu ، نقيض القضية antithesé أو جماع synthése هو نقطة نهاية العملية لبدء مرحلة جديدة من مراحل النمو .

ومع ذلك فقد كان هيجل روحانياً (بالمعنى الماركسى للكلمة) . وكان يتصور مجموع عمليات التطور كما لو كانت كشفاً لفكرة ، لعقل مطلق ، يوجد منذ الأزل وإلى الأبد .

كان هيجل يعد العالم المادى من خلق هذا الفكر ، وما تطور العالم إلى تصوير للمراحل التى يتكشف بها هذا الفكر .

وتكشف عملية الصراع والتناقض عن هذا الفكر المطلق ، مرحلة بعد مرحلة وعندما تنقضى مرحلة بسبب نضوج التناقض، تصبح فى الوقت نفسه غير واقعية . وبالنسبة لهيجل ، غير الواقعى يناقض العقل ، لأنه يناقض ضرورات العقل المطلق (أو الفكر أو الروح المطلقة) : « إن ما هو واقعى ، معقول وكل ماهو معقول واقعى » .

وتكونت من تلاميذ هيجل جماعة أسمت نفسها شباب هيجل Jeunes Hégéliens يعارضون الاستعمال المتحفظ لفلسفة هيجل . وقد استخدم محامو الحكومة البروسية فى تلك الحقبة هذا التأكيد « الهيجلى » « إن ما هو واقعى معقول » لتبرير وجود هذه الحكومة ، فهى واقعية إذن فهى معقولة وهى أحسن حكومة ممكنة فى ذلك العصر .

وكما أوضح هيجل فى كتابه عن فويرباخ Feuerbasch كان هذا تشويهاً لفكر هيجل لأن الواقعى بالمعنى الذى يقصده هيجل ليس الوجود الواقعى للشىء الذى يجعله حقيقة أو واقعاً ولكن ضرورته . إذا ما انقضت هذه الضرورة فإنه يصبح فى الوقت نفسه غير واقعى .

استخدم ما ركس ديالكتيك هيجل لفهم العالم الواقعى ، العالم الموجود استقلالا عن الفكر . فاستعماله الديالكتيكية يختلف تماماً عن استخدام هيجل له : « بالنسبة لهيجل ، عملية أو سير التفكير (الذى يذهب إلى تحويله إلى فكرة ، باعتبارها موضوعاً مستقلاً) ، هو تمويه للحقيقة ، إذ ما هذه إلا المظهر الخارجى لها أما عندى ، فعلى العكس ، ما هو فكرة ليس سوى مادة ، مترجمة ومنقولة فى رأس الإنسان . . عنده الديالكتيك معكوس . يجب قلبه لاكتشاف النواة العقلية المنطوية على حيرة »[1] .

لم يفصل ماركس نظراته الديالكتيكية تفصيلا كاملا فى أى من كتاباته . فحسب تعبيره لم يعد أن داعب ، فى مؤلفه الأساسى (رأس المال) ، تعبيرات

(١) KarlMarx : Das Kapital, p. 27

هيجل . وقد تولى زميله إنجلز ثم بعض الماركسيين من بعده شرح الديالكتيك الماركسى . ويعتمد الموجز التالى بصفة أساسية على هذه الأعمال .

تركز المادية الجدلية أولا على الطبيعة المتغيرة للواقع . ويقول إنجلز بهذا الصدد: « كل الطبيعة ابتداء من أصغر شىء إلى أكبر شىء . . . من حبة الرمل إلى الشمس . . . يتطور بهدف أن يكون وأن يكف عن أن يكون ، أن يوجد وأن يكف عن الوجود ، فهو فى حالة تغيير مستديم ، فى حالة حركة ، فى حالة تغير مستمر » . ويؤكد إنجلز كذلك الترابط بين كل الأشياء : لا يوجد شىء يمكن فهمه منفصلا . يجب أن يدرس كل شىء فى علاقته بالأشياء الأخرى . حقًّا أن هناك بعض الروابط أو علاقات أكثر أهمية من علاقات أخرى ومهمة العلم هى التمييز ، فى مجال الدراسة الخاصة ، بين العلاقات الهامة وغير الهامة . وهكذا فإن رؤية الأشياء من وجهها المتغير بالنسبة للأشياء الأخرى هو أول مبدأ من مبادئ التفكير الديالكتيكى . إن العلم الخاص يدرس التغيرات الخاصة التى تؤثر على مجاله المحدد . ويمكن أن نقول عن المادية الديالكتيكية إنها دراسة الطبيعة العامة للتغيرات التى تطرأ على مجالات البحث العلمى . ومن هذه الخاصية المتغيرة للواقع يمكن استخلاص ثلاث تيارات أساسية تصفها المالية الديالكتيكية بأنها القوانين الكونية للتغير .

احتفظ ماركس ومن بعده الماركسيون بمصطلحات هيجل لتعريف هذه القوانين . ولكن يجب أن نتجنب أن تقودنا هذه المصطلحات إلى تفسيرات خاطئة . ذلك أن هذه القوانين كما سيوضح العرض التالى ، ماهى إلا تعميمات للخصائص الذاتية للتغيرات الملحوظة فى البحث العلمى والحياة اليومية على السواء فبعد نزع ردائها الهيجلى ، يمكن اعتبارها موجزاً معقولا لطبيعة التغيرات التى تطرأ فى العالم ولاتجاهها ولنتائجها . هذه القوانين هى أولا قانون تحول الكميات إلى كيفيات ، ثانياً قانون وحدة المتناقضات . وثالثاً قانون نفى النفى (نقيض النقيض) وسأتعرض لشرحها بإيجاز على أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه القوانين مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ولا يمكن دراستها منفصلة بعضها عن بعض إلا بهدف شرحها .

يتعلق قانون تغير الكم إلى الكيف بتعدد واختلاف التغيرات التى تحدث فى الكون . وهو يميز بين نوعين من التغيرات ، التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية . التغير الكمى يحدث إذا أضفنا مثلا رملا على كمية من الرمل . فيظل الرمل رملا بصفاته الخاصة ، فقط كبر حجمه . لا حاجة بنا إلى استخدام اصطلاح وصفى جديد لتكييفه . وعلى العكس فإن بعض التغيرات تظهر صفات جديدة وتجعل من الضرورى استخدام اصطلاحات جديدة لوصفها ، إذ أنها تضيف شيئاً إلى الموضوع المتغير شيئاً لا يمكن تعريفه بالأرقام . وعند هذه النقطة يتعين استخلاص علاقة هامة بين التغيرات الكيفية والتغيرات الكميةالسابقة عليها . ويبدو أن التغيرات الكيفية تظهر على أثر ميكانيكية فى التغير الكمى كما لو كان التغير الكمى يتحول إلى تغير كيفى . يبدو أن ثمة تراكماً مستمراً للتغيرات الكمية ثم يتوقف هذا الا ستمرار ، عندئذ تظهر صفة أو صفات جديدة .

والمثال الذى يضرب عادة لإيضاح هذه العملية الكمية — الكيفية ، وبرغم ذلك لم يفقد قوته ، هو مثال تجمد الماء . عندما يخضع الماء لتغير كمى فى الحرارة يتحول إلى ثلج وهو لا يتجمد شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى لحظة يبلغ فيها صلابة الثلج ، ولكن حالته تتغير فجأة عندما تبلغ درجة الحرارة مرحلة دقيقة فى السير العادى للنمو . يلاحظ كذلك تغيرات كيفية تطرأ على أثر تغيرات كمية . فشجرة البلوط تصبح شجرة بلوط ابتداء من ثمرة بلوط صغيرة ، ولكن شجرة البلوط ليست مجرد ثمرة عملاقة . فالنمو أضفى عليها صفات جديدة . ونفس الشىء يحدث للكائن البشرى . تبدأ حياته باتحاد خليتين تتطوران كمياً وكيفياً . الواقعة الهامة المتعلقة بالكيفيات التى تظهر أو تبرز على أثر تغيرات كمية سابقة ، هو أن هذه الكيفيات لا يمكن أن تقتصر على هذه التغيرات (الكمية) أو تفصح عن نفسها بواسطتها (بواسطة التغيرات الكمية) . يظهر شىء جديد ، شىء لا يمكن أن تهدينا إليه دراسة التغيرات الكمية . وهو أمر يمكن ملاحظته فى كل مجالات البحث العلمى .

إن معنى قانون الكم والكيف ليس صعب الإدراك . هو نظرة عامة تنطبق على طبيعة العلاقة بين نوعين من التغيرات كما يمكن مراقبتها فى مجالات الحياة

الواقعية . هذه النظرة لا تتطلب بالضرورة أن كل التغيرات الكيفية تولد تغيرات كيفية بعد فترة يمكن قياسها فى بعض الحالات يبدو أن تغيرات كمية يجب أن تحدث إلى مالا نهاية . ويصدق هذا على التغيرات التى نتجت خلال نمو النظام الشمسى . لذا لا يمكن أن نؤكد أن كل التغيرات الكمية تولد حتما تغيرات كيفية . يمكننا فقط أن نعد العلاقة « الكمية — الكيفية أساساً للتعميم . وأن التغيرات الكمية تسير على نحو يؤدى إلى إحداث تغيرات كيفية . وأن هذه التغيرات الكيفية لا يمكن ردها جميعاً إلى تغيرات كمية بحتة . هذا القانون يعرف أحياناً تحت اسم نظرية التغيرات الطارئة ، وقلما نجد اليوم مفكرين ينكرون وجود مثل هذا التغير . كثيراً ما حاول البعض تفسير الكيفية الجديدة اعتماداً على دراسة التغيرات الكمية ولكن هذه المحاولات باءت جميعها بالفشل . وعلى سبيل المثال فى علم النفس تمنى البعض أن تؤدى دراسته العملية الفسيولوجية الكامنة إلى فهم العمليات النفسية بطريقة كاملة ، ولكن أكثر هذه المحاولات طموحاً كان مصيرها الفشل . حتى إن كلارك . س . هيل و ا. س تولمان وهما مفكران سلوكيان أمريكيان بارزان اعترفا بأن المسافة بين الوصف التشريحى والفسيولوجى للجهاز العصبى كما نعرفه اليوم وبين ما هو ضرورى للتوصل إلى بناء نظرى متكامل ، هذه المسافة بعيدة حتى إن تخطيها يبدو أمراً غاية فى الصعوبة . فالسلوك ، باعتباره كذلك ، ظاهرة بارزة لها خصائص محددة تميزها عن غيرها » .

وعلى ذلك فإن قانون تحول الكميات إلى كيفيات مقبول فى الأوساط غير الماركسية باعتباره تعميماً لشىء متفق عليه ويمكن تكييفه بأنه تعميم جدير بالاحترام لا يثير أى جدال أكدته الأبحاث العلمية فى مجالات متعددة . وأما قانون وحدة المتناقضات المتصل بقانون التحول فيحاول تفسير ديناميكية التحولات من كميات إلى كيفيات بمساعدة فكرة هيجل عن البناء والصراع ، وكذا بمساعدة تداخل المتناقضات فى سير التغير . وهذا القانون مؤداه أن كل الأشياء التى يمكن ملاحظتها وحدات غير ثابتة للعوامل المتناقضة ، خاضعة لعمليات تركيب إيجابية وسلبية . بعض هذه العوامل تتجه إلى الاحتفاظ بالموضوع تحت شكله الحالى فى حين أن البعض الآخر يدفع الموضوع ليتحول إلى شىء جديد . من هذه

الأشكال المتصارعة تولد حركة داخلية تبدأ بتغير كمى ، مرتفعة إلى أن تصل إلى تغير كيفى . هذا القانون ذو علاقة وثيقه بفكرة أن الأشياء هى أساساً عمليات وأنها تولد وتتحول إلى أشكال وجود جديدة .

وتماماً مثل قانون تحول الكم إلى كيف ينطوى قانون وحدة المتناقضات على حصافة وتوجد أمثلة علمية لا حصر لها تبرهن على صحته . وهكذا فإن تركيب العالم الفيزيائى فى أى شكل من أشكاله يقدم لنا توازناً متحركاً لقوى متضادة ، حتى عندما يتعلق الأمر بالتوافق بين الجزئيات الكهربية . وتعتمد العمليات الحيوية للجسم على عمليات متضادة ، عمليات البناء وعمليات الاحتراق . إن أبسط حركة من حركات الجسم تستوجب تضاد العضلات اللينة والعضلات المشدودة .

إن ما يضفى على المادية الديالكتيكية أهميتها الخاصة هو تأكيدها للدور الذى يلعبه التضاد فى التغير التطورى أو التناقض على حد تعبير الماركسية . فالمادية التاريخية ترى وحدة المتناقضات كأنها شيء أكثر من تعارض عوامل متضادة ، إذ ترى فيه تضاداً تنبع منه الحركة والتغير . وتنظر المادية التاريخية إلى الحركة الداخلية للميكانيكيات الداخلية التى تنتج عن التناقضات وتضرب على ذلك مثال عملية التطور التى تصل إلى ظهور الحياة على الأرض . فى عصر معين لم يكن النظام الشمسى سوى كتلة من الغاز المشتعل ولكن فى أحد أجزائه تحت التأثير المتناقض للتبريد والتكثيف نشأت الظروف الملائمة لظهور الأجسام الحية . ومع ذلك فإن قانون وحدة المتناقضات يبدو بصورة جلية واضحة عندما يتعلق الأمر بالتطور الاجتماعى ، إذ يرى الماركسيون أن التاريخ ما هو إلا حركة مطردة ناتجة عن الصراع بين القوى المنتجة وشروط الإنتاج ، وهو عملية وصفها إنجلز على النحو التالى : « كل الشعوب المتمدينة تبدأ بالملكية الجماعية للأرض . لدى كل الشعوب التى تتخطى مرحلة بدائية معينة تغدو هذه الملكية المشتركة — خلال تطور الزراعة — عقبة فى وجه الإنتاج . وتمحى هذه الملكية أو تلغى أو تتحول إلى ملكيات خاصة مارة بمراحل وسطى تتفاوت فى طولها ولكن فى مرحلة أعلى من مراحل النمو الزراعى التى تم الوصول إليها بفضل الملكية الخاصة تغدو الملكية الخاصة

بدورها عائقاً أمام الإنتاج – كما هو الحال فى مجتمعنا هذا بالنسبة للملكية العقارية الصغيرة والكبيرة على حد سواء إذ تظهر نداءات متخذة طابعاً ضرورياً ملحاً مطالبة بإنكار الملكية أو بتحويلها إلى ملكية مشتركة ولكن هذا النداء لا يعنى بعث الملكية الجماعية البدائية القديمة ، وإنما إقامة شكل جديد أكثر رقياً وأكثر نمواً ولا تغدو عقبة فى وجه الإنتاج ، وإنما على العكس تحررها من كل العقبات وتسمح باستخدام الاكتشافات الكيميائية والاختراعات الميكانيكية الحديثة »[١] .

بعبارات أخرى ، المرحلة الأولى للملكية المشتركة (الجماعية) تنقضها الملكية الخاصة أى تتحول الملكية الجماعية إلى ضدها . ولكن الملكية الخاصة تصبح بدورها عائقاً أمام الإنتاج وتتحول إلى نقيضها وهو الملكية الجماعية بمعنى أنها تعود إلى أصلها ، ولكن على مستوى أكثر ارتفاعاً . وهكذا فالملكية الخاصة ، نقيض ، تحمل فى طياتها نقيضها .

وتوضح هذه العملية القانون الثالث من القوانين الديالكتيكية نقيض النقيض . هذه الصيغة لا تعنى محو حالة معينة محواً تاماً وإنما تحقيق مرحلة أعلى من مراحل التطور بواسطة الصراع والوصول إلى تأصيل أو جماع جديد ، تتولد منه تناقضات جديدة تكون بدورها منبعاً لتطور جديد . وقد أوضح يونج Young نوع هذه العملية ، كما تبدو فى التطور البيولوجى إذ أن « كل الأنواع تظل فى حالة توازن مع الوسط الذى يحيط بها بتوالى فترات تتطور فيها وتموت وفترات تحل فيها محلها أشكال جديدة لتنظيمها . وبهذه الوسيلة تحتفظ الحياة باتصالها مع العالم غير الحى »[٢] .

هذا إذن هو معنى القوانين الديالكتيكية للتطور ، وإذا ما أردنا التعبير عن التفكير الديالكتيكى دون استخدام اصطلاحات هيجل فإننا نقول إنه : « يوجد عالم خارجى ، وهذا العالم آخذ فى التطور تطوراً مستمراً أحياناً دون صدام وأحياناً يكون سريعاً ، وتظهر التغيرات الكمية خصائص جديدة ، ويصحب نمو الأجهزة

(١) Anti — Duhring p. 168 — 169.

(٢) J.Z. Young, Doubt and Certainty in Science, p. 161.

والمجتمعات شد داخلى لتنبثق فى النهاية حالة توازن جديدة . هذه التعميمات تثبت صحتها فى نطاق واسع وفى مجالات علمية متعددة ، إن لم يكن فى جميع هذه المجالات ، وإن استخدامها بطريقة معقولة تجعلها تكون تشكيلا أساسيًّا رائعاً لخوض البحث العلمى إذ يرى الباحث نفسه وقد أخذ حذره ضد محاولة عزل أبحاثه عن الأبحاث التى تمت فى مجالات أخرى ، فعندما يدرس ميكانيكية متطورة لا ينسى وجود عوامل متناقضة وينتظر ظهور خصائص جديدة هذا الوجه من أوجه الماركسية يتلاءم تماماً مع خاصية التفكير العلمى .

ولنبحث الآن بأى طريقة يتوافق التحليل النفسى مع الفكر الديالكتيكى .

التحليل النفسى يصف لنا أولا الحياة العقلية باعتبارها أثراً يجمع القوى الملحة والقوى المكبوتة ، والصراع باعتباره عاملاً ديناميكيًّا مركزيًّا . ويرى الحياة النفسية وحدة للقوى المتناقضة ، مكونة من عناصر شعورية وأخرى لا شعورية يؤدى تداخلها إلى توليد الثراء والتنوع فى الفكر وفى المشاعر الإنسانية . فالمبادئ الفرويدية عن العلاقات بين الأنا الأدنى والأنا الأعلى والعالم الخارجى تزخر بالمتطلبات الديالكتيكية ، فمثلا تتحول ميول الأنا الأدنى إلى نقيضها ، وكذلك فإن الأنا نتيجة للصراع مع الواقع الخارجى . الأنا معقول فى حين أن الأنا الأدنى لا معقول ، والأنا منطقى فى حين أن الأنا الأدنى غير منطقى ، يستند على مبدأ الواقع فى حين أن الإشباع الذى يسعى الأنا الأدنى للحصول عليه يرتكز على مبدأ اللذة . وبعبارة أخرى يقدم الأنا بحق صورة لتطور كمى .

ومن ناحية أخرى يتمثل الأنا فى توافق بين مجموعتين من الغرائز المتناقضة ايروس[1] (غريزة الحياة) ثاناتوس (غريزة الهدم أو غريزة الموت) [1] . يلعب أنصارها دوراً فى كل الأنشطة الغريزية . تبحث غريزة الموت ، كما يقول فرويد ، بكل قواها لإعادة حالة الجمود (حالة اللاحركة) ، على حين تميل غريزة الحياة إلى بناء وحماية الجهاز بكل قواها . فالحياة عملية تجر صراعاً بين الميكانيكيات البناءة والميكانيكيات الهدامة ، عبر عنها إنجلز بالطريقة التالية

---

(١) إيروس إله الحب عند الإغريق .

EROS, THANATOS

« كل كائن عضوى ، فى كل لحظة ، هو نفسه وهو ليس لنفسه ، فى كل لحظة يجمع مواد غريبة ويبعد مواد أخرى ، فى كل لحظة تذبل بعض الخلايا الجسم وتتكون خلايا أخرى »[١] .

هذا العرض الفسيولوجى للبحث عن ميلاد وموت الخلايا يمكن أن يفسر تفسيراً مقبولاً باعتباره الأساس الذى انطلقت منه الفكرة المعقدة عن غرائز الحياة والموت .

وهناك مبدأ فرويدى هام يبدو فيه الديالكتيك واضحاً تمام الوضوح وهو الكبت . هذه الميكانيكية الفكرية تتكون على أثر صراع الواقع مع إلحاحات الأنا الأدنى . ففى الفكر الفرويدى يعوق الكبت الميول اللاشعورية حتى لا تتحول إلى أشكال من السلوك الشعورى يقبلها المجتمع . فالنقل deplacement ، والتسامى ، والتكوينات العكسية ، التى درسناها فى الفصل الرابع هى تحولات كيفية لميول الأنا الأدنى تنتج عندما يصل الكبت إلى نقطة تركيز حاسمة . وقد وصف فرويد على النحو الآتى العلاقة الكمية – الكيفية بين القوى المتصارعة : « لا شك أنكم لا حظتم ... أننى . . . قد أدخلت فى تسلسل اقتصاص الأسباب عاملا جديداً هو الكم ، أى مقدار الطاقات محل الاعتبار . وهنا عامل يجب أن نحسب حسابه . فالتحليل الكيفى البحت لشروط اقتصاص الأسباب ليس مبالغاً فيه . . . يجب أن نقول إن الصراع بين الميول لا ينفجر إلا ابتداء من لحظة تصل فيها الكثافة إلى مستوى معين . . ولا يقل أهمية عن ذلك العامل الكمى من وجهة نظر مقاومة الإصابات العصابية . كل شىء يعتمد على كمية اللبيدو غير المستخدمة التى يكنها الشخص فى حالة معلقة والكسر أو التجزئة التى تصيب هذا اللبيدو التى يمكن تحويلها عن الطريق الجنسى لتتجه نحو التسامى »[٢] .

فإذا ما يممنا شطر النظرية الفرويدية عن الأحلام بدا لنا طابعها الديالكتيكى بنفس الوضوح .

ففى الأحلام ، تبعاً لفرويد ، تجد الرغبات المكبوتة وسيلة للتعبير عن نفسها

---

(١) Anti — Duhring, p. 54

(٢) Introduction à la psychanalyse, p. 332 — 353

وهو ما تنكره عليها حياة اليقظة . وبهذا المعنى يكون الحلم هو النقيض أو الوجه الآخر الهيجلي لحياة اليقظة فى هذه الأخيرة يكون التفكير عامًّا ، وتتشكل الأفكار بواسطة التجريد المستقى من الواقع الواضح ، الذى يفهم بطريقة مجردة ، فى حين أنه فى الحلم تأخذ الأفكار المجردة شكلا واقعيًّا واضحا . إن الاتجاه للتعبير عن الحركة فى شكل استاتيكى يقودنا إلى وصف أى تجربة بتصور خصائصها العامة فى قالب مجرد . أما الحلم فعلى العكس يعطى لمضمونه شكلا تمثيليًّا بصريًّا . فى حالة اليقظة ، تواجه الأشياء مستقلة ومتميزة بعضها عن بعض، أما الحلم فيعكس ، بطريقة أكثر التصاقاً بحيث تصل إلى حد الغرابة ، علاقات الموضوعات بعضها ببعض ، لأنه خفيف الحركة يستطيع استعمال شىء ليحل محل شىء آخر ربما يبدو فى حالة اليقظة منقطع الصلة به . ويستطيع التوفيق فى عنصر واحد بين عدة عناصر شديدة التناقض . وقد كتب فرويد بهذا الصدد يقول : « إن أحد التأكيدات المثيرة للعجب هى تلك المتعلقة بالطريقة التى تتم بها صياغة المتضادات الموجودة داخل حلم كامن . . . فالمتناقضات تعالج بنفس الطريقة التى تعالج بها المتشابهات ويفضل التعبير عنها بواسطة نفس العنصر الظاهر . وهكذا فإن عنصراً من عناصر الحلم الظاهر الذى له نقيض يمكن أن يعنى نفسه كما يمكن أن يعنى بنقيضه كما يمكن أن يعنيهما معاً »[1] .

ومما يثير العجب ، أن يبدو الحلم أقرب للطبيعة الديناميكية للواقع من حياة اليقظة ، لأن الشعور يميل إلى تقديم صورة جامدة لما يحدث فى العالم الخارجى . وقد اعترف إنجلز بهذه الواقعة وكتب يقول : « إن هذا الثبات وهذه القيمة المطلقة — للاختلافات الموجودة فى الطبيعة — التى ننسبها إليهما لم تدخلا فى الطبيعة إلا بواسطة تفكيرنا »[2] . فى الواقع هذا تفكير يبعث الضيق فى نفس الديالكتيكى . لأنه ينادى بأن ميكانيكية التفكير التى بواسطتها يعكس الشعور الواقع ، تشوه الطبيعة الديالكتيكية للواقع وتعطى صورة غير ديالكتيكية .

والجواب الذى تعطيه الفرويدية على هذا السؤال سيكون فى اعتقادى ، توجيه

(١) Introduction à la psychanalyse; p. 163.

(٢) Anti — Duhring, préface, p. 43.

الانتباه إلى أن الأنا ، فى مواجهة إلحاحات الأنا الأدنى ، يميل إلى المبالغة فى صرامة الواقع . ونستطيع أن نقول إنه كما أن صورة الأب فى مواجهة الأنا تتجسد فى شكل قاس وشديد فى الأنا الأعلى ، يميل الواقع كذلك إلى الظهور للأنا بشكل ثابت ذى قيمة مطلقة ، مشدداً بذلك كبت الأنا الأدنى . ونستطيع فى الواقع متابعة التفسير الفرويدى وربط هذه الرؤية المنظورة الديالكتيكية للواقع بالفتوحات التى أتمها الإنسان على وسطه الطبيعى . فالطبيعة لم تعد تبدو صعبة المراس إلى هذا الحد وبالتالى فإن التصوير الذى يقدمه الأنا يميل إلى أن يصبح أقل تشدداً .

من مشكلة الطبيعة والواقع الخارجى كما يراهما الفرويدون والماركسيون ، نصل الآن إلى مشكلة صلاحية معرفتنا للعالم الخارجى وبالاصطلاحات الفلسفية نترك وجهة نظر علم الكائنات وحقيقتها إلى وجهة نظر الإبيستيمولوجى épistémologie أى نظرية المعرفة . ولكن يجب أولا أن نقول كلمة عن الخلاف الفلسفى فيما يتعلق بمعرفتنا بالعالم الخارجى ، إذا أردنا أن نقيم الأفكار الفرويدية والماركسية تقييماً سليما .

منذ أفلاطون بذر الفلاسفة الشك حول صلاحية المعلومات التى نتلقاها عن العالم الخارجى بواسطة حواسنا . كان أفلاطون يصف العالم الخارجى بأنه يمكن إدراكه إذا ما أمكن تصوره خلال الحواس وكان يحارب إمكان معرفته مستنداً إلى حجتين : أولا — ليس فى إمكاننا الحصول على معرفة محددة للعالم الممكن الإدراك لأنه لا يمتلك صفات محددة نستطيع معرفتها . كل ما يمكننا معرفته هو معتقدات وآراء متناقضة تبعاً لوجهة نظر الملاحظ . فمثلا عندما أعلن بعد أن تتجمد يدى فى بيت الثلج ثم أضعها فى حوض من الماء الدافئ أن الماء بارد ، فهل يجب أن نستنتج من ذلك أن الماء فى آن واحد ساخن وبارد ؟ وبنفس الطريقة أصف أرنباً بأنه كبير عندما أقارنه بذبابة . فهل يمكن أن يكون الأرنب فى آن واحد كبيراً وصغيراً ؟

كان جواب أفلاطون هو أن الشىء لا يمكن أن يمتلك صفات متناقضة فاذا كان كبيراً فمن المسلم به أنه لا يمكن أن يكون صغيراً . ونتيجة لذلك لا يمكننا

أن نقول إن الصفات المتناقضة تنتمى إلى شيء واحد ، ولكن بالأحرى أن الشيء يتذبذب بينها ، فيبدو متصفاً بصفة أو بأخرى تبعاً لوجهة نظر المراقب وكان ينادى بأن هذا صحيح بالنسبة لكل موضوعات العالم الممكن الإدراك . فصفات الأشياء نسبية تختلف من شخص لآخر ، ولا تعدو أن تكون تعبيراً عن آرائه ومعتقداته ، وليست صفات محددة لصيقة بالشيء .

ويتابع أفلاطون حجته مقرراً أنه إذا كان الشيء ليست له صفات محددة ، لا نستطيع أن نقول إن له وجوداً واقعياً . لأن الشيء الواقعى فى نظره يجب بالضرورة أن يكون من الممكن معرفته . ومن هنا فإن فكرة عالم الأشياء الممكنة ، الأشياء التى نراها حولنا ، ولا يمكن أن تكون واقعية تماماً ؛ فهى على أحسن الفروض تكون ذات طابع نصف واقعى .

وفضلا عن ذلك كان أفلاطون يقول إنه لا يوجد شيء فى العالم الممكن الإدراك ثابت بالدرجة الكافية ليكون موضوع معرفة محددة ، لأنه ما من شيء يظل مشابهاً لنفسه من لحظة إلى أخرى . فالعالم الممكن الإدراك بسبيل التطور أبداً ، من الميلاد إلى الممات . كيف يمكننا معرفة شيء إذا كان هذا الشيء يتغير وتطرأ عليه تعديلات خلال دراستنا له ؟ وبعبارة أخرى ، كان أفلاطون يرى الواقع حقيقة متغيرة أبداً . كان العالم الواقعى لديه عالم أفكار أبدية أزلية ، له وجود خاص ، مستقل عن العقل ويقع فيما وراء العالم اليومى الذى يدرك بواسطة الحواس . لم يكن أفلاطون يعطى للكلمة فكرة المعنى الذى نعطيه لها فى أيامنا هذه . بالنسبة له كانت الأفكار عبارة عن أشكال وقوالب لا تعدو أشياء العالم اليومى أن تكون نسخة رائعة لها . وبوسيلة أو بأخرى ما زال رفض أفلاطون لواقعية العالم المدرك حسياً ما زال يداعب خيال الفلسفة . كان وايتهيد يقول وهو على حق . إن الفلسفة الغربية منذ أفلاطون ليست سوى سلسلة من الشروح الإضافية على كتابات هذا الفيلسوف .

هذا التعبير عن رفض الواقع الذى كان موضع انتقاد عنيف من الماركسيين واضح فى نظريات كل من لوك بركلى وهيوم . أثرت كتابات هذا الأخير (هيوم) بوجه خاص ولا تزال تؤثر حتى الآن على جزء كبير من الفلسفة المعاصرة ، الذى يصنفه

أحد الفلاسفة الحديثين بأنه « أقدم معاصرينا » . ويبدو من المفيد إعطاء فكرة عن آراء هؤلاء الفلاسفة لإيضاح علاقاتها بالماركسية ومواجهتها من زاوية النظرية الفرويدية .

كان جون لوك يحارب فكرة أن العقل يمتلك معرفة لا تأتى من أى تجربة سابقة ، أى المعرفة المطبوعة بطابع مسبق أوبقبلية. عرفت فلسفته باسم L'Empirisme المذهب الأمبيريقى أو التجريبى ، بسبب التركيز على الدور الذى تلعبه التجربة فى اكتساب المعرفة ، مخالفاً بذلك الفلاسفة العقليين أتباع ديكارت وسبينوزا ولا يبنيتز . إذ أطلق على هؤلاء أنهم عقليون لا بالمعنى الذى نعطيه حالياً لهذه الكلمة ولكن لأنهم كانوا يعتقدون أن امتلاك معرفة مسبقة كان يسمح للعقل بالتفكير بمفرده ليصل إلى الحقيقة . يمكن تلخيص وجهة نظر لوك فى العبارة الآتية : « لا يوجد مفهوم لا يمر أولا بالإحساس » أى أن التجربة تسبق المعرفة والفهم .

كان لوك يعتقد أن الصفات التى يتمتع بها أى شىء نوعان : صفات تنتمى للشىء نفسه وصفات لا توجد إلا فى عقل المراقب . وقد أطلق على الصفات الأولى أنها صفات أولية وعلى الثانية أنها صفات ثانوية .

والصفات الأولية عند لوك تتعلق بالطول والوضع والوزن والشكل: إنها صفات تتعلق بوضع الشىء فى الفراغ . وكان لوك يعدها منتمية إلى الشىء باعتباره كذلك لأنها تظهر فى كل الظروف . كل شىء له شكل ووضع وحجم فى حين أن لونه وحرارته ورائحته تتغير تبعاً لظروف خارجية . وهكذا فى الظلام لا يكون للشىء لون ، وتعتمد رائحته ومذاقه على عوامل معينة لدى الملاحظ ، فإذا كان هذا مصاباً بزكام شديد فإنه لن يشعر بأى من هاتين الصفتين . كان لوك ينادى إذن بأن هذه الصفات الأخيرة لا تنتسب إلى الشىء نفسه ، وإنما هى صفات ثانوية توجد باعتبارها أفكاراً فى عقل من يلاحظها ناتجة عن أثر الشىء على حواس الملاحظ ويسبغها هو على الشىء .

أكثر من هذا ، كان لوك يعتقد فى وجود « جوهر » لصيق بالصفات الأولية ومع اعترافه بأننا لا نملك أى تجربة متعلقة بهذا « الجوهر » فإنه كان يعدها مسلمة

ضرورية تسمح بإقامة صلة بين الصفات المختلفة للشيء . وهذا الجوهر هو أساس هذا الشيء .

كانت هذه وجهة نظر لوك ، التي عارضها بركلي بفلسفته إذ أن بركلي كان يعتقد أن الصفات الثانوية توجد فقط باعتبارها أفكاراً في عقلنا[1] . ولكنه كان ينادي بأن هذا صحيح كذلك بالنسبة للصفات الأولية . فالتمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية ليس سليماً لأننا نكون معرفتنا بشكل ووضع الشيء تماماً كما نكون معرفتنا بمذاقه ولونه ورائحته أي بواسطة المشاعر الحسية . فالصفات الأولية والصفات الثانوية في نهاية المطاف ليست سوى مشاعر حسية . والدفاع عن فكرة أنه فيما وراء هذه المشاعر يوجد « جوهر » ما لصيق بالشيء يعني الذهاب إلى ما بعد خاصيته المباشرة . إنه خرق للمبدأ الذي ينادي به لوك والذي من مقتضاه أنه لا يوجد شيء مفهوم لا يمر أولا بالإحساس . نحن لا نمتلك ملكة حسية تستطيع بها إدراك هذا « الجوهر » . وبالتالي لا يحق لنا المناداة بوجود هذا الجوهر .

إذن لدى بركلي يكون مجموع الحقيقة الخارجية وليس فقط جزءاً منها هو الذي يوجد في شكل فكرة في عقلنا . كان بركلي يقول : « إن الوجود هو أن يكون الشيء محسوساً به . . فالسماء والأرض لا وجود لهما إلا من خلال عقل يشعر أو يدرك وجودهما » .

ماذا يحدث إذن للأشياء عندما نكف عن الإحساس بها ؟ هل تتوقف بدورها عن الوجود ؟ كان بركلي يرد على ذلك بأن كل الأشياء محسوسة بواسطة الله . وكان يقول : إن أفكارنا تأتي من العقل الأبدي الإلهي . ونتيجة لذلك فعندما يكف عن الإحساس بالأشياء تظل برغم ذلك موجودة نتيجة لمبدأ الإحساس الإلهي .

ولكن بركلي بهذه الأجابة كان يعرض نفسه لأن يتهم بأنه غير منطقي مع نفسه وقد تولى الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم توجيه هذا الاتهام إليه .

كان هيوم يقبل فكرة بركلي القائلة بأن الحقيقة مكونة من إدراكات حسية ولكنه لاحظ أننا لا نمتلك أي خبرة حسية مباشرة بالله وإنه تبعاً لبركلي نفسه لا يحق لنا أن نعتقد في وجود شيء لا نحس به مباشرة بواسطة حواسنا ، فلا يحق

(١) أو في عقل الله ، كما سنرى .

لنا الادعاء بوجود الله . وهكذا فالحجة التى استخدمها بركلى ضد لوك لانتقاد واقعة أننا لا نمتلك أى خبرة حسية مباشرة لإدراك « الجوهر » ترتد إليه . إن أذ بركلى استبدل « جوهر » لوك « بالله » .ووجهتا النظر هاتان تفوق معرفتنا المكتسبة بواسطة الحواس ، لذا فكلتاهما غير مدعمة .

لم يقتصر هيوم على انتقاد فكرة الإحساس الإلهى . فقد طبق فكره المنطقى على دراسة الإحساس الإنسانى البسيط ، فكرة الأنا القادر على الشعور . ويستعين مرة أخرى بالتجربة المباشرة . لا يوجد فى التجربة شىء يمكن أن يبرر فكرة الأنا لذا فعندما أتغلغل فى أعماق ما أسميه « أنا نفسى » . أصطدم دائماً بإحساس خاص ، بالحرارة أو البرودة أو الضوء أو الظلال أو الحب أو الكراهية أو الآلام أو اللذة . فى كل لحظة أراقب فيها نفسى أشعر بشىء ما . الإنسانية ما هى إلا مجموعة مشاعر مختلفة تتلاحق بسرعة لا يمكن تصورها وهى فى حالة حركة دائمة .

أسرع الماركسيون فى استخلاص نتيجة هامة من هذه الانتقادات التى وجهها هيوم لبركلى . وهذه النتيجة لا يمكن أن يتجنبها فيلسوف مثالى ، مادامت الحقيقة الخارجية موجودة فقط باعتبارها أفكاراً وإحساسات فى عقلنا ، وما دامت الأفكار التى لا تستطيع أن تكسبنا معرفة مباشرة هى أفكارنا نحن فلابد أن تكون النتيجة هى أن الحقيقة الخارجية هي فكرتنا . أو بالأحرى فكرتى لأن كل شخص له أفكار منسوبة إليه . ونعت الملكية مستخدم فقط من باب الأدب لأنه ما من فيلسوف مثالى منطقى مع نفسه يمكنه أن يطالب بالاعتراف بوجوده الذاتى لأن معرفته بنفسه من المحتمل أن تكون مؤسسة على مشاعره الحسية . وتبعاً لنظريته لا يمكن اعتبار هذه المعرفة مرشداً لحقيقة أبعد من ذلك فإذا ما نادى بأنه يعرف حقيقته التى تتعدى مشاعره الذاتية الحسية فإنه يتخلى عن جزء أساسى من النظرية المثالية . وهى أننا لا يمكننا أن نحصل على معرفة عن غير طريق المشاعر الحسية ، وبعبارة أخرى المثالى ليس فقط محصوراً لمساندة وضع معتزل يقوده إلى تأكيد أنه يوجد بمفرده ، وأن بقية العالم ما هو إلا أفكار نابعة من عقله . إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً إلا بالنظر إلى نفسه والتأكد من وجوده ذاته . ومع ذلك فهو مجبر على افتراض وجوده هو باعتباره شاعراً بالأحاسيس حتى يكون وضعه المعتزل وأنه بذلك ليجعل من الوضع المثالى متناقضاً مع نفسه .

وتعد فلسفة « إيمانويل كانت » محاولة لتخطى صعوبة الاعتزال المثالى .

وتصل هذه الفلسفة إلى ذلك بمناداتها بوجود عالم خارج الفكر الإنسانى عالم يصعب معرفة طبيعته الواقعية . وهكذا يشيد « كانت » تمييزاً بين العالم كما يبدو لمشاعرنا الحسية والعالم كما هو . ويسمى العالم الذى يبدو لمشاعرنا الحسية عالماً ظواهريًّا Le monde phénoménal ويسمى العالم الذى يتخطى مشاعرنا بالنونيا Le monde nouménal أى الشيء بالذات الذى يجاوز بطبيعته نطاق التجربة والإدارك الحسى وبين هذين العالمين يوجد فى رأيه "بعد" من الصعب تخطيه لأن عقولنا مركبة بحيث تستطيع أن تضيف بعض صفات عامة إلى ما نشعر به ، وهكذا نشعر بالأشياء فى الزمان والمكان ونضفى عليها علاقات السبب بالأثر لا لأن الأشياء توجد حقيقة فى المكان والزمان مرتبطة بعلاقة السبب بالأثر وإنما لأن طبيعة عقلنا من مقتضاها خلع هذه الصفات على كل ما نشعر به .

كان « كانت » يؤسس هذه الفكرة على مسلمة أن العقل يملك معرفة مسبقة يخلطها مع المعرفة النابعة من تجربة الحواس . وكانت حجته للدفاع عن المعرفة المسبقة تقوم على النحو التالى .

ليس للأطفال معرفة مضبوطة بالمسافات ولا بالمرئيات ، ولكنهم مع ذلك قادرون على تمييز الأشياء التى توجد أمامهم والأشياء التى توجد خلفهم والأشياء التى توجد إلى جوارهم . وهم يسعون إلى الوصول إلى الأشياء التى تعجبهم ويبتعدون عن الأشياء التى لا تعجبهم . وهذه المعرفة بالعلاقات الفضائية عن أفكار الأمام والخلف والجوار لاتتطلب تجربة سابقة : الأطفال يمتلكونها وهذا هو كل شيء ولذا يساند « كانت » فكرة أن الفضاء فكرة قبلية ، توجد قبل أى تجربة . إذا كان الطول يبدأ بهذه الفكرة عن الفضاء فإن مشاعره الحسية لن تكون إلا فوضى ولكن بواسطة هذه الفكرة الموجودة سلفاً عن الفضاء يستطيع ترتيب التجارب وربطها بعضها ببعض . يمتزج الفضاء بتجربته عن الأشياء على نحو يشعر به أن الأشياء موجودة فى الفضاء . وكذلك الأمر فيما يتعلق بفكرة الزمن . إذ يبدو الطفل عارفاً بمعنى ما هو قبل وما هو بعد والآن وفيما بعد ، وهذه المعرفة لا تعتمد على أى خبرة سابقة فيفرض بذلك نظاماً زمنيًّا للأحداث تماماً كما يفرض لها نظاماً فضائيًّا .

وقد استمد « كانت » من الرياضيات حججه المقنعة عن وجود معرفة قبلية .

فتوكيد ٢ +٢ = ٤ وإن الزوايا الثلاث لمثلث = زاويتين قائمتين صحيح فى كل الظروف . ونحن مقتنعون بحقيقتها . بصرف النظر عن التجربة ، لأننا لا نستطيع أن نجرب إلا عدداً محدوداً لإثبات صحة هذه التأكيدات . وإذا كانت التجربة هى العامل الحاسم فإننا لا نستطيع إلا تأكيد هذه الحالات المجربة . ومع ذلك فنحن نؤمن دون تردد أن هذه التأكيدات صحيحة فى كل الحالات . وعلى هذا النحو فإن لدينا معرفة قبلية . ولما كانت الرياضيات تتعلق أساساً بالعلاقات الفضائية الزمنية فهى تثبت الطبيعة القبلية للفضاء والزمن . إن تنويه فلسفة « كانت » بالبعد بين العالم كما يبدو والعالم كما هو ، تكتسب قوة من المعارف الطبيعية الحديثة لأن الطب الحديث يوضح العملية المركبة التى بواسطتها تصل المشاعر الحسية بالأشياء الخارجية إلى مخنا . فمثلا الموجات الصوتية النابعة من شىء تتحرك باعتبارها مثيرات ، تصطدم بنهايات عصبية فى العين وتكون أصل سلسلة معقدة من ردود الفعل الكهربائية والكيماوية التى تحدث بهذا المكان . وتمتد هذه الردود على طول العصب البصرى الذى يجعلنا نعلن أننا نرى الشىء . وبين الشىء كما هو فى العالم الخارجى وبين هذه الاضطرابات فى الغشاء البصرى التى تكون إحساسنا ، توجد إذن عدة مراحل للتحول تجعل الناتج النهائى لهذا التركيب العصبى المعقد بعيداً عن الشىء الذى حركه . كل ما يمكننا أن نقوله هو أن هذه النتيجة ذات علاقة رمزية بالشىء وأنه يمكن عن طريق إدارة بارعة ممارسة نشاط على الشىء المرموز له . هكذا يمكن تقديم الحجة المستقاة من الطب الحديث .

وأمام هذه الحجج التى لا تزال تؤثر تأثيراً كبيراً ، تقدم الماركسية معارضة قوية تعتمد على حسن الإدراك . فكما رأينا يصف التكنيك الماركسى بالمثالية كل الأفكار التى تجعل الوجود الخارجى يعتمد جزئياً أو كلياً على عمليات عقلية . ثم توضح أن هذه الأفكار تقود حتما إلى أفكار معتزلة . وتؤكد النظرية الماركسية أننا فى الحياة العلمية نجرب صحة معرفتنا بالعالم الخارجى وأن امتداد رقابتنا عليه توضح سلامة معرفتنا .

كان فرويد يؤيد وجهة النظر هذه : « إذا لم تكن هناك معرفة متميزة عن آرائنا نتيجة أنها تطابق الواقع ، فإنه يكون فى إمكاننا تشييد جسور من الورق

أو من الطوب ، ولأمكننا حقن المريض بعشرة جرامات من المورفين بدلا من سنتيجرام ولا ستطعنا تخدير شخص بالغاز المعد للدموع بدلا من الإتير »[١] .

لا يميل الماركسيون إلى الإسهاب فى الكلام عن دقائق الحجج المثالية وإنما يفضلون دفنها بالتركيز على حتمية الاعتزال فى كل شكل من أشكال المثالية . وفى سبيل استبدال النظرية المثالية يشرحون العلاقة بين معرفة العالم الخارجى بواسطة نظرية التقليد والتفكير التى تبدو متناقضة مع أكثر أوجه فكرهم ديناميكية . فلنين وإنجلز كانا يتمسكان بفكرة أن أفكارنا تعكس العالم الخارجى بنفس الطريقة التى تعكس فيها المرآة الأشياء . وقد كتب لنين فى هذا الصدد : « المادة عبارة عن مجموعة فلسفية تستخدم للإشارة إلى حقيقة موضوعية بواسطة الإحساس الإنسانى وهذه الحقيقة تنسخها إحساساتنا وتصورها وتعكسها ، ولكنها توجد مستقلة عن هذه الإحساسات »[٢] .

وفى رأيى أن هذه الفكرة مشتقة من الاتجاه الذى يعد الإحساس قبل كل شىء وظيفة من وظائف الرؤية .

عندما نتساءل : هل العالم حقيقة كما يبدو لنا ، فنحن نستخدم لا شعوريًّا التشبيه المتعلق بصورة الشىء والشىء المصور ، أو تشبيه المرآة بالشىء الذى تعكسه . ولا نتساءل عادة إذا كانت الأشياء تصدر فى الواقع رائحة أو صوتا مقابلا لذلك الذى ندركه منها بواسطة الشم أو الأذن . فنحن لا نستخدم التشبيه لحواس أخرى غير حاسة الرؤية .

ويبدو أنه من الأسلم أن نعتبر إحساساتنا لا انعكاسات للعالم ، وإنما ردود فعل أو أجوبة لهذا العالم . عندما نقول إننا نرى العالم فإننا نستجيب له على المستوى البصرى . إذا نظرنا إلى الأشياء من هذه الزاوية ، فإن مسألة معرفة ما إذا كان العالم مثلما نراه إذا كانت أفكارنا تعكسه بصورة صحيحة أو لا . أقول إن المشكلة لا توضع بهذه الصورة التى تعرضنا للتخبط .

---

(١) Freud : Nouvelle conférence, p. 191

(٢) W.I. Lénine, Matrerialismum und' Empiriokrtizismus, p. 124 Dietz Verlag Berlin, 1964.

إن تقدير علاقتنا مع، العالم من هذه الزاوية أى باعتبارها تبادل إحساسات لا ينكر حقيقة العالم الخارجى . فنحن بعد كل شىء ، جزء من العالم ولسنا غرباء أو بعيدين عنه . وما تاريخ الإنسانية إلا جزء من تاريخ العالم . وقد أدركت الماركسية هذا . ولكن علاقتنا بالعالم أكثر تعقيداً بكثير مما أوضحته الماركسية . فالماركسية فى نبذها الكامل للمثالية نسيت إلحاح وتأثير الماركسيين أنفسهم على الطبيعة النشيطة للفكر الإنسانى ، وتأثيرها على المادية الميكانيكية التى ترى الإنسان مجرد لعبة سلبية للضغوط التى تحيط به . . ولقد فهم الفلاسفة المثاليون الطبيعة الإيجابية للحياة النفسية ، ولكنهم عجزوا عن تطبيقها على عالم الواقع الاجتماعى . فقد فكروا بمصطلحات مجردة دون أن يأخذوا فى الحسبان العالم الخارجى . وهذه العملية لم يصححها نمو علم النفس .

وهذه النقطة أدركها ماركس عندما كتب « وهكذا نمت المثالية العامل الإيجابى على العكس من المادية غير أنها نمته بطريقة مجردة . . . »

هذا التلميح لا حظه الماركسيون بالكاد ، وهو تلميح كان يجب أن تتوجه نحوه المادية وهى تطور نفسها . فالمادية باستخدامها للمناهج العملية يمكنها أن تفتح مجال الحياة الذاتية المتروك حتى يومنا لشعوذة الفلاسفة المثاليين المجردة .

إن نبذ المناهج المثالية طالما كانت مؤسسة على اعتبارات وجدانية وتأملية معزولة عن الواقع الاجتماعى شىء ، وإنكار وجود نشاط نفسى تتخذ منه المثالية نقطة بداية للتأمل شىء آخر ، وإلا فإننا نلقى بالنواة وبالقشرة معاً .

إن الاهتمام المعاصر بعلم النفس وبالتحليل النفسى يظهران أن الإنسانية فى وقتنا هذا تقيس نفسها بهذا النوع من المشاكل أو كما لاحظ ماركس الإنسان مشغولا بالمشاكل التى يكون حلها فى متناوله متعلقاً بتقدمه فى المستقبل . وحتى الآن كان شاغل العلم هو الانتصار على العالم الخارجى حتى إنه لم يكن فى مقدوره تخصيص وقت للمشاكل التى تثيرها الطبيعة الداخلية فى الإنسان . أما الآن فتتطلب هذه المشاكل اهتماماً من الدرجة الأولى . ويجب أن تكف عن الانتماء إلى مجال التأملات الفلسفية وأن تصبح موضوع نظام علمى صارم . وعلى الرغم من أن برتراند راسل يقرر أن العلم لم يتقدم بعد بصورة تكفى لحل المشاكل

الفلسفية فإننى أعتقد أن العلم قادر اليوم على دراسة طبيعة العمليات العقلية التى لا تعد مجرد انعكاس للعالم ولأفكاره وتصوراته . فالعلم يسعى لمعرفة بأى طريقة تؤثر — الأمانى والآمال والمخاوف والشكوك — تأثيراً إيجابياً على الصورة التى يكونها الإنسان للواقع . فالواقع الاجتماعى شىء وضعه الإنسان بين نفسه وبين وسطه الطبيعى الجغرافى ، وكثير من الماركسيين يتفقون على هذه النقطة . ومع ذلك فهذه الحقيقة الاجتماعية تمتزج مع معقوليات وعادات وأشكال تفكير تثبت نقصاً فى النضج العاطفى . إن التحليل النفسى هو الخطوة الأولى الهامة نحو فهم منبع هذا الوضع وطبيعته ، وما من فلسفة أو تصور للعالم يريد أن يكون أكثر من مجرد تأملات أكاديمية ، يستطيع السماح لنفسه بتجاهل مساهمة النظرية الفرويدية إذ لابد من أن يدمجها فى تصوره . وهذا صحيح بوجه خاص فيما يتعلق بالماركسية لأنها أكثر المحاولات المعاصرة جدية لتكوين فكرة عن العالم تبدو فيها علاقة الإنسان بالكون ذات أهمية أساسية .

٩ ـ بعض تطبيقات

كان هدفى فى خلال الفصول السابقة إظهار أن التحليل النفسى والماركسية وسيلتان للوصول إلى معرفة الإنسان ، وأن كلا منهما تثرى الأخرى . ولهذا السبب كان ضروريًّا أن أصف هذه النظريات بطريقة مفصلة إلى حد ما ، مع ترك بعض المشاكل المتعلقة بها حتى أتجنب الغموض فى العرض العام ــ وسأتعرض فى هذا الفصل لدراسة بعض هذه المشاكل بعد أن أمهد التربة لذلك .

أود أن أبرز فى البداية أن المحاولة الفرويدية ـ الماركسية ليست محل مفاضلة عند البحث وأنها لا تقدم لمشاكلنا حلولا جاهزة . وإنما تكمن فائدة هذه المحاولة فى أنها تهدينا إلى علامة ، إلى توجيه ، إلى إطار عام عند دراسة أى مشكلة . وتوحى إلينا بالطرق التى يجب أن نوجه إليها أبحاثنا . وعلى ذلك فإذا كنا نرغب فى دراسة الصراعات الأساسية الحالية على ضوء هذه المحاولة فإننا لن نبحث فقط العوامل الاجتماعية والسياسية الموضوعية التى تكمن تحتها ، وإنما سنحاول كذلك إيضاح العوامل الشخصية الذاتية التى يمكن أن تزيد من أهميته هذه الصراعات وتدس فيها السموم وتضع عقبات فى طريق مناقشة معقولة ، فمثلا الأسباب المباشرة للتوتر بين الشرق والغرب تنبع كما هو واضح من صراع بين عقائد (ايديولوجيات) مختلفة فيما يتعلق بالاقتصاد ، والسياسة ، ونظام حكم أمة ، وهى عقائد تتجسد فى نظم اجتماعية مختلفة . هذه الأسباب تزداد حدة وخطورة بالشكوك ، وسوء التفاهم والخوف . وهى أسباب لا تتسم باستنادها إلى العقل كالأسباب الأولى ، ولكننا يجب أن نحللها حتى يمكن أن نحافظ على تعايش سلمى وبالتالى نصل إلى حماية الحياة الإنسانية على هذا الكوكب . إذا كانت هناك فرصة لمؤتمرات دولية تنعقد بصفة منتظمة تضم أولئك الذين يدركون آخر ما وصل إليه التقدم فى مجال علم النفس ، بهدف إخراج هذه العوامل غير المعقولة من الظلمات إلى النور ، والتى تقف حجر عثرة فى سبيل التفاهم ، فإن مهمة رجال السياسة الذين يجتمعون لمناقشة مشاكل السلام تغدو أكثر يسراً وسهولة .

تدرس الماركسية والتحليل النفسى بطريقتين مختلفتين ، ما ليس معقولا

فى حياة الإنسان . تعالج الماركسية اللامعقولية فى النظام الاجتماعى ، التى تمنع الإنسان من استخدام الاكتشافات الفنية التى يقدمها له العلم على أحسن وجه . ويدرس التحليل النفسى القوى اللامعقولية فى روح الإنسان التى تعوق تطور الإنسان ليصبح كائنا ناضجاً معقولا ، يعرف كيف يستعمل العلم لتحقيق رخائه . إن عالماً تسوده اللامعقولية يتطلب دراسة علمية للامعقول سواء فى ذلك ما كان أصله شخصياً أم موضوعياً . وهو ما يبرر كلاً من المحاولة الفرويدية والمحاولة الماركسية .

ومع اتفاقنا على أن الموقف العالمى الحالى ملح فى ضرورة القيام بدراسة عميقة للعوامل التى تصدر عنها هذه اللامعقوليات فإننا برغم ذلك نتساءل عما إذا كان التحليل النفسى والماركسية يعدان وسيلتين تسمحان حقيقة بالقيام بهذه الدراسة بشكل صالح علميا . يدعى غالبا أن أى نظرية علمية يجب أن تكون بالضرورة قادرة على التنبؤ وأنها تمكننا من أن نحدد سلفا مجرى الحوادث ، وأن نقرأ الغيب بطريقة تتضمن قدراً معقولا من الصحة .

هذا النقد له وزنه خاصة فيما يتعلق بالماركسية التى ترى فى نفسها نظرية علمية ، نظرية تشمل ، فى فكرة عن العالم ، كلا من الاقتصاد والتاريخ والفلسفة . وينادى تلاميذها بأنها مرشد للواقع ، وخاصة الواقع الاجتماعى .

ويرد نقاد الماركسية على هذا بقولهم إن الأحداث قد قوضت النبوءة الأساسية لماركس المتعلقة بتطور المجتمع والتى كان حاصلها أن تطور الرأسمالية سيكون مصحوباً بتزايد فقر الكتل الجماعية وهو ما لم يحدث . ومن هنا يتعين التخلى عن الماركسية ورفضها .

وإذا حاولنا أن نعرف هدف أى نظرية علمية فإن عدم جدوى هذا النقد يبدو واضحاً . إن أى نظرية علمية لها دور مزدوج فهى يجب أن تفسر وتتنبأ . لكى تفسر تجمع عدداً من العوامل التى قد تبدو مقطوعة الصلة بعضها ببعض وتجعلها مفهومة ومعقولة ، وتشيد وبيات تكون كلاً متسقا منسجماً . ولكى تتنبأ ، معتمدة على هذا الكل المتسق المنسجم توجه انتباهنا إلى أحداث يمكن أن نأمل حدوثها فى المستقبل . بمفهوم ما ، تهدف النظرية العلمية إلى جعل

تفسيرها يشمل عوامل لم يتم بعد ملاحظتها » ، ولكن لهذا أهميته لأنه يكشف ضعف النقد الموجه للماركسية ، العلاقة بين التنبؤ والنظرية التى يؤسس عليها التنبؤ ليست بالضرورة علاقة منطقية . إن أحسن ما يمكن أن تقوم به نظرية علمية ، هو أن تتصور تطوراً ممكناً ، وسواء أحدث هذا التطور أم لم يحدث ، فإن هذا لا يجر بالضرورة نقض أو تأكيد النظرية . فبعض النظريات العلمية ، خاصة المتعلقة بالعلوم الطبيعة ، لها قدرة كبيرة على التنبؤ ، والبعض الآخر من النظريات المتعلقة بالعلوم الإنسانية على وجه الخصوص ، قدرتها على التنبؤ ضئيلة ، ذلك أنه بالنسبة لهذه الأخيرة ، أى النظريات المتعلقة بالعلوم الإنسانية ، عدد المتغيرات كبير جداً إلى درجة أنه لا يمكن أن يتوقع درجة عالية من دقة التنبؤ وصحته والقدرة الضئيلة على التنبؤ تبدو القاعدة العامة وليست الاستثناء فى مجال النظريات العلمية المتعلقة بالعلوم الإنسانية . وضرورة اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة تأتى من كونها قادرة على التفسير أكثر من قدرتها على التنبؤ.

بل إننا نستطيع أن نقول إنها صالحة بقدر تعلقها بأحداث ماضية ، عندما تكون قادرة على تفسيرها بربطها الحاضر بالماضى . وهو ما يجعلها حكيمة بعد فوات الأوان ، كما يقال ، وهو موقف ليس مثيراً للاحتقار . فبعد كل شىء ، هذا هو معنى وقفة التعلم من التجربة للخروج بدرس من الأحداث والارتقاء إلى مستوى مجابهتها . والتوقعات فى الوقت الحالى فى مجال العلوم الإنسانية غير مؤكدة ، ولا يمكن التعبير عنها إلا فى شكل عام للغاية . وعندما تنبأ ماركس بتزايد فقر الكتل البشرية ، نتيجة لتطور الرأسمالية ، صاغ نبوءته بصورة محددة إلى درجة بعيدة ، وقد أدى هذا إلى أن تسلح البعض بهذا التنبؤ للمناداة بأن الأحداث أثبتت أنه لم يكن على صواب . ومع ذلك ، إذا كان ماركس قد تنبأ بعدم استقرار متزايد للرأسمالية وبشعور متعاظم بعدم الأمان واللامعقول (أى بصيغة عامة) فهل كان يمكن اعتباره مخطئاً خطأ كبيراً ؟ نستطيع أن نقول ونحن على حق إن النبوءة تحققت فى المبدأ وإن اتخذت تفاصيل الأمور اتجاها مختلفاً بعض الشىء .

تعتمد الانتقادات الموجهة للفرويدية والماركسية على ضيق أفق فيما يتعلق

بدور العلم ، وعلى خلط فيما يتعلق بالدور الذى تلعبه النظرية فى هذا المجال فنى مفهوم معين يمكن استخدام كلمة « نظرية » فى مجال العلوم تماماً بالطريقة نفسها التى تستخدم بها فى مجال الروايات البوليسية فمن خلال تسلسل الأدلة يسعى المخبر إلى إعادة قطعة ناقصة بالاعتماد على نظرية ، وباللجوء إلى تحقيق أكثر عمقاً يمكن إثبات صحة النظرية فتصبح واقعاً ويتم الكشف عن الدليل الناقص . وبطريقة مشابهة ، فإن دورة الدم أو مصادر النيل كانت نظريات إلى أن اكتشفت وقائع متعلقة بها .

وبهذا المعنى ، فإن النظرية توجد للحلول محل واقعة غائبة ، وهى نقطة قررها الأستاذ ب . ك . سكينر ، السلوكى الأمريكى ، بعبارة أخرى يمكن اعتبار العلم محاولة لوصف ظواهر الطبيعة وترتيبها .

ولكن يوجد معنى آخر للعلم مقتضاه أنه يلعب دوراً فى التأصيل ويتطلب أن توضع بعض الفروض . هذه الفروض تربط الوقائع التى يمكن أن تبدو متباعدة وتفسر ترابطها تفسيراً عقلياً وهذه الفروض يمكن أن تتأكد صلاحيتها لأنها تفتح طرقاً جديدة للبحث ، ويمكنها كذلك أن تتنبأ بالأحداث المستقبلة برغم أن التنبؤ فى العلوم الإنسانية يكون بالضرورة محدداً ، غير أن هذا لا يستتبع أن نكتفى بالاهتمام بأوجه النشاط الإنسانى التى تركن إلى التعبير الكمى الاستاتيكى وهو ما يبدو أنه رأى أولئك الذين يوجهون النقد لفرويد ويصفونه بأنه هاو وتنقصه الروح العملية .

الموقف العلمى هو موقف أولئك الذين هم على استعداد للملاحظة الدائبة بعناية ، الذين يبنون نظرياتهم دون أن يأخذوا فى الحسبان ذوقهم أو نفورهم الشخصى ، الذين يخضعون نظريتهم للتجربة الواقعية بقدر الإمكان ، الذين يعرفون التخلى عن هذه النظريات عندما تثبت وقائع جديدة عكسها .

إذا كان الباحث العلمى يعالج شيئاً يمكن قياسه والتعبير عنه كمياً ، فإنه يقيس . أما إذا كانت مادة موضوعه لا يمكن قياسها فإنه لا يتخلى عنها وإنما يكتفى بتعميمات تفسيرية ويبحث عن التفسير بطريقة تتسم بالمعقولية بقدر الإمكان . وربما بدت الروابط بين الوقائع غير متصل بعضها ببعض .

وهذا هو ما حاول فرويد أن يقوم به . وعلى حد تعبير أحد النقاد الحديثين الذين يتمتعون بقدر كبير من المهارة : « تكونت الثورة الفرويدية أولا من تشييد واقعة أن العصابيين والتقلبات الجنسية ، وكذا التصرفات الغريبة للأشخاص العاديين ، تعبر عن نوع من عدم النضوج ، ثانياً من إدخال مبادئ السببية والحتمية فى هذه المحاولات . ويقوم وصف ميكانيكيات دفاع الأنا المختلفة التى بواسطتها نضع أنفسنا فى مأمن من الحقيقة المعادية والشعور بالإثم الداخلى يقوم على أساس من الملاحظة العملية العميقة . هاتان النقطتان تكونان المساهمة الفرويدية الدائمة فى معرفة الإنسان »[1] .

ويمكن هنا أن نضرب مثالا يوضح ضيق نطاق أى موقف للفرويدية ويبرز أهمية التفسيرات الفرويدية . يدافع الأستاذ ايسنك عما يسميه موقفاً غير تاريخى فى أحد فصول كتابه « ديناميكية القلق والهستيريا »[2] ، الذى يعالج نظرية علم النفس . ويريد بالموقف غير التاريخى أننا عندما نكون أمام عرض من الأعراض التى تواجهها الفرويدية باعتبارها تشير إلى وجود عوامل مختفية تسببه ، فإننا يجب أن نعد هذه الدراسة من العوامل السطحية فالعارض ما هو إلا عادة سيئة اكتسبت بطريقة ما ويتعين تعلم طريقة التخلص منها « الأعراض إجابات مكتسبة من نوع (S-R) Stimulant — Réponse أى منبه استجابة (م.س) بمعنى أنها عندما تختفى أو نعمل على القضاء عليها فإن العلاج يكون قد تم » . وهو يستخلص حجته الأساسية من علاج سلس البول (عدم إمكان حجز البول) بمنهج شرطى . يكون سلس البول عند الأطفال مصحوباً بصفة عامة بقلق وانعدام ثقة فى النفس وقد أثبتت تجربتى الخاصة فى عيادات توجيه الأطفال أن إضفاء هذه الحالة يترتب عليه غالباً إنقاص القلق وزيادة الثقة فى النفس . يستعمل أى نظام للإنذار بالخطر يتكون عادة من مأخذين (بريزتين) لمجرى تيار كهربائى متصلين بواسطة ملاءة سرير ومغطيين بملاءة أخرى . ويوصل المأخذان ببطارية . فإذا ما نسى

---

(١) John Mc Leish : The scienc of behaviour Barrie and Rockliff with Gemberton Publishing Co. , 1963, p. 157.

(٢) Eysenck : The Dynamics of Anxiety and Hysteria, p. 268, Routjeuge and Kegan Paul; 1957

الطفل نفسه سيبلل الملاءة العليا للسرير والحشية منشئاً تياراً قصيراً بين المأخذين البريزتين . فيحرك هذا جرسا يوقظ الطفل . فيضطر هذا إلى الاستيقاظ وإيقاف الجرس والتخلص من باقى فضلاته فى دورة المياه . وبعد فترة معينة يستيقظ الطفل ممتلىء المثانة من تلقاء نفسه دون أن يبلل فراشه ، ودون حاجة إلى تنبيه الجرس . فانعكاس اليقظة الذى كان يثار بواسطة الجرس أصبح يثار بواسطة امتلاء المثانة ، بمعنى أن الانعكاس أصبح شرطياً . وفى حالات كثيرة يكون لهذا تأثير نفسى مفيد للطفل .

ومع ذلك فإنه يبدو أن هذا الأثر لا ينتج من إقامة استجابة شرطية . فهذا العلاج يذهب جنباً إلى جنب مع الاهتمام والانشغال اللذين يبديهما للأطفال أشخاص بالغون هم أعضاء جماعة العلاج النفسى أو العقلى . وقد بدا لى هذا العنصر بطريقة تدعو للدهشة وتثير الاهتمام . فقد اكتشف أن عدداً من الآباء الذين قدمت لهم هذه النظم لم يتفهموا جيداً كيفية الاستعمال سواء نتيجة لخطأ فى التلقى أو لمجرد الغفلة . على أى حال لم يكن الجرس يدق وبرغم ذلك فإن سلس البول كان يختفى . ويمكن الوصول إلى نتائج ناجحة بالعناية عن طريق الوسن (التنويم المغناطيسى) والإيحاء . ولذا فإن بعض أطباء النفس يعطون الطفل ورقة يدون فيها الأيام والليالى التى لا يبلل فيها نفسه وتؤدى هذه الطريقة إلى الوصول إلى علاج منتج . إن ما يحدث على ما أعتقد ، فى هذه الحالات هو أن التشجيع والاهتمام الودى اللذين يبديهما أطباء النفس وعلماء النفس أو الممرضات يقوى « أنا » الطفل ، الذى يستطيع نتيجة لذلك مواجهة مشكلته بطريقة أكثر فاعلية . وأما التفسير المأخوذ من النظرية الشرطية فهو ذو قيمة محددة جداً ، وتعد المحاولة الفرويدية ضرورية لشرح ما يحدث .

ولكن هناك سبباً آخر يجعل المحاولة التاريخية الفرويدية أكثر أهمية ، فنى الحقيقة يبدو الرفض غير التاريخى للنظر إلى ما هو أبعد من الأعراض الواضحة خطراً . لأن هذا الرفض يبعد الانتباه عن الشروط النفسية والاجتماعية التى يمكن أن تكون أصل أنواع الضيق وأخطرها وأشدها . فمن وجهة النظر الاجتماعية ، نعلم حسبما ذهبت أعمال برت وسكوت أن البيوت غير المستقرة والدور المفككة ،

تعد عوامل هامة تساهم فى سوء تكيف الطفل وأن العلائق النفسية الأكثر لطفاً التى تنشأ داخل عائلته والصداقات والعداوات التى تتكون فيها تساهم كذلك فى تكيف فاسد[1] . إن رفض النظر إلى ما وراء الأعراض الواضحة يمكن أن يؤدى لا إلى الإضرار بالطفل المحتاج للمساعدة فقط ، وإنما يعوق أيضاً البحث عن الظروف التى تمهد لتكيف سيء بصفة عامة . فبعد كل شيء تبقى حقيقة هامة هى أن الوقاية خير من العلاج .

خلاصة القول مما سبق هو أنه يبدو أن بعض نقاد فرويد وماركس يميلون إلى إثبات نظرتهم الضيقة الخاطئة لدور العلم . فرويد وماركس ينتميان إلى تلك الطائفة من عباقرة تاريخ الإنسانية الذين يشيدون نظريات كاملة ، موحدة ، غنية بالنقاط التى تفتح آفاقاً لأبحاث فى المستقبل . والعلم هو التعبير عن جهود الإنسان فى البحث لفهم كل من الطبيعة الخارجية وطبيعة الإنسان الداخلية معاً ويمكن أن تعطى هذه المعارف ، فى بعض المجالات ، قدرة على التحكم . ولكن الوصول إلى هذا التحكم هو السبب الوحيد الذى يسعى الإنسان من أجله وراء المعرفة. وهنا تكمن غلطة هذه النظرة العلمية الضيقة لنقاد أعمال فرويد وماركس. فسواء أمكننا الوصول إلى هذا التحكم أم لا ، فإننا نريد أن نفهم أن الإجابات التى تقدمها لنا المعرفة تستجيب لضرورة تكمن فى أعماق الإنسان .

ركزت فى بداية هذا الفصل على فكرة أن النظرتين الفرويدية والماركسية تقدم لنا أشعة يمكن على ضوئها دراسة المشاكل أكثر مما تقدم لنا إجابات محددة وحلولا للمشاكل المعاصرة . لذا أختتم بالتعرض الآن لإيضاح هذه النظريات بدراسة بعض المشاكل السياسية والاجتماعية الهامة التى تتداخل فى بعضها تداخلاً شديداً .

وسنبدأ بعالم السياسة . السياسة هى فن حكم وإدارة الحياة الاقتصادية والاجتماعية لجماعة ما . وهى تطلب ممارسة السلطة ووضع القوانين واللوائح ،

---

(١) Delinquency and Human Nature, D.H. Scott Carnegie United Kingdom Trust, 1950. — The Young Deliquent Cyul Brut', University of London Press, 1944

لتنظيم العلاقات الإنسانية فى المجتمع حتى تدور حياة المجتمع فى ظل حد أدنى من الصراعات.

إن أهم ما ساهمت به الماركسية فى النظرية السياسية هو إيضاحها أن السياسة فى المجتمعات المشتملة على طبقات مختلفة تتجه إلى إطالة بقاء سلطة أو سلطات الطبقات الموجهة. ويعتقد الماركسيون أن الانسجام أو التوافق بين الطبقات يمكن تحقيقه عن طريق ميكانيكية تتكون من ناحية من تعليم الشعب وإرشاده إلى ضرورة نقل سلطة الطبقات المسيطرة إلى الجماعة بأكملها، ومن ناحية أخرى ردع كل معارضة للحكومة عندما تصل هذه المعارضة إلى مرحلة خطرة. والذى يثير الاهتمام فى الفكرة الماركسية عن السياسة هو أن الدولة فكرة أوسع بكثير من الميكانيكية الحكومية والبرلمانية المخصصة لوضع القوانين. فالدولة تعنى فى الماركسية كل وسائل إدارة الحياة الاجتماعية — الجهاز القضائى، القوات المسلحة التعليم، البوليس، الصحافة — التى بواسطتها تسيطر، بطريقة مباشرة أوغير مباشرة إرادة الطبقات الموجهة على باقى المجتمع. هذه الفكرة عن الدولة وجهت إليها منذ اللحظة الأولى الانتقادات لكونها ضيقة جداً وعامة جداً، ضيقة جداً لأنها تجعل سياسة الحكومة مقصورة على مصالح خاصة، عامة جدا لأنها تدمج فى السلطة الموجهة، هيئات مستقلة نسبياً مثل الصحافة والجهاز القضائى.

هذا الانتقاد ربما بدا مبرراً عندما كان نمو الديمقراطية البرلمانية يقدم لأحزاب سياسية شابة وقوية إمكانيات التحول نسبياً دون اصطدام بالمجتمع عن طريق تمكينها من الحصول على أغلبية المقاعد فى البرلمان، ولكن هذا الانتقاد فقد الكثير من هيبته اليوم مع الإحساس المتزايد بأن السلطة التى تحكم وتحدد سير الأحداث لا تكمن فقط فى أيدى الحكومة. عادت النظرية الماركسية عن الدولة إلى الظهور تحت فكرة «النظام القائم»، وهى فكرة غامضة مشوشة، ولكنها آخذة فى التطور السريع لتصبح متسقة منسجمة. فإننا نلمح أكثر فأكثر أن أى حكومة تقدمية، مهتمة بإحداث تغيرات اجتماعية جذرية، تقابل أكثر من مجرد معارضة برلمانية.

ويرجع الفضل إلى هذه الفكرة الماركسية فى إثارة انتباهنا للخاصية المعقدة

للحقيقة السياسية : التى لا يمكن ردها إلى مجرد علاقة الأغلبية بالأقلية بين الأحزاب السياسية .

وبمعنى ما ، فإن النظرية الماركسية عن الدولة تؤيد فكرة أن إطاعة الدولة تعتمد على العادات والتقاليد والقبول النفسى لسيطرة طبقة ما ، أكثر من اعتمادها على وسائل القهر المادية .

وبعبارة أخرى فإن وجود الدولة يعتمد على التهيؤ لوضع الخضوع لدى مجموع الشعب ، الذى أقنع بقبول هذه السلطة . إن أى دولة تعتمد اعتماداً كلياً على الردع والقهر مصيرها إلى الزوال السريع . لأن قوتها تأتيها من السيطرة التى تمارسها على عقل الشعب وهذا يثير مشكلة أهمية طبيعة العوامل النفسية التى تستمد منها الدولة سلطتها على العقول .

يقدم فقهاء السياسة الذين لا يهتمون كثيراً بالوجه النفسى للسياسة ، إجابة تعتمد على دوافع منفعية أو عقلية . فيفترض الأستاذ لا سكى مثلاً أن الناس يطيعون الدولة لأنهم بحسبة عقلية يظهر لهم أنهم فى نهاية المطاف يكسبون من هذه الطاعة أكثر مما يخسرون : « هم يقبلون أوامر الحكومة معتمدين على معيار الإشباع الذى يسعون إلى تحقيقه فى الحياة ويرفضون هذه الأوامر بحجة أنها تتعارض مع هذا الإشباع » .

وللأسف ، فإن طاعة الدولة نادراً ما تظهر بهذه الطريقة العقلية البحتة . فإلى حد ما صحيح أن العامل الحاسم فى الطاعة هو الإشباع الذى تقدمه هذه الطاعة . ومع ذلك فإن دوافع الإشباع لا تخضع دائماً لاختيار عقلى . فى الواقع يظل الأشخاص يطيعون الدولة مدة طويلة بعد ما يظهر أنها عاجزة عن منحهم الإشباع الذى يتطلبه التفكير العقلى ، يحتملون دون ثورة البؤس ، وظروف السكن السيئة ، ونقص التغذية ، لأن عادات الطاعة قد تأصلت جذورها إلى أعماق بعيدة عن أن تتسم بالمعقولية . فالإشباع الذى يبحثون عنه ليس إشباعاً يمكن ترجمته والتعبير عنه فى صورة أنماط حياة .

هنا تتدخل النظرية الفرويدية . إذ يجد التأكيد الماركسى بأن سلطة الدولة تعتمد على نوع من العلاقات غير المرئية الصادرة عن التقاليد والعادات

والقهر يجد تفسيراً نفسيًّا فى النظرية الفرويدية . لأن الدولة تستمد جزءاً كبيراً من سلطتها النفسية من الدور الذى يقوم به الأنا الأعلى الذى يقدم سنداً خارجيًّا للحاجة للإرشاد والحماية التى تلازمنا منذ طفولتنا .

بعبارة أخرى تستمد الدولة قوة نفسية من السلطة الأبوية كما تبدو لعقل الطفل ، وهو ما يفسر الأوجه غير المنطقية وغير المعقولة للولاء والطاعة حيال الحكومة ، حتى عندما تهمل هذه الحكومة الحاجات الاقتصادية الأولية لشعبها طالما ظهرت الدولة بمظهر القوة وأوحت بأنها جديرة بالثقة ظل الناس ميالين لطاعتها دون أن يتساءلوا عن شىء . يتصرفون حيالها كما يتصرف الطفل حيال سلطة الأب المقتدر . ولكن فليظهر الضعف فى الطبقة الحاكمة ، أو لتصبح هذه الطبقة فريسة للتردد والصراع ، أو لتعرض الهزيمة العسكرية الشعب لمجاعة أو للتحطيم ولن تلبث السلطة النفسية للدولة أن تهتز بعنف . وليس من قبيل الصدفة أن الهزيمة تعطى دفعة لكثير من الثورات . وقد حدد لينين شروط نجاح أى ثورة ووضع على رأسها تفكك ثقة الشعب وانحلاله فى الطبقة الحاكمة . وتفسر النظرية الفرويدية هذا القبول السلبى لدور الدولة ، وكذا العنف الذى يصحب الثورات . لأن فك لجام العداوة المكبوتة والكراهية التى يستشعرها الأطفال غالباً نحو آبائهم بطريقة شعورية هو الذى يقود إلى التطرف فى العنف والهدم .

وكون الحياة السياسية تقدم آفاقاً شاسعة للأفراد الذين يبحثون عن السلطة والذين يعطيهم تنوع الحياة السياسية شعوراً قويًّا بأهميتهم ينطوى على خطر عظيم . لأن هذا يعنى أن أولئك الذين يندفعون إلى الحياة السياسية لشعور بالواجب نحو مواطنيهم ، ورغبتهم فى إزالة الآلام الاجتماعية يجدون أنفسهم مستبعدين من مجال السياسة بواسطة مرشحين للسلطة السياسية أكثر قوة وأكثر ضجيجاً ولا ضمير لهم . هذه هى المشكلة التى اصطدم بها أفلاطون فى بنائه لجمهوريته : كيف نحث شخصيات معقولة ومتفانية فى إخلاصها إلى الاضطلاع بقيادة سياسية؟ كان يعلم ، وقد ظل هذا صحيحاً إلى يومنا هذا ، أن مثل هذه المعانى الأخلاقية تكون مصحوبة بتواضع ونفور من شراسة القتال السياسى . نحن نعد السياسة عملا نظيفاً ، إلى حد ما ، ومع ذلك نرشح لها أشخاصاً يتفاخرون بممارسة المكائد والغش فى عالم السياسة .

ولما كان العلم يضع تحت تصرفنا قوى تزداد يوماً بعد يوم فإن الخطر الذى يأتينا من هؤلاء الأشخاص يتعاظم بقدر هذه الزيادة . وإذا بمصير العالم معلق بطريقة مزعزعة بالتفسيرات التى تعطيها جماعات سياسية صغيرة لاصطلاح « الشرف الوطنى » . سياسيون أهم خصالهم للحكم هو أنهم ذوو شخصيات أقوى وأنهم أكثر نشاطاً وطموحاً من بقية الأشخاص ويكون فى إمكانهم لذلك اتخاذ قرارات تتعلق بحياة مواطنيهم وأمانيهم .

والعملية التى بواسطتها تركزت السلطة فى عدد محدود من الأيدى فى الدولة الحديثة إلى حد أن إنساناً بمفرده أصبح قادراً على اتخاذ قرارات حيوية دون أن يستشير حتى مكتبه وصفها الأستاذ جوفرى براكلوج بطريقة طريفة : « أصبح الناخبون آلات للتصويت ، لا يستطيعون التصويت ضد حزبهم ، ولا يستطيعون التغيب عن عملية التصويت وليس لهم حق إصدار حكم مستقل فى المشاكل الهامة ويعرفون أنهم إذا انحرفوا عن خط الحزب يفقدون الأمل فى أن يعاد انتخابهم. وباختصار — فإن الشرط الوحيد الضرورى المتطلب فيهم هو الولاء للحزب ، وهكذا أصبحت غير ذات وزن النظرية التقليدية للديمقراطية النيابية التى من مقتضاها أن يختار الناخبون المرشح الكفء القوى الشخصية . . . . »[1] ولما كان الولاء لحزب يعنى ، فى آخر المطاف ، الولاء لقائد سياسى ، فإننا نجد أنفسنا أمام مركز مطابق للتحليل الفرويدى للعلاقات السياسية .

يبدو واضحاً أننا أكثر حاجة من أى وقت مضى لبحث الدوافع التى تدفع البعض للانخراط فى السياسة ، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يجدون فى ممارسة السلطة على حياة الآخرين جاذبية مغناطيسية خاصة . كل منا (أو على الأقل غالبيتنا) لا ينخرط بطريقة إيجابية فى السياسة — أما أولئك الذين ينضمون إلى حزب سياسى ، وأكثر منهم الذين لهم فيه دور ، يكونون أقلية الجمهور . بالنسبة لأغلبية الناس السياسة موضوع للمطالعة أو موضوع يثار من وقت لآخر فى لحظة الانتخابات أو فترات الأزمات أما أن يتجه الشخص إلى الاهتمام بالسياسة بصفة دائمة ... فهذا علامة على شخصية من نوع معين . وبالنسبة للعالم النفسى المشكلة ليست فقط لماذا ينخرط البعض فى النشاط السياسى وإنما

(١) G. Baraclough : An Introduction to contemporary History, Watts, 1954.

أيضاً تحديد لماذا يتخذ هذا النشاط هذا الشكل ، لماذا يمثل البعض إلى أن يكون محافظاً والبعض الآخر متطرفاً radical وإنى أستعمل هذه الكلمات بمعناها الحرفى أكثر من معناها السياسى . لذا فإنه فى بعض الأحزاب السياسية نجد بعض الأفراد أكثر جسارة من المتوسط ويكون فكرهم أكثر ميلا للمغامرة . . . إلخ هذا التقسيم الجاف إلى يسارووسط ويمين يوجد داخل كل الأحزاب . وتستطيع الماركسية أن تفسر لماذا ينضم البعض للحزب المحافظ أو الحر أو الشيوعى لمصالح اقتصادية بصفة عامة نستطيع أن نتحرى عن علاقة الوضع الاجتماعى لأى شخص واختياره لحزب . ولكن السؤال يظل مطروحاً لماذا يظهر الشخص ميولا نحو اليسار أو نحو اليمين أو نحو الوسط ؟

أجرى بحث هام ابتداء من هذه المشكلة إذ دافع الأستاذ إيزنك فى دراسته لعلم نفس السياسات[1] The psychology of politics ، (عن فكرة قياس التطرف ـــ المتحفظ فى تكوين الشخصية) وقد استعمل تكنيكا فى التحقيق لتحديد أى الأفكار تعد قاسما مشتركاً بين من يعضدون حزباً أو آخر من الأحزاب السياسية الهامة ، ووجد أفكاراً مشتركة تدل على أن المتطرفين يميلون أكثر إلى تسهيل إجراءات الطلاق والمعاملة الرقيقة للمجرمين والتعليم الأكثر تحرراً . . . إلخ . فى حين يميل المحافظون إلى الاعتقاد بأن العقاب بالسوط يفيد فى منع الجريمة وأن الشعوب الملونة أدنى من الشعوب البيضاء وأن الحرب نشاط طبيعى . . . إلخ . لا شك أن هذه الأفكار ظهرت بوضوح فى حزب سياسى أكثر منها فى حزب آخر غير أنها برغم ذلك تقابل فيها كلها .

وهناك أبحاث أخرى تجعلنا نفكر أن الأفراد الذين يلعبون دوراً إيجابياً ونشاطاً فى السياسة كانوا أقل سعادة فى طفولتهم ، ولديهم شعور بأنهم كانوا مهملين من الوالدين أكثر من أولئك الذين يغدون غير إيجابيين نسبياً . وهم يميلون إلى إنماء ما يسميه الفرويديون ثورة الأنا الأعلى والبحث عن مهرب للعداوة المكبوتة فى الحياة السياسية .

هل من الممكن علاج هذه الحال ؟ إن الإجابة ليست سهلة المنال . ولكننى

---

(١) إيزنك أستاذ علم النفس الإكلينيكى بجامعة لندن مشهور بمنهجه فى دراسة أبعاد الشخصية فى ميدانى المرض والسواء بواسطة التحليل العاملى وهو منهج يستخدم الإحصاء والاستبيان .

أعرف فقط أنه فى الأيام التى نجتازها والتى يثقل فيها على كاهلنا التهديد بالتدمير النووى ، يجب أن نعثر على طريقة أخرى لاختيار قادتنا السياسيين : نحن نميل إلى اختيارهم من بين أولئك الذين يرتمون لكى يقع عليهم الاختيار ، بمنح السلطة لمن يشتهونها .

لقد رأى أفلاطون خطر هذا الوضع ، ولكننا لم نستطع بعد إدراكه فجتمعنا مجتمع يتطوع فيه الشخص غير المناسب وتقدم إليه المراكز التى تتضمن أكبر قدر من المسئوليات . ولكن كل ما نأمله هو أن تشجع المراكز الخطرة التى يضعنا فيها قادتنا السياسيون من وقت لآخر تشجع من الآن فصاعداً أولئك الذين يتمتعون بقدر أكبر من النضج والحكمة إلى التغلب على اشمئزازهم من السياسة وتدفعهم إلى لعب دور أكثر إيجابية فى حياة الجماعة .

ويبقى سؤال يجب أن نطرحه: ما هى العوامل التى تسمح للسياسيين بالحصول على إذعان عندما يطالبون بقيادة أمة .

رأينا أن أحد العوامل هو الطاقة الأعلى التى يمتازون بها عن سائر مواطنيهم لأن حيازة السلطة تهمهم أكثر مما تهم غيرهم . ومع ذلك فهم لا يصلون أبداً إلى فرض سيطرة على عقول مواطنيهم ، وتذهب جهودهم فى الدعاية هباء إذا لم يتوفر جمود فى التفكير بحيث تتجه إليه جهودهم . وتستعمل الشعارات باعتبارها حججاً سياسية ، وهى وسيلة للتعبير لا تثير إلا الحد الأدنى من النقد . وقد كان والتر ليبمان Walter lippmann أول من استعمل هذا الاصطلاح « الشعارات » ليكيف الحديث عن جماعات كاملة من أشخاص وعن تعليق بطاقة عليهم تجعلهم محل سخرية شديدة . فالتكلم عن كل الإيطاليين ، مثلا ، باعتبارهم أجانب يعنى تعليق بطاقة عليهم واستخدام لافتة فيها معنى السب . وبالمثل فإن الملونين زنوج ، واليهود يشبهون بالكاريكاتير المكرر لشيلوك . هذه الطريقة فى التفكير مصطبغة بالوهم « بالفكر المسبق المتوارث » عن الشىء تبدو من ورائها معتقدات عاطفية شديدة القوة لا صلة لها بالواقع إن من يحمل الأفكار المتوارثة ويتكلم بجمل محفوظة لا يمكن أن تنفذ إليه أى حجة منطقية معقولة إنه يتشبث بعناد بمعتقداته التى تستجيب لحاجة داخلية ملحة . وهى ميكانيكيات للدفاع ضد

مخاوفه وقلقه التى تمتد جذورها إلى الطفولة .

وقد أثبت بحث الأسباب النفسية للأفكار العنصرية الخاطئة المتوارثة صحة وجهة النظر هذه . صحيح أن العوامل الاقتصادية تلعب دوراً غير أنها تحرك أكثر من كونها تثير شعوراً بالعداوة يظهر فى المواقف المعادية للسود واليهود . وقد أوضح تحقيق هام أجرى فى الولايات المتحدة بكاليفورنيا أن الرجال والنساء الذين يكونون أفكاراً خاطئة متوارثة ضد الأقليات كانوا فى مجموعهم أبناء لآباء مسيطرين يفرضون نظاماً صارماً ويتطلبون طاعة عمياء . واستعمل هذا التحقيق منهج تدرج المواقف الذى كان يطلب فيه من الأشخاص الإشارة إلى درجة اتفاقهم أو عدم اتفاقهم عن طريق عدد معين من التأكيدات وهكذا فإنه فى أحد الاستجوابات عن الشخصية فيما يتعلق بالعداء للسامية استخلص التأكيد الآتى : « حتى يمكن الاحتفاظ لحى سكنى بطابع بهيج يحسن منع اليهود من السكنى فيه » . وقد أثبت تحليل لاحق للأشخاص الذين يضمرون هذا العداء أنهم يكبتون عداء شديداً لآبائهم . ولذا فإن خير هدف صيد للسياسيين غير ذوى الضمير فى يومنا هو مشكلة الأجناس الملونة .

أصبح اليوم اللجوء إلى أشكال التفكير الطفلية ومحاولة استغلال الخوف والقلق لا جتذاب الإذعان لحزب سياسى من الإجراءات المختارة المخططة . فكثير من وكالات الإعلان وهيئات العلاقات العامة التى تعلمت من فرويد شيئاً عن البناء الأساسى للنفسية الإنسانية ، يستغلون هذه المعرفة للحصول على إذعان لصالح ميولهم السياسية . ونما تكنيك حديث قوامه التقاط المخاوف ، والآمال ، وقلق الناس واستغلالها ، فى البداية لبيع البضائع ثم أصبحت الآن تستغل لإطلاق حزب أو شخصيات سياسية . هذه التعبئة تعرف باسم « البحث عن التبريرات » أتتنا من الولايات المتحدة حيث جسدها أساساً الدكتور أرنست ديستر . فقد كان يستخدم علماء نفسانيون للتحرى عن مواطن ضعف الناس ، قلقهم ، وترددهم ، أمانيهم وآمالهم اللاشعورية ، بهدف تنظيم حملات دعاية للبيع مرتكزة على هذه العوامل . وهناك تقنيات متقنة علمياً تسمح لمتخصصين خبراء ، عادة علماء نفس ، باستكشاف العمليات العقلية التى تتم خارج الشعور . يدعى

الإفضاء إلى الفرد إلى محلل ماهر بشكوكه، وقلقه الشخصى. ويستطيع المحلل بناء على هذا اقتراح وسائل تسمح بإجراء مناورات على هذه المشاعر لصالح الإنتاج الذى سينزل فى السوق.

وفى كتابه عن «استراتيجية الرغبات The Strategy of Desire [1] فى أثناء استكشافه للمستهلك، يوضح الدكتور ديشتركيف يمكن أن تستخدم الأفكار الفرويدية بمهارة: «خلال إحدى السنوات خرجت إحدى موديلات العربات بمقدمة مستديرة، وأحرزت فشلا كاملا. ولفترة طويلة ساد الاعتقاد بأن الفشل راجع لأسباب فنية بحتة. ولكن فى الواقع الذى حدث هو أن صانع العربات لم يأخذ فى الحسبان أحد العوامل اللامعقولة اللصيقة بطبيعة الإنسان: ذلك أن الشكل المعتاد للعربة له صلة بمغناها الرمزى، آلة قادرة على الاختراق. السيارة رمز للسرعة والقوة ولها قوة فوق ذلك من وجهة النظر النفسية معنى غاية فى الأهمية باعتبارها رمزاً للقضيب. ولذا فإن الموديل ذا المقدمة المستديرة الذى أنزل إلى السوق مخالفاً لهذا المعنى الرمزى المرتبط بشكل السيارة رفضه الناس دون أن يدركوا سبب هذا الرفض. وللتعبير بلغة التحليل النفسى بدا لهم أن هذا الموديل تنقصه القوة والقدرة على الاختراق».

وينتهى الدكتور ديشتر إلى أنه: «من الأهمية بمكان أن الشخص الذى يكون من طبيعة عمله إقناع الغير يجب أن يعرف هذه الخاصية فى الطبيعة الإنسانية، وإلا فمن المؤكد أنه سيرتكب أخطاء جسيمة».

هذا الاستغلال لآمال وقلق الجمهور الذى يستخدم الأبحاث والاكتشافات الفرويدية ثم ينقله إلى ميدان السياسة، فيعامل الجمهور الذى سيصوت كما لوكان سوقاً يجب إنماؤها لتباع لها سلعة. ويتم الاختيار بين الأحزاب السياسية كما تشرحه جريدة ما تماماً كما يحدث عند اختيار منظفات متنافسة — والذى يهم أولا وقبل كل شىء ليس سياسة الحزب وإنما الصدمة العاطفية التى يحدثها القادة السياسيون. يزين القادة السياسيون للظهور فى التليفزيون وتقدم سياستهم بنفس مهارة حملات البيع.

(١) Dichter : The Streategy of Desire. Boarolma 1961

يمكن أن نرد على ذلك بأنه لا بأس من تقديم السياسة بأكثر الطرق جاذبية أو من تجميل القادة للظهور فى التليفزيون وإن هذا لا يعدو أن يكون وسيلة للتعبير ، وسيلة تمثل الحزب وتربطه بحاجات عاطفية عميقة وإنه إذا كانت سياسة هذا الحزب طيبة فلا ضير فى أن يلقى إذعاناً فكرياً وعاطفياً فى آن واحد من الجمهور .

طبيعى أن الخطر يكمن فى المحاولة المستمرة لتقديم ضرورات الدعاية قبل الاهتمام باختيار القادة وأهداف الحزب .

وإلى حد بعيد فإن العلاج يكون فى إنماء الرأى الناضج وحاسة النقد لدى الجمهور فلا تفوته الأهداف السياسية الأساسية . وهذا يصل بنا إلى مشكلة التربية .

للتربية هدف مزدوج : فهى فى المقام الأول ترمى إلى إعطاء الشباب معارف ومعلومات عن عدد كبير من الموضوعات ، بأمل أن تستخدم هذه المعارف والمعلومات من الناحية العملية أو لأنها تقدم ثقافة أساسية تنفعهم فيما بعد . وفى المقام الثانى ترمى التربية إلى إذكاء قدرة التفكير بطريقة ناقدة بناءة لدى الطفل ، وتعليمه العمل الجماعى ، وعدم التهرب من المسئوليات ، وبعبارة أخرى تعليمه التصرف كبالغ ناضج ومتمدين . وعن هذا الهدف الثانى سأتكلم هنا مع أن الأول ليس منفصلا عنه تماماً ، إن الأطفال الذين تعلموا كيف يستخدمون فكرهم الناقد والذين تعودوا تحمل المسئوليات يكونون أقدر عادة على السيطرة على الأوجه الروتينية للتربية . .

هل نستطيع أن نقول إن نظامنا فى التربية ناجح فى أداء مهمته ؟ إذا أخذنا اهتمامات الأفراد بعد تركهم المدرسة كمعيار ، والحجج التى تقنعهم لتبنى موقف سياسى أو دينى أو اجتماعى ، ونجاح الجرائد الشعبية والدعايات التى توجه الجماهير ومتوسط مستوى البرامج التليفزيونية ؛ فلا مفر من أن نعترف أن مستوى التفكير الناقد البناء منخفض إلى حد كبير .

أعتقد أن أحد الأسباب الهامة وراء هذا الوضع أن الظروف المادية التى تؤدى

فيها مهمة التربية يصعب معها إقامة العلاقة بين الأستاذ والأطفال على أساس آخر غير السلطة من جانب الأستاذ والخضوع من جانب الطلبة . فالفصول فى المدارس سيئة الإعداد وممتلئة إلى حد يصعب معه إتاحة حرية الحركة للطفل . والنتيجة الحتمية لذلك هى أن العلاقة بين الأستاذ والطفل تذكرنا بعلاقة الأب بالطفل فى القرن الماضى ، عندما كان لا يسمح للطفل بالكلام إلا عندما كان يطلب منه ذلك وكانت كلمة الآباء هى الكلمة العليا . صحيح أن كثيراً من الأساتذة يبذلون كل ما فى وسعهم لتخطى الصعوبات — المتعلقة بضيق المكان وكثرة التلاميذ وأنهم يكافحون لإشراك الأطفال بطريقة إيجابية فى دروسهم ولكن فى الوقت الحاضر غالبا ما يكون معيار الفصل الطيب هو أن يكون فصلا ساكنا ، لا يقطع سكونه إلا صوت الأستاذ والإجابات عن أسئلته . كثير من الأساتذة لا يعدون أن يكونوا ملاحظين يراقبون ثلاثين أو أربعين حيواناً صغيراً يعيشون عيشة طيبة ويجلسون فى مكان غير مريح .

هذه الصعوبات المتعلقة بوضع المدارس تؤثر بالضرورة على موقف الأستاذ حيال سلوك تلاميذه . إذ يميل الأستاذ إلى اعتبار السلوك المعبر عن الثورة على سلطته مشكلة كبرى ، فى حين أن المشكلة الأشد خطورة من الناحية النفسية تأتى من تقييمه للمشاكل . وقد أوضحت هذه النقطة مقارنة هامة تمت فى أمريكا بين الدرجات التى يضعها الأساتذة والدرجات التى يضعها أعضاء عيادات توجيه الأطفال . فقد طلب من ٥٠٠ أستاذ يكونون مجموع أعضاء جهاز التعليم فى ١٣ مدرسة أولية بولايات نيويورك ، نيوجرسى ، وأوهيو ، ومينسوتا لتقييم الأهمية النسبية لخمسين مشكلة من مشاكل السلوك وقورنت تقديراتهم بتقديرات ثلاثين طبيباً نفسيا وعالماً نفسياً ومشرفاً اجتماعياً . وقد ورد فى التقرير مايلى : « الفارق البين بين تقديرات الأساتذة والنفسيين يبدو فى تقييمهم للمشاكل المتعلقة بانسحاب الشخصية ، وبالتقهقر وبعض مظاهر السلوك . فعلى حين يعد الأساتذة من بين المشاكل الأقل أهمية تلك المتعلقة بالخجل ، وبالحساسية ، وبانعدام الروح الاجتماعية ، وبالقلق ، وبالميل إلى الشرود ، يضع النفسانيون هذه المشاكل فى رأس القائمة باعتبارها أهم المشاكل لاتصالها ودلالتها على انعدام السعادة وعلى

الانهيار وعلى سهولة تثبيط الهمة وعلى الضغينة وعلى القابلية للتأثر بسرعة وعلى ميل إلى انتقاد كل شيء . . . أما مظاهر السلوك المعبرة عن الثورة ضد السلطة والتحدى والعصيان وعدم الطاعة التى يعدها الأساتذة شديدة الخطورة فتأتى فى نهاية قائمة النفسانيين [١] .

وسبب هذا الاختلاف أن الاستاذ يرث دور الآباء نفسياً ، ولكنه ملزم بلعب هذا الدور بطريقة أكثر قسوة وإن كان ذلك على عكس ما يرغب . عادة تتاح للطفل فرصة التطور والتعبير عن نفسه بحرية فى بيته أكثر مما يتاح له فى المدرسة ، فالحرية تنحصر فى المدرسة فى الفسح القصيرة بين الدروس التى لا تسمح إلا بالتخلص من نشاط مكبوت . وما عليكم إلا أن تراقبوا التناقض بين الأطفال وهم يلعبون فى المدرسة فى فترة الفسحة وبين لعبهم فى فترات الإجازة . فنى الفسح يجرون عادة فى كل الاتجاهات وهم يصرخون ويصيحون ، مثل الحيوانات التى نطلقها من قفص غير مريح . أما فى الحالة الثانية أى فى فترة الإجازات فإنهم يظهرون نفس الحيوية ونفس النشاط ولكن يبدو فى لعبهم تحكم وتوازن أكثر . فالمدرسة ، ذلك المكان الذى يجب أن يتعلم فيه الطفل أساساً كيف يمارس حياة أكثر حرية وأكثر ديمقراطية ، تبدو أشبه بأوتوقراطية شديدة متدرجة من أعلى إلى أسفل . وهو وضع يتمنى كثير من الأساتذة تجنبه ولكنهم يعجزون لتخلف ظروف التربية .

نتيجة لكل هذا تنمو لدى الطفل طاعة سلبية للسلطة ، يستمر فى إظهارها فى المجتمع بعد أن يترك المدرسة . ينتظر منه أن يتقبل العادات وأن يتلاءم معها وأن يطيع دون أن يوجه الكثير من الأسئلة .

وتستطيع النظرية الفرويدية أن تثيرنا فيما يتعلق بالعوامل النفسية التى تقود إلى هذا الموقف المستكين السلبى . ما هو التوجيه الذى ترشدنا إليه حتى نستطيع إنماء شخصيات بالغة ناضجة قادرة على الانتقاد ومعتدة بنفسها ؟ ماذا يستطيع نظامنا فى التربية أن يتعلم من النظرية الفرويدية .

---

(١) E.W. Wickman, Teachers and behaviour problems, The Common — Wealth fund, New York, 1954

هنا تلتقى ، على ما أرى ، النظريات بالتحقيقات النفسية العامة عن طريقة التعليم . إن قطاعاً كبيراً من الفكر التحليلى النفسى المتعلق بسير التربية يوافق عليه علماء النفس وكذلك أغلب المفكرين العلميين المهتمين بإنماء الطفل . ويكفى أن نرجع إلى اللقاءات التى تمت لبحث هذا الموضوع ، فى جنيف عام ١٩٥٦ بين جماعة من الدارسين من منظمة الصحة العالمية . [1] Organisation Mondiale de la Santé للتحقق من هذا الزعم . كان الموضوع المسيطر الذى استخلص من هذه المناقشات هو أن الأطفال ليسوا مجرد بالغين فى طور الإعداد — إن البالغ ليس طفلا قد كبر — ولكن لكل حاجاته التى يجب أن تفهم إذا أردنا أن يكون نموهم سليماً وكاملا . هذه الحاجات ترتبط ببعض مستويات التطور ويجب أن نتصور ونبلور تربية تقابل هذه المستويات ، ليس فقط على الصعيد الفكرى وإنما أيضاً على الصعيد العاطفى .

يذهب علماء النفس الذين درسوا عملية اكتساب المعارف إلى أن التربية تعنى إلى حد كبير توفير الظروف الملائمة للطفل التى تسمح له بتنمية قدراته الطبيعية . وبهذا يصبح الأستاذ ، بتقديمه حافزاً للرغبة فى التعلم ، يصبح جزءاً من الظروف التى تسمح باكتساب المعارف . وقد أوضحوا لدى الطفل عملية متسلسلة للنمو يبدو أنها تتطلب قدراً أدنى من الحافز الخارجى ، عملية تسمى عملية النضج : فقد أظهرت الأبحاث أن القدرة على التعلم تعتمد إلى حد كبير على مستوى النضج ويبدو هذا واضحاً فيما يتعلق بتعقد الحركات اللازمة للمشى . فكثير من الآباء اليقظين يحاولون تعليم أبنائهم المشى من وقت مبكر جداً . ولكن سواء حاولنا تعليمهم المشى فى وقت مبكر أم لا فإن الأطفال يمشون عادة فى نفس السن فى حوالى الشهر الخامس عشر . ويبدو هذا حتى فى الجماعات التى تحمل فيها الأمهات أطفالهن على ظهورهن إلى السن التى يستطيع فيها الطفل أن يخطو خطواته الأولى . يمشى الطفل عندما يبلغ مستوى معيناً من النمو العضلى والتنسيق ، وربما أدت محاولات تشجيع الطفل على المشى قبل أن يكون مستعداً إلى الإضرار به . ويصدق

(١) Comptes rendus publiés en 4 Volume sous titre de Discussions on Child development, Tavistock Publications, 1960.

هذا على الكثير من العوامل ، كما تشهد بذلك كثير من التجارب الواضحة . فمثلا ربما ولدت لدى الطفل محاولة تعليمه فى وقت مبكر شعوراً بالاشمئزاز والقلق ربما لا تفارقه أبداً لأن الصعوبات التى تقابله فى كفاحه الأول مع الموضوع يمكن أن تلازمه طيلة حياته . ولذا يذهب بعض علماء التربية المستنيرين إلى أن تعليم بعض الموضوعات للطفل يجب أن يتناسب مع مستوى نضجه ، وهذا المستوى ليس من السهل تحديده لأنه يختلف من طفل لآخر .

وهناك وسائل تعليم حديثة ، ترمى إلى كمال نشاط الأستاذ ، مثل الآلات الثابتة هدفها إنماء المشاركة الإيجابية للطفل فى نفس الوقت الذى يكتسب فيه المعارف . يمكن أن نقول عنها بحق إنها آلات التعليم ، لأنها تسمح للطفل بمراقبة تقدمه وتصحيح أخطائه بنفسه . وبهذه الطريقة ، بمحاذاة العملية الطبيعية التى يتعلم الطفل بواسطتها القيام بكثير من الأعمال ، تنمو قدرته على تصحيح نفسه . فمثلا ، عندما يتعلم الطفل المشى تتدخل ميكانيكية ثانية للضبط وإعادة الضبط مما يؤدى إلى أن يصحح الجهاز أخطاء الخطوات الأولى .

هذه الطريقة فى مواجهة التربية ابتداء من دراسة ما يحدث فى أثناء التعلم والبحث عن وسائل لتحسين الموقف باستثارة مشاركة إيجابية ، تتفق مع النظرية الماركسية العامة فالماركسى يقول طبيعى أن التربية فى مجتمع الطبقات تميل إلى أن تكون موجهة حتى إن ما يقوله هذا المجتمع يقبل بطريقة سلبية . ومع ذلك فإنه ما كان ليعارض فى تحسين التربية سواء تحسين الظروف الاجتماعية بصفة عامة أو تحسين التكنيكات التربوية فى المدارس .

أعتقد أن هذا صحيح فى خطوطه العريضة . فتحسين الظروف الاجتماعية والتكنيكات التربوية لا يؤدى فى الواقع إلا إلى ظروف ملائمة يمكن أن تنمو وتنضج فيها الحياة الفكرية والعاطفية للطفل ، فمن الناحية الفكرية رأينا أنه يجب ألا نضع الطفل فى مركز لم يعد له بعد . وكذلك الأمر فيما يتعلق بتطوره العاطفى فكما أن الطفل الذى يواجه مشكلة عقلية لم يتم بعد استعداده لمواجهتها يمكن أن تنمو معه صعوبة متعلقة بهذه المشكلة كذلك الطفل الذى يواجه فى وقت مبكر جداً مشكلة عاطفية يمكن أن يكون عرضة لصعوبات تدوم وقتا طويلا .

تقدم النظرية الفرويدية إطاراً ممتازاً لمثل هذا البحث إذ توضح أن ثمة مستويات فى نمو الحياة العاطفية يمكن مقابلتها بالمستويات التى وصفها الأستاذ بياجى فى نظرته عن الحياة الفكرية[1] .

فمن وجهة النظر الفرويدية تعد مشكلة التعليم إلى حد كبير مشكلة التوازن بين متطلبات الأنا الأدنى والواقع . وتوضح الفرويدية ضرورة الحد من القلق النابع من أنا أعلى شديد القسوة ، وتقوية الأنا فى أدائه لوظائفه فى التفكير . فعلى أرض الحياة اليومية تناهض الفرويدية نظام الدراسة شديد القسوة والقيود الصارمة على حرية الحركة والتفكير لدى الأطفال لأن هذه العناصر تكبل نمو قدرات التفكير والنقد عند الطفل . ولا يعنى هذا أن النظرية الفرويدية تنادى بحرية التغيير المطلقة وبرفع كل ردع . إنها تطالب بإمكانيات أكبر للتعبير عن الحاجات العاطفية حتى يمكن توجيهها بطريقة أكثر فاعلية نحو مخارج مقبولة من وجهة نظر المجتمع .

الشكل الأساسى لنظام المدرسة فى هذه الأيام ، هو إلى حد بعيد النظام الذى يفرضه الأستاذ . ولا يثير تطبيق هذا النظام فى الظاهر كثيراً من المشاكل فى المدارس الابتدائية . فالأطفال ما زالوا صغاراً والمدرس بالنسبة إليهم كبير جداً والتلاميذ المارقون يمكن عزلهم عن بقية الفصل وتوقيع العقاب عليهم . ولكن عندما يكبر الأطفال يصبح تطبيق النظام أكثر صعوبة . كان المفروض أن الحاجة للنظام تقل كلما كبر الأطفال لكن جميع من اشتغلوا بتعليم أطفال يزيد عمرهم عن ١١ عاماً يعرفون أن العكس هو الصحيح . فما كان ينقصهم فى السنوات الأولى هو فرصة العمل فى جو من الحرية . فلو كان الأطفال منذ البداية أعتادوا العمل بقدر أقل من السلطة لكانوا اكتسبوا عادة تنظيم أنفسهم ولقلت مشاكل النظام

(١) الأستاذ بياجى Piaget قام بعدد من الدراسات اللامعة عن تطور القدرات الفكرية الطفل . فهو يحدد بصفة إجمالية ثلاثة مستويات النمو ، المستوى الأول المحرك الإحساسى Sensorri-Motaur حتى السنة الثانية تقريباً ينمو خلالها تدريجياً تنسيق الحركات العصبية الانعكاسية فيما يتعلق بالإحساس بالأشياء. والمستوى الثانى من الثانية إلى الحادية عشرة يرتبط فيه تفكير الطفل ارتباطاً شديداً بما هو ظاهر أمامه ويبدأ فى الارتقاع إلى مستوى من التفكير أكثر تجرداً وأكثر عمقاً . وهاتان الصفتان تميزان المرحلة الثالثة .

والترتيب التى يتعرضون لها عندما يكبرون .

هذا هو ما تقترحه النظرية الفرويدية : من الضرورى توفير الإمكانيات للأنا لينمو ويقوى نفسه لأن فرض نظام صارم يعوق نمو النظام الشخصى . إن النظر إلى الطاعة باعتبارها فضيلة يعنى هدم أسس الاستقلال الشخصى .

إن أحد أهداف التربية هو إنماء الأحكام ذات القيمة لدى الطفل ، وهى عملية تعتمد اعتماداً كبيراً على القواعد التى يقبلها المجتمع والأهداف التى حددها بنفسه . فالقيم التى تلقن للطفل لكى يحترمها يمكن أن تدخل فى صراع عنيف مع القيم السائدة فى المجتمع . فمن الجائز أن نعلم الطفل أنه من المستحب التعاون ، وأن المصلحة الشخصية التى تتعارض مع مصالح الجماعة يجب التخلى عنها ، وأن خدمة المجموع أفضل من السعى وراء الثروة . ثم يلمح فى النهاية أن هناك سلماً للقيم مختلفاً ومناقضاً لكل هذا يسيطر على المجتمع . فالمنافسة تسود المجتمع وكذلك السعى وراء الثراء الشخصى ، والمال هو معيار النجاح والاحترام ، حتى إنه يستخدم لقياس النجاح الأدبى أو الفنى . فالكاتب أو الفنان الناجح هو الذى يكسب النقود . وتعد النقود فى حياة الناس قوة قاهرة، يستمر المليونير فى الكفاح لكسب مليون آخر . ترمز عملية التخلص من الفضلات عند فرويد إلى النقود ولا يمكننا إلا التسليم بأن فكرة التقريب بين الرأسمالية والمرحلة السادية الشرجية للنمو الاجتماعى هو تقارب محبذ .

تقود مشكلة التربية إلى مشكلة الانتقال من الطفولة إلى سن البلوغ . أعتقد أن النظريات الماركسية والفرويدية يمكن أن ترشدنا عند دراسة هذه المشكلة ، وتساعدنا على معرفة العوامل الاقتصادية والنفسية التى تميز هذا الانتقال .

المراهق لا يتعلق بالطفولة ولا بسن البلوغ . هى أو هو (المراهق) يرتفع من وضع الخضوع للأبوين والأساتذة إلى وضع يكون فيه ملزماً بأن يخلق لنفسه مكاناً فى المجتمع باعتباره بالغاً حراً لا يعتمد إلا على نفسه، مثل هذه الفكرة الانتقالية تثير كثيراً من المشاكل خاصة فى حضارتنا الغربية ، طبيعى أن ظهور هذه المشاكل ليس مقصوراً على مجتمعنا الحديث ، لأن كل مجتمع يجب أن يحل هذه المشكلة المتعلقة بالانتقال من الطفولة إلى البلوغ . إلا أن مجتمعنا الاقتصادى والاجتماعى

المعقد يجعل هذا المرور أكثر صعوبة .

فى مجتمع متخلف نسبيًا يأخذ البنات والأولاد مكانهم فى المجتمع مباشرة بعد أن يصبحوا جسمانيًا قادرين على ذلك . عندما يصبح الولد قويًا جسمانيًا إلى حد يستطيع معه ممارسة أنشطة الجماعة المتعلقة بالصيد ، أو الزراعة ، وعندما تصبح الفتاة قادرة جسمانيًا على وضع الأطفال فإنهم يقبلون المشاركة كلية فى حياة الجماعة عن طريق مراسيم إدخالهم فيها . وفى أغلب الأحوال ، يتفق إدخال الطفل وقبوله لتحمل مسئولية البالغين مع صلاحيته الجسمانية للمشاركة فى هذه الحياة . أى أنه عندما يصبح الطفل مستعداً بيولوجيًا ليعيش حياة البالغ فإنه يكون تلقائيًا مستعداً ليعيش كذلك حياة اجتماعية .

أما فى مجتمعنا فإن الوصول إلى الاستعداد البيولوجى لممارسة حياة البلوغ لا يعد شرطاً كافيًا ليصبح الشاب أو الشابة قادرين على احتلال مكان باعتبارهما بالغين مستقلين . فمثلا ، برغم أن الفتاة تصبح قادرة على الإنجاب ابتداء من سن الثالثة عشرة وأحياناً قبل ذلك فإن مجتمعنا لا يعدها مستعدة قبل فوات وقت طويل لأن تتحمل عبء الاهتمام بأسرة . وبالمثل فإن كسب العيش أصبح من التعقيد إلى درجة أن الكثير من المراكز تتطلب مستوى علميًا وتكوينا يبعد كثيراً عن سن النضوج البيولوجى . هناك إذن درجة يجب تخطيها بين القدرة البيولوجية للتصرف كبالغ ، والإمكانيات التى يقدمها المجتمع للتصرف على هذا النحو ، وهى درجة يزداد حجمها يوماً بعد يوم . باختصار ، إن وراء مشكلة المراهقة كما تظهر فى مجتمعنا المعقد ، توجد واقعة بسيطة مؤداها أن المراهقين لا ينظر إليهم باعتبارهم قادرين اجتماعيًا على القيام بأشياء يكونون فى الواقع معدين للقيام بها من وجهة النظر البيولوجية .

وهذه مشكلة فى ذاتها خطيرة . ويزيد من خطورتها الجهل البادى من جانب أغلب البالغين بطبيعة مشاكل المراهقة . إذ تطرأ على المراهق تغيرات فسيولوجية دقيقة تولد متطلبات ملحة وتحدث تعديلات غددية تزيد سرعة نموه وتكسو بدنه . ومن وجهة النظر البيولوجية يلح الجسم فى طلب أمور يأباها عليه المجتمع . وبوجه خاص يطلب المجتمع إلغاء الإلحاحات الجنسية . ويحيط هذا الموضوع بتحريمات

وموانع . ويغدو المراهق الذى أصبح يعى الحاجات جسمه الجديدة — التى لا يفهمها والتى يطلب منه التحكم فيها — يغدو صعباً ويستشعر سطوة البالغين .

وتظهر تغيرات نفسية هامة مرتبطة بهذه التغيرات الجسمانية . إذ يشعر المراهق أكثر بنفسه وبجسده ويتساءل . وهنا يشتد الصراع مع البالغين لأن الآباء يرفضون غالباً الاعتراف بأن المراهق الذى يكبر له حاجاته الخاصة ويستمرون فى معاملته كما لو كان طفلا يعتمد عليهم وينتظرون منه خضوعاً كخضوع الأطفال . ويبدو أنهم لا يستشفون الحساسية التى تصاحب نمو المراهق والسهولة التى يمكن بها أن تجرح كرامته . فالمراهق بنتا أو ولداً ، الذى يتألم من أن أحدا لا يفهمه يميل إلى الرثاء لحاله والحلم بالانتقام . ويبدو البالغون كما لو كانوا قد نسوا شبابهم ويفسر الفرويديون ذلك بأنهم كتبوا ذكريات مؤلمة وأنهم يعاقبون أبناءهم عن أخطاء آبائهم هم .

فيتجه المراهقون إلى أمثالهم باحثين عن أن يفهمهم أحد وعن الأمان . يكونون شللا وجماعات تحل محل العلاقات العائلية وتهيئ لهم شعوراً بالانتماء . هذه الجماعات لها مذاهب خاصة فى طريقة اللبس ، وقص الشعر والسلوك بصفة عامة ، وهذه المذاهب ربما بدت للبالغين سخيفة وخالية من المنطق ولكنها تلعب دورا هاماً فى توفير الا ستقرار لحياة المراهق . وتشبه هذه المذاهب فى بعض جوانبها المراسيم التى يكون الهدف منها إبعاد القلق الناشئ عن عدم الاستقرار العاطفى الذى يصاحب نموهم . فكما قررت دراسة ظهرت فى مجلة لايف Life عن سلوك الشباب الأمريكى ، عالمهم هو عالم القوانين المتعددة : « قوانين هوائية ، متغيرة تلغى نفسها من يوم لآخر ، ومع ذلك فإنها تظل مستقرة مادامت ذات أثر فعال ، بحيث إن مخالفة هذه القوانين تؤدى إلى توقيع عقوبة الفصل من الجماعة » .

تدرس مشكلة تزايد انحراف الأحداث عادة مع مشكلة المراهقة . ويعد انحرافاً من جانب الشباب كل أشكال السلوك التى لا يقبلها أولئك الذين يفرضون القوانين فى المجتمع . يقول روبن فى دراسته عن الجريمة وانحراف الأحداث إن الانحراف هو كل ما يعتبره القانون كذلك . فهى تشمل التغيب عن المدرسة

والخطف ، والتخريب ، وسرقة السيارات ، وفظاظة القول وأعمال العنف .
ولا يمكن حصر انحراف الأحداث ولو تقريبيًّا لأن الجنح تختلف فى طبيعتها وصفتها وهى لا تتعلق على أى حال إلا بأقلية من الشباب . اهتم البحث بوجه خاص بالعوامل الاجتماعية مثل ظروف السكن والمحيط الذى يعيش فيه الحدث ، وكان الانتباه مركزاً على تأثير الأسر المفككة سواء بسبب موت أحد الأبوين أو الطلاق أو الا نفصال أو السجن . . إلخ ولكن نتائج هذه الأبحاث ليست منتجة . وقد قام شو وماكى بمقارنة جماعات المنحرفين وغير المنحرفين اعتماداً على أثر الأسر المفككة ووجدوا أن ٤٣٪ من المنحرفين يأتون من بيوت مفككة على حين أن ٣٦ ٪ من غير المنحرفين يأتون من بيوت مفككة . ولكنهم لاحظوا أن التوتر والصراع يكون موجوداً فى الأسر قبل الانفصال وأن هذا الوضع يهدد حياة الطفل بصورة أخطر من الانفصال الفعلى . وتشير دراسات سكوت إلى أن الطفل يمكن أن يلجأ إلى سلسلة من الهرب ليتغلب على القلق الذى يثيره الوضع العائلى الملئ بالصراع . بل يمكن أن ينضم إلى جماعة من المنحرفين ليفر من أسرته ، وفى محاولة مثيرة للعواطف ، حتى يضمن ابتعاده عن أسرته ، يهمل فى اتخاذ الاحتياطات التى تجنبه الوقوع فى يد السلطات .

ومن ناحية أخرى فإن الفقر على ما يبدو يساهم فى انحراف الأحداث وإن لم يكن السبب المباشر الحاسم .

تفرق « هاريت ويلسن » فى دراستها للأحداث وإهمال الطفل بين الانحراف نتيجة للإهمال والأشكال الأخرى للانحراف[1] . والحدث الذى ينشأ انحرافه عن الاهمال يعيش عادة فى بيت غير نظيف مع والدين لا يهتمان بتوجيهه وتكون علاقاتهما بعضهما ببعض غير ثابتة . وقد يعيش فى حى يكون إرسال جزء من الجماعة صباح السبت من كل أسبوع لسرقة المنازل إحدى اللعبات التى يشارك فيها . فانحرافه ما هو إلا دفاع ضد أسرة غير سليمة . وحاجته البدائية للحصول على ما يبقى على حياته تعلمه أن يضع يده على كل ما يستطيع أن يمسكه أيًّا كان مالك هذه الأشياء .

(١) Harriet Wilson Delinquency and Child Neglect. Allen & Unwin, 1962.

ولكن ، أيًّا كانت العوامل الاجتماعية يبدو أن هناك باعثاً نفسيًّا هاماً هو أساس أغلب حالات انحراف الأحداث ، وهو إحساس الطفل بأن الوالدين لا يحبانه وأنهما يريدان التخلص منه . وتدل الأبحاث الحديثة على أن موقف الأب هو الذى يلعب دوراً أكثر أهمية . وهكذا فإن ميشيل آرجيل فى دراسته لعلم النفس والمشاكل الاجتماعية يقول : « إن عدم قبول الطفل هو أصل أغلب حالات انحراف الأحداث . ويمكن التنبؤ بسهولة انحراف الأحداث عندما يتخلى الأب عن ابنه ، وهو حالة ٦٠ ٪ من الأحداث » ، وهذا هو ماتشير إليه معطيات التحليل النفسى ، فإن أغلب الأحداث من الأولاد الذكور (تقريباً ٨ من الأولاد إلى بنت واحدة) . فتبعاً للمركز الأوديبى ، تؤدى علاقاتهم بالأب إلى إمكانيات شكوك وغيرة متبادلة فضلا عن عدم اهتمام من جانب الأب وهو أمر قلما يحدث بين فتاة وأبيها .

أيًّا كان الأمر ، فإن المشكلة الاجتماعية التى يثيرها المراهقون تهم العدد الكبير من الشبان الذين لا ينحرفون ولكنهم مع ذلك يجدون أن الوسط الذى يشبون فيه غريباً ، محطماً ومثبطاً .

نقول أحياناً إن مشكلة الأحداث الحالية تحتوى على جانب خاص ، جانب يظل موجوداً إذا أخذنا فى الحسبان ميل البالغين إلى نسيان جنون شبابهم . وأيًّا كان هذا الجانب فيجب علينا أن نواجهه من خلال مضمون الخطر والقلق اللذين يتلوان فترة الحرب . لأن الشباب الحديث ينتمى إلى جيل يخرج بالكاد من أشد الحروب التى عرفها التاريخ ضراوة ، من عصر من الفوضى والتقلبات لم يشهده شباب أى جيل من الأجيال السابقة . ومن ثم فما من أحد يستطيع أن يقيم الصدمة التى أحدثتها هذه الظروف على شباب الجيل الحالى .

ويقال أحياناً إن القوة الشرائية المتزايدة لدى الشباب تساهم فى تكوين مشكلة المراهقين . فالشباب الذى يكسب قدراً من المال يقارب أجر البالغين يشعر بالاستقلال المالى . ويأتى هذا الإحساس الجديد لينقض العقبات التى كانت تفرضها المجتمعات القديمة التى كان يسيطر عليها البالغون . فالشباب الذى يكسب إلى حد يمكنه من الاستقلال ، ومع ذلك يظلون خاضعين لتقاليد وقواعد المجتمع ،

يجب أن يطيعوا آباءهم ، يجدون بذلك أنفسهم فى مركز متناقض فى ظاهره . ويؤدى إلى تصعيد الصراع بين الأجيال ، لأن المساس بالحرية يشتد الإحساس به كلما تأكد الاستقلال المالى . ويصحب هذا الوضع اختلاف كبير بين الشباب والشيوخ . إذ يختار المراهقون نمطاً فى الأزياء والمصطلحات اللغوية والسلوك يظهر بعد الشقة بينهم وبين عالم البالغين . طبيعى أن الاتجاه وجد دائماً ، ولكن يبدو أنه وصل اليوم إلى درجة صارخة حتى إن عالم سلوك المراهقين يكون واقعاً ثقافياً مستقلا .

ولكن مأساة الشباب الحالى هى أن ثورته قليلة الإيجابية . يعبر الشباب عن شعوره ضد سيطرة البالغين بطرق متباينة لا تجر قتالا حاسماً ، فهو يستطيع أن يخجل عالم البالغين بإقامة نظام أخلاقى متحرر وميسور ، ويستطيع أن يصدمه بتصرفاته وذوقه الشاذ . ومع ذلك فلا شىء يتغير لأن هذه الأمور تبدد طاقة الثورة .

ربما بدت هذه الصورة مبالغا فيها ، لأننا يمكن أن تستخلص برغم ذلك علامات لاتجاه أكثر إيجابية فى هذه الثورة . من الممكن ألا نتفق على أهداف حملة نزع الأسلحة النووية ومع ذلك ننظر بسعة صدر للتأييد الذى تلقاه لدى الشباب والذى يعد رمزاً للبحث عن تعبير إيجابى لهذه الثورة . وعلى النقيض فإن أى حركة تحدد أهدافها بطريقة سلبية يمكن أن تجد سنداً لدى الشباب وتؤكد بذلك هذا التحسس للبحث عن تعبير إيجابى ، فبين الشباب المفكر والكتاب والفنانين والممثلين تسرى الآن ثورة تأخذ شكل سخرية أليمة من نظامنا ومن الشخصيات المحترمة .

كيف يمكن للنظريات الفرويدية والماركسية أن تساعدنا على فهم مركز الشباب الحديث ؟ تركز النظرية الفرويدية على أهمية استقرار العلاقات العائلية وثباتها . وهى توضح أن التوتر والتنافس وتعقد العلاقات العاطفية العائلية يمهد الأرض لنزاع بين المراهقين والبالغين . فيبحث المراهق بين أقرانه عن الراحة والأمان اللذين لا يجدهما فى أسرته . يبحث لنفسه عن نظام أو شخصية وعلاقات وأى شىء لم تستطع الأسرة ولا المجتمع منحها له .

أما النظرية الماركسية فتوجه انتباهنا إلى العلاقة الوثيقة بين الأسرة والهيكل الاجتماعى . فنى مجتمع رأسمالى يسيطر عدم الأمان الاقتصادى على كثير من الأسر . فلا مفر من أن ينظر الآباء إلى الأطفال باعتبارهم عبئاً إضافياً على ميزانية الأسرة ، وباعتبارهم أفواها جديدة يجب إطعامها . ولا شك أن قيم المجتمع الذى يقيم النجاح بالمال ، والذى يصنفق للمجهود الفردى ولا يهتم بالمجهود التعاونى لا بد أن يكون لها أثر سيئ على المحيط الأسرى . أكثر من هذا يمكننا أن نقول إن مثل هذا المجتمع لا يقدم الظروف الملائمة لإنماء الفهم المتبادل بين الشباب والشيوخ وبذا تميل الصراعات الداخلية إلى زيادة حدة الصراعات الأسرية .

المثالية تحتم علينا أن نبحث عن وسائل تسمح بإقامة فترة انتقال أقل وحشية من الطفولة إلى البلوغ ، فترة انتقال ينظر خلالها إلى حاجات المراهق بعين العطف يجب علينا أن نسعى إلى الوصول إلى إعداد أكمل لمهام سن البلوغ ، بتعويد الشباب بالتدريج ولكن باستمرار على تحمل المسئوليات وبمحاولة إشعارهم أننا دائماً فى صفهم . هذا الموقف المتغير يحتم ، على ما أعتقد ، ثورة كاملة فى أفكارنا الاجتماعية والتربوية والتحرر من القيم التى تحكمنا اليوم .

* * *

إلى هنا تنتهى دراستنا للنظريات الفرويدية والماركسية . وقد رأينا أن هذين التيارين الفكريين الأساسيين فى عصرنا يصحح أحدهما الآخر إلى درجة كبيرة . فالنظرية الفرويدية تجعلنا نتصور تعقد الحياة الشخصية . وتوجه الماركسية انتباهنا إلى العوامل الاجتماعية التى تحدد سلوكنا الإنسانى ، ولكنها تميل إلى إهمال القوى الشخصية التى تدفع الناس إلى إقامة علاقات مع وسطهم الاجتماعى ، بطريقة إيجابية . إن الماركسية بافتقارها لأضواء النظرية الفرويدية تبدو خشنة ويصعب أن نجد إيضاحاً لهذه الفكرة أفضل من التذكير بعهد ستالين فى الاتحاد السوفيتى . لا شىء سوى الجهل التام بالمعارف النفسية المتعلقة بالصفات التى يمكن أن تدفع الإنسان إلى محاولة السيطرة على حزب ، وخاصة على حزب ثورى ، هى التى يمكن أن تفسر لنا نجاح ستالين فى الاحتفاظ بالسلطة طيلة هذه المدة وهى النقطة التى ركزت عليها فى محاولاتى السابقة لأحمل الماركسيين على النظر

إلى الأشياء من الزاوية الفرويدية . وقد دافعت عن فكرة أن الماركسية التى توجه جهودها للنشاط الثورى — ومهما كان وضعها مبرراً خلال فترة الثورة — لا يمكن أن تستخدم كتبرير لإخفاء القوى القهرية الوحشية لعقل سادى[1] .

فافتقار الماركسية للرقة النفسية لم تهيء الماركسيين أو تمكنهم من التكهن بمدى نتائج نظام كالنظام الستالينى . إذ كان الماركسيون مبهورين منومين مغناطيسياً بفكرة العزم والتصميم الاجتماعى للقائد ، الذى كان يعكس ويظهر اهتماماً بالقوى الاجتماعية الموضوعية ولم يكونوا يرون الأفراد إلا من وجهة نظر الطبقة والمحيط الاجتماعى . وبذا كانوا يجهلون دقائق النفسية الإنسانية والتغيرات التى يمكن أن تطرأ عليها . كون هذا الشخص أو ذاك يحتمل أن يبدو منه وجه وحش مرعب أو سادى ، حتى بطريقته الماركسية للتفكير ، لم يخطر لهم على بال . كان المهم هو أن يثبت اقتناعه بالشعور بالطبقات . ولذا فإن ماركسياً بريطانياً بارزاً وهو الأستاذ ج. د. برنال كتب فى دراسته عن فرويد وماركس : « إن الفرد هام ، ولكن فقط طالما هو يبلور ، فى أنشطة محددة ، تصميم الحزب والطبقة ويكفى أن نقارن خطاباً لستالين بخطاب لهتلر لندرك الفرق الشاسع الذى يفصل هذين التفكيرين فيما يتعلق بقيادة الناس . »

حقا كان تفكير كل منهما فيما يتعلق بقيادة الناس مختلفاً ، ولكن القائدين أنفسهما هل كانا مختلفين نفسيا ؟ إذا حكمنا على هذا الموضوع تبعاً للأفكار السوفيتية المعاصرة عن ستالين فإن الإجابة تكون بالنفى .

لا شك أن ستالين كان يعكس ، نواحى متعددة ، من تصميم إدارة العمال والفلاحين الروس وأنه كان قادراً على بث العزيمة فى كفاحهم وعلى قيادتهم . وبرغم ذلك فإن ماركسياً متفتحا مستنيراً بالأفكار الفرويدية كان يشعر بالخطر الذى ينذر به قائد ثورى كان يضفى على كفاح العمال عنفاً وشراسة كانت تعبيراً عن قوى سادية داخلية لاتحتمها ولا تبيحها احتياجات الكفاح .

لا يكفى أن نقيم العوامل الموضوعية التى تؤثر فى القرارات الإنسانية ، خاصة

---

(١) السادية هى الرغبة فى تعذيب الغير فى مجال العلاقات العاطفية. سميت كذلك نسبة للماركيز « دوساد » .

تلك النابعة من شخصيات تحتل مراكز بارزة . فالناس تحركهم مشاعر الحب والبغض ، وعوامل صادرة عن أحداث حياتهم الشخصية . وهى غامضة ولكنها قاهرة ، ولا يمكن تفسيرها بنظرية مبسطة عن السلوك الاجتماعى. هذا هو ما يجب أن يتعلمه الماركسيون . ولا شك أنه سيصعب عليهم تفسير المنازعات التى نشبت فى وقتنا الحالى بين القادة العالميين الماركسيين إذا ما أضروا على الاعتماد على العوامل الاجتماعية الموضوعية وحدها . لم يحدث أبداً أن كانوا فى حاجة إلى البصيرة الفرويدية كما يحتاجون إليها اليوم .

وعلى أى حال فإن الماركسية بانتقادها الحازم الشديد لا معقولية واللاعدل الاجتماعيين فى زماننا ، يمكن أن تعطينا الكثير ، ولكن على الماركسية أن تثرى وتضفى الإنسانية على انتقادها وتستعين بأضواء النظرية الفرويدية إذا كانت تريد أن تنجو من الادعاء الحازم الذى يظهرها بمظهر النظرية ضيقة الأفق وغير المحتملة والنابعة عن فكرة مبسطة للسلوك متجاهلة أو جاهلة بتنوع الاختلافات الفردية بين الرجال والنساء .

الفهرس

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٦٢٦٨/ ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

الماركسية والتحليل النفسى

هذا الكتاب شرح واضح مبسط للقضايا الأساسية فى الفكر التحليلى النفسى والفكر الماركسى ، ثم هو محاولة لإبراز نقط الالتقاء بينهما .

وهو كتاب مفيد للقارئ العادى غير المتخصص ، كما أنه ضرورى لكل من المحلل النفسى والماركسى .

وبرغم عدم وضوح العلاقة بين الماركسية والتحليل النفسى ، فقد انتهى مؤلف هذا الكتاب إلى أنهما تياران متكاملان .. فهما يحاولان فهم الإنسان والمجتمع فى عصرنا الحاضر ، رغبة فى تحرير هذا الإنسان من القوى اللامعقولة التى تكمن داخله أو تفرض نفسها من المجتمع الذى يحيط به .



